الزواج وملك اليمين في عصر النبوة
وحكمة تقنين تعدد الزوجات
في الإسلام

(دراسة منهجية مقترنة بعلم الروح الحديث "البارسيكولوجى")

رداعلى إساءات الضالين والمأجورين للرسول

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(شرح ما يتعلق بملك اليمين في إطار دلالات كتاب الله تعالى)

للكاتب والمفكر الإسلامى الدكتور

محمد السادات

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: الزواج وملك اليمين في عصر النبوة وحكمة تقنين تعدد الزوجات في الإسلام

إعـــداد: محمد السادات

رقم الايداع : ٢٠١٦/١٥٨٢٤

الطبعة الأولى ٢٠١٦



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ / ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

مقدمة

قد يجدر بنا إذا ما أردنا أن نتلمس بعضا من حكمة تقنين إباحة تعدد وتنوع النكاح (الزواج) في التشريع الإسلامى، فلابد لنا أن نتطرق إلى سرد عدة موضوعات محورية وتناولها بالدراسة والبحث لمدى أهمية ارتباطها بهذا الجانب من التشريع وعلى رأسها:

أولا:- الإنسان محورالتشريع في الرسالة المحمدية.

ثانيا:- النبوة في الإسلام مهبط الوحى والتشريع وأسوة البشرية في تنفيذ ما يتلقاه من وحى مع توكيد القيمة البشرية للرسول ﷺ ليس بلفظ الآيات فحسب بل معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها وتاريخ الرسول كله

ثالثا:- المرأة في الإسلام كإنسان له كافة حقوق الإنسان، وكل تكاليفه العقلية والروحية وكصنو للرجل تقع عليها الأمانة التى تقع عليه... أمانة العقيدة وتزكية النفس.. إلخ

رابعا:- الزواج في الإسلام: باعتبار أن علاقة المساكنة بين الذكر والأنثى هى أساس الأسرة.. وهى تنبعث من غريزة طبيعة ينظمها التشريع ما وسعه التنظيم حتى يضع حدودا لتلك القوة الحيوية العارمة ترتفع بالإنسان وقيمته

خامسا:- الأسرة في الإسلام: باعتبارها مصدر سائر الفضائل والمناقب الخلقية المحمودة.. فالغيرة والعزة والوفاء ورعاية الحرمات كلها قريبة النسب من فضائل الأسرة الأولى، ولا تزال من فضائلها بعد تطور الأسرة في أطوارها العديدة منذ عشرات القرون. ولإبقاء لما كسبه الإنسان من أخلاق المروءة والإيثار إذا ما هجر الأسرة وفكك روابطها ووشائجها.

سادسا:- ملك اليمين في الإسلام في إطار دلالات كلمات كتاب الله تعالى بعيدا عن الإسقاطات التاريخية لأمراض اجتماعية وأهواء وعصبيات مسبقة الصنع، تم فرضها على دلالات كتاب المولى عز وجل، في الوقت الذى ينقضها كتاب الله سبحانه تعالى جملة وتفصيلا... وسنرى ذلك إن شاء الله تعالى حينما نتعرض بالدراسة والتمحيص لملك اليمين في الإسلام باحرين في كتاب الله عز وجل بمركب العقل المجرد عن أصنام التاريخ.

سابعا:- زواج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وباعتباره أسوة للإنسانية جمعاء بأمهات المؤمنين رضى الله تعالى عنهن أجمعين باعتبارهن أسوة للمؤمنات في طاعتهن وإيمانهن وورعهن على مر العصور والأجيال والسيرة الذاتية لكل منهن مع البحث في تلمس الحكمة من وراء زواج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكل منهن.

ثامنا:- أسوة سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معاشرته لزوجاته.

تاسعا:- الروحية والزواج في علم الروح الحديث (الباراسيكولوجى) وما أدلى به علماء الروح في هذا الخصوص وارتباطهما الوثيق ببعضهما البعض.

ونظرا لتعدد هذه الموضوعات، وما سيصاحب تناولنا لها بالسرد بشيء من التفصيل **لذا أقترح عزيزى القارئ في هذا الخصوص أن نفهرس هذا الكتاب منهجيا كالتالى:**

الباب الأول:- الزواج في الإسلام وحكمة تقنين إباحة تعدد وتنوع النكاح (الزواج) ونتناول فيه الإنسان والمرأة والزواج والأسرة في الإسلام.

الباب الثانى:- ملك اليمين في الإسلام في إطار دلالات كلمات الله تعالى.

الباب الثالث:- زوجات النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والسيرة الذاتية لكل منهن والبحث في تلمس الحكمة من وراء زواج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكل منهن، وأسوة سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معاشرة زوجاته وبحث ما يثار حول علاقة الروحية بالزواج في علم الروح الحديث (الباراسيكولوجى).

وقد أود أن أشير في هذه المقدمة إلى قضية بالغة الأهمية وهى خصوصية رسم القرآن الكريم وتعلق ذلك تعلقا كاملا بالمعجزة العددية في كتاب الله سبحانه وتعالى فكلمة (آيه) في الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة النور٣١).

نراها ترسم على غير العادة، أى بحذف حرف الألف من نهايتها . . . وهنا نتوجه بالسؤال إلى الذين لم يدركوا بعد عظمة الرسم القرآنى كونه توقيفيا من عند الله جل وعلا، وعظمة تعلق المعجزة العددية به، فنقول لهم:

هل من الممكن إضافة حرف الألف إلى نهاية هذه الكلمة (آيه)، دون أن تختل المعايير التى نرى جزءًا منها، والتى تتعلق تعلقا بالمعنى والدلالات كما نرى ؟!!

وقد نرى مسألة كاملة تلقى الضوء على حقيقة اللباس الذى يريده الله تعالى للمرأة، والذى لابد - فيه- أن نعرف هوية هذه المرأة، وذلك بعدم تغطية وجهها الذى هو معيار معرفة هويتها الإنسانية، كمقدمة لعدم أذيتها، وهذا يترافق مع الأمر الإلهى للمؤمنين والمؤمنات بأن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، وأن لا تبدى المرأة من زينتها إلا ما يظهر تلك الهوية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ

عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ القيمة العددية = ٤٨٦ .

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَـهُمْ﴾ (سورة النور ٣٠) =٣٧٥ .

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (سورة النور ٣١) = ٦٥٩ ، ٤٨٦ + ٣٧٥ + ٦٥٩ = ١٥٢٠ =١٩ ×٨٠

وقد نود في هذا الصدد أن نلفت نظر القارئ العزيز فيما يتعلق بالإعجاز العددى في القرآن الكريم (يراجع في ذلك كتاب المعجزة الكبرى للمفكر الإسلامى عدنان الرفاعى) إلى المعادلات التالية:-

١- أن العبارة القرآنية في المسألة الكاملة تتكامل مع العبارات القرآنية التى تقرر أحكاما تتعلق بالمسألة ذاتها .

٢- فلو جمعنا القيمة العددية لكلمات آية أو أكثر فإنها تقبل القسمة على ١٩ طبقا لما ثبت فيما يتعلق بالإعجاز العددى في القرآن .

٣- تتساوى القيم العددية تماما بالنسبة للعبارات القرآنية المتوازنة في المعنى والدلالات .

٤- لقد علم العليم الحكيم الخبير سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها . . . والقرآن الكريم قد نزله المولى عز وجل تبيانا لكل شيء . . . وبالتالى تبيانا للأسماء كلها التى علمها آدم عليه السلام قبل هبوطه إلى الأرض . . . . ومن هنا نستنتج أن الأسماء كلها العنية محتواه دلالات الكلمات القرآنية فكليات الأشياء في هذا الكون يحملها القرآن الكريم كما يؤكد منزله جل وعلا . . . . وقد تأكدت هذه الحقيقة رياضيا ومنطقيا ، فقد

تأكد أن بناء المعنى والدلالات للنص القرآنى يتعلق تماما مع البناء العددى ويتوازن معه (المعجزة الكبرى لعدنان الرفاعى).

٥- ولما كان الحرف هو اللبنة الأولى في البناء العددى في تناولنا وتوظيفنا لنظرية إحدى الكبر (أى إحدى كبرى المعجزات) للمفكر الإسلامى عدنان الرفاعى فإن هذا يقتضي أن يكون اللبنة الأولى في بناء المعنى والدلالات فالوحدة الأولى للمعنى في القرآن الكريم هى الحرف وليست الكلمة.... وهذا ما لا نجده في أى لغة وضعية بما فى ذلك مفردات اللغة العربية غير القرآنية... إذا تحمل الكلمة القرآنية معنى هو في النهاية مجموع الحرف المكونة لها مع الأخذ بعين الاعتبار ترتيب الحروف في هذه الكلمة والجذر اللغوى الذى تفرغت عنه.... مما يترتب عليه:-

وأن العبارة القرآنية ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ (سورة النور ٣١) في هذه المسالة الكاملة - تتحقق دلالاتها على أرض الواقع بتحقق دلالات العبارة القرآنية ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ (سورة الأحزاب ٥٩).. فعدم إبداء الزينة التى لا يريد الله تعالى من المراة أن تبديها، يكون بأن تدنى المرأة عليها من جلابيبها.. ولذلك نرى تكامل هاتين العبارتين القرآنيتين في معيار معجزة (إحدى الكبر).

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ (سورة النور ٣١) = ١٠٢.

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ (سورة الأحزاب ٥٩) = ١٢٦، ١٠٢ +١٢٦ =٢٢٨ = ١٩ ×١٢.

والاستثناء ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من العبارة القرآنية ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.. هذا الاستثناء يصور لنا ما يظهر من زينة المرأة كهوية تميزها عن غيرها أى يشمل وجهها الذى تعرف من خلاله.. ونتيجة

هذه المعرفة يدفع عنها .

الأذى . وهذا ما نراه في المسألة الكاملة التالية . .

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور ٣١) = ٦٧ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (سورة الأحزاب ٥٩) = ٢٧٥ . ٦٧ +٢٧٥ = ٣٤٢ = ١٩ × ١٨ .

والتفسير التاريخى بأن العبارة القرآنية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ ، تعنى تغطية الوجه كى تميز الحرائر عن الإماء ، فلا يؤذين كالإماء ، حيث الإماء - كما يفترى على منهج الله تعالى - لم يكلفهن الشرع بالتستر ، وأن عورتهن لا تشمل الكثير من مفاتنهن ، وبالتالى فإن إيذاءهن مسالة ليست كبيرة ، كونهن - من منظار ما يفترى على منهج الله تعالى - في درجة أقل كرامة وحصانة .

هذا التفسير التاريخى لا وجود له في كتاب الله تعالى ، وتدحضه صياغة النص دحضا كاملا ، فلا وجود لكلمتى الحرائر والإماء في هذا النص ، ولا تحديد - في هذا النص - لإطار محدد من الإيذاء ، بل إن النص واضح في مخاطبة جميع نساء المؤمنين دون أى تمييز . .

أصحاب هذا التفسير التاريخى انطلقوا من واقع اجتماعى بأمراضه وعقده وعصبياته كمعيار يعايرون عليه دلالات كتاب الله تعالى . . لقد تصوروا المرأة مجرد وعاء يفرغ فيه الرجل شهوته ، وأن دورها في الحياة الدنيا لا يتجاوز هذه المهمة ، ولم يتصوروا المرأة لبنة فعالة في بناء المجتمع الإنسانى السليم المتحضر ، حيث المرأة فيه إنسان أراده الله تعالى خليفة له في الأرض . . لقد أرادوها حيوانا لا هوية له وبالتالى لا يعرفها المجتمع ، ولا تعرفه ، وهذا يتطلب تغطية وجهها لإلغاء هويتها الاجتماعية . .

ولم يهتموا بها ، كيف ستتزوج من إنسان لم ير وجهها ؟ ، وكيف ستعمل في مجال الحياة الإنسانية كإنسان فعال ينتج الفكر والحضارة ، دون أن تعرف هويتها ، ولم يدركوا أن تغطية وجه المرأة قد يتحول إلى سبيل لممارسة الفاحشة ذاتها ، حيث يتستر تحت ذلك الغطاء بعض الرجال والنساء على حد سواء في ممارستهم لتلك الفاحشة ، ولدرجة قد يشك فيها الرجل بنسائه ، حينما تقع الفاحشة مع امرأة تغطى وجهها في المجتمع الذى يحوى نساءه . .

. . كل ذلك . . وغيره الكثير من الاحتمالات ، أوجه من الإيذاء تنال المرأة حينما تفقد هويتها في المجتمع ، وحينما تتحول إلى رقم ليس له أى صفة اجتماعية ، أى حينما يغطى وجهها وتفقد هويتها الإنسانية . .

ولذلك نرى العبارة القرآنية: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ استثناء من الزينة التى يجب على المرأة ألا تبديها ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ، ونرى أن الله تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ، بهذه الصيغة (ظَهَرَ) دون أى صياغة لغوية أخرى . . فهذه الزينة هى خلق الله تعالى الظاهر بطبيعته دون أى تكلف ، والذى يعطى الإنسان هويته ، ويميزه ، ويعرف به عن غيره من البشر ، وهذا ما تصوره العبارة القرآنية (أدنى أن يعرفن) ، في المسألة الكاملة السابقة .

فهذه الزينة الظاهرة بطبيعتها والمستثناة من الزينة التى يجب على المرأة أن تخفيها ، هى الهوية التى تعرف بها المرأة ، وتتميز بها عن غيرها من البشر .

. . ولذلك نرى أن المعجزة العددية تتجلى في تساوى القيم العددية بين هاتين العبارتين القرآنيتين . . ﴿أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ =٦٧ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ = ٦٧ .

إذا العبارة القرآنية: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ والتى تشمل الوجه، ساحتها خارج ما تدنى المرأة عليها من جلابيبها، وذلك لتعرف المرأة ويمنع عنها الأذى .. وهذا ما نراه في المسألة الكاملة التالية ..

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ = ٦٣ .

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ = ٢٢٢ ، ٦٣ + ٢٢٢ = ٢٨٥ = ١٩ × ١٥ .

.. فالعبارة القرآنية: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، تصف وجه المرأة غير المشمول باللباس الذى أنزله الله تعالى ليوارى الإنسان به سوءته ..

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ = ٦٣ .

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (سورة الأعراف ٢٦) = ٤١٢ ، ٦٣ + ٤١٢ = ٤٧٥ = ١٩ × ٢٥ .

فأمر الله تعالى بتحديد لباس المرأة بحيث يظهر وجهها، فلا تؤذى، لا سبيل للشيطأن إلى الفتنة من خلاله، لأنه لا يتعلق بنزع اللباس لإظهار السوءة ..

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (سورة الأحزاب ٥٩) = ٤٨٦ .

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ (سورة الأعراف ٢٧) = ٤٨٣ ، ٤٨٦ + ٤٨٣ = ٩٦٩ = ١٩ × ٥١ .

إذا معرفة هوية المرأة كمقدمة لعدم إيذائها، وهو نتيجة إنزال الله تعالى

للباس ، ونتيجة تمسك المجتمع المؤمن بلباس التقوى . .

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (سورة الأحزاب ٥٩)= ١٤٩ .

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف ٢٦) = ٥٥٤ ، ١٤٩ + ٥٥٤ = ٧٠٣ = ١٩ × ٣٧ .

. . وهذه المسألة نرها من منظار آخر تصوره المسألة الكاملة التالية . .

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف ٢٦) = ٥٥٤ .

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (سورة النور ٣١) = ١٦٩ .

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ (سورة النور ٣١) = ٢٤٦ ، ٥٥٤ + ١٦٩ + ٢٤٦ = ٩٦٩ = ١٩ × ٥١ .

. . فاللباس الذى أنزله الله تعالى ، يكون فاعلا عندما لاتبدى المرأة من خلاله زينتها ؛ إلا ما ظهر منها كهوية تميزها عن غيرها ، ومن خلال عدم تحركها - ماديا و معنويا بحركات تهدف إلى إظهار الزينة المخفية التى يحرم الله تعالى إظهارها .

. . فالعبارة القرآنية: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ، تصور - كما هو واضح من صياغتها اللغوية - حكما إلهيا عاما يمنع المرأة من تحركها المادى والمعنوى تحركا يؤدى إلى علم زينتها المخفية (ماديا ومعنويا) والتى يحرم عليها أن تعلمها للناس . . ودلالاتها ليست محصورة بحيثية تاريخية تتقزم فيها بحيث لا تتجاوز الخلخال كما فسر

تاريخيا . . وكل ذلك دون مغالاة تلغى هويتها وشخصيتها التى تميزها عن غيرها من النساء المحتشمات . . وهذا ما نقرؤه في المسألة الكاملة التالية ، التى تصور طرفى هذا الموضوع . .

﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ (سورة النور ٣١) = ٢٤٦ ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ ﴾ (الأحزاب: ٥٩) = ٩٦ ، ٢٤٦ =٩٦ = ٣٤٢ = ١٩ × ١٨ .

مما سبق نرى أن الله تعالى يصور أحكامه في هذه المسألة – وفى غيرها من المسائل القرآنية – تصويرا مطلقا مجردا عن الحيثيات التاريخية ، وعن الخصوصيات القومية والإقليمية ، بحيث يستطيع الإنسان تصور أحكام الله تعالى في كتابه الكريم – قد نزلت عليه هو ، وتخاطبه في كل زمان ومكان . وتفى للإجابة على كل متطلباته الحضارية إلى قيام الساعة . .

إذا . . . اللباس الذى يأمر الله تعالى به المرأة المؤمنة ، لا بد أن يحقق شرطين أساسيين .

١- أن يشمل جسد المرأة ، ولكن دون أن يلغى هويتها ، وبالتالى دون أن يعرضها للأذى ، إذ إن طمس هوية المرأة في المجتمع يعرضها للأذى ، ويجعل منها رقما لا هوية له ، وكائنا غير فاعل في ذلك المجتمع . . وهذا الشرط نراه في الآية الكريمة التالية كمسألة كاملة في تبيان هذه الحقيقة . .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب ٥٩)= ٦٠٨ = ١٩× ٣٢ .

٢- ألا يكون اللباس شفافا بحيث لا يؤدى غرض الستر منه ، وخصوصا أماكن العورة والفتن التى بحاجة إلى تغطيتها بسماكة وثبات

تسترها، وهذا ما تصوره العبارة القرآنية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (سورة النور ٣١).

حيث تؤمر المرأة في هذه العبارة القرآنية أن تسعى لستر مناطق الفتن والعورات وذلك بواسطة الأغطية المناسبة غير الشفافة، وبحيث يكون اللباس المعنى في المسألة الكاملة السابقة المصورة للشرط الأول فاعلا مؤديا لمهمته بشكل سليم.. ولذلك نرى أن هذه العبارة القرآنية وحدها مسألة كاملة، تصدق تكاملها معجزة (إحدى الكبر) ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (سورة النور ٣١) =١٧١= ١٩ × ٩ .. وهكذا نرى أن نصوص القرآنية تحمل من الدلالات والمعانى ما هو أكبر بكثير مما تم تحميله خلال التاريخ، وأن هناك ما تم تحميله للقرآن الكريم والقرآن منه براء... فسواء الإفراط في التطرف أم التفريط في الأحكام، كلاهما وجهان لعملة واحدة، هى مخالفة أحكام كتاب الله تعالى..

.. لقد رأينا كيف أن الزعم بأن لباس الحرائر يكون بتغطية وجوههن كتمييز لهن عن الإماء، في الوقت الذى زعم فيه أن عورة الإماء لا تشمل بعض مفاتنها، وكأنها مخلوق غير إنسانى، وكأن جسدها من مادة أخرى تختلف عن مادة جسد الإناث... رأينا أن كل ذلك ليس أكثر من إسقاطات تاريخية لأمراض اجتماعية وأهواء وعصبيات مسبقة الصنع، تم فرضها على دلالات كتاب الله تعالى، في الوقت الذى ينقضها كتاب الله عز وجل جملة وتفصيلا..

وحينما نبحر في كتاب الله عز وجل بمركب العقل المجرد عن أصنام التاريخ، إنما نصل إلى أعماق ما كان لنا أن نصلها فيما لو سجنا دلالات كلمات الله تعالى وعباراته وأنفسنا معها في أنفاق التاريخ...

* * * * *



الباب الأول:

الزواج في الإسلام وحكمة تقنين إباحة تعدد وتنوع الزوجات



الفصل الأول:
الإنسان في الرسالة المحمدية

لا ريب أن الإنسان وقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه كثيرا ؛ جراء ما التصق به من وزر أبيه الأول (آدم) فذلك الوزر الذى اعتبر الخطيئة الأولى، وخطيئة باقية موروثة لابد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشرى كافة.

ويحسم ما جاء في القرآن الكريم هذا الأمر حين يتعرض لقصة آدم وما تروى فيه من أكل الثمرة فيقول عز وجل في سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة ٣٧) .

وآدم أبو البشرية قد كرمه الله سبحانه وتعالى وفضله على الملائكة . . .

يقول جلا وعلا في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة ٣٤) .

وذلك لأن الإنسان خلقه الله سبحانه وتعالى قادرا على الخير والشر وليس كالملائكة التى خلقها العلى القدير لفعل الخير، فيكون له عليها فضل الإرادة لما يأتيه من الصالحات أما بنو آدم فيقول الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء (الآية ٧٠): ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء ٧٠) .

ويخاطب عز وجل الناس في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ

عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الحج ٦٥) .

وفى سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (سورة لقمان ٢٠) .

إذا كانت المسؤولية هى أساس الكرامة والإنسانية، وأساس كل حرية، وكل أخلاق متعارف عليها فإن هذا ما قطع به الإسلام ووضع به الحجرالأساسى لكرامة بنى آدم. يقول المولى عز وجل في سورة النجم: الآيتان ٣٨ ، ٣٩: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (سورة النجم ٣٨ - ٣٩) .

ويقول تبارك وتعالى في أكثر من سورة على سبيل التاكيد: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة فاطر ١٨) .

وهو عز وجل القائل في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (سورة التين ٤) وهذه المسؤولية هى التى يسميها العلى القدير في القرآن الكريم بالأمانة .

هذه الأمانة التى جاء في سورة الأحزاب عنها قول الله تبارك وتعالى عنها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (سورة الأحزاب ٧٢) .

ثم نجد في سورة الإسراء قوله جل وعلا: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (سورة الإسراء ١٣) والحق كل الحق إنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ بعيدا عن الإسلام

في ظل تلك الفترة القاسية القاتمة التى تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء، فيمضى في حياته مضى المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق، بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.. ولاريب أن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها. وأن رفعها عن كاهل الإنسان منة عظمى، وبمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه وولادة جديدة ورد إعتبار لا شك فيه بوضع زمام كل إنسان بيد نفسه. ويؤكد الإسلام في الرسالة المحمدية الخاتمة على أن الناس في كرامة البشرية أمة واحدة بغير تفريق إلهها إله واحد أحد لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير **فقد جاء في سورة الأنبياء قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾** (سورة الأنبياء ٩٢).

وقوله عز وجل وعلا في سورة البقرة: ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (سورة البقرة ٢٥٥).

وجاء في سورة الحجرات قوله تبارك وتعالى: الآية: ١٣: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات ١٣).

أجل لا عصبية ولا شعوبية، ولا فروق من حيث اللون أو اللغة..
ويقول عز وجل في سورة الروم: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (سورة الروم ٢٠).

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ

وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (سورة الروم ٢٢) .

وهكذا صار الناس سواسية كأسنان المشط وأكرمهم عند الله أتقاهم: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (سورة المجادلة ١١) .

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة الزمر ٩) إلا إن لمن له أذنا للسمع فليسمع ومن كان من العقلاء فليتأمل ويدرك . . فإن من كرامة الإنسان الكريم على نفسه أن يتبع الحق، ويجهر به ويحتمل في سبيل ذلك من الألم ما يصيبه بنفس راضية . . وعلى المؤمنين أن يتواصوا بالصبر كما تواصوا بالحق . . كما جاء في قوله عز وجل في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر ١ - ٣) وأن الغلبة للحق في نهاية المطاف على كل حال في قوله عز وعلا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (سورة الأنبياء ١٨) .

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (سورة الإسراء ٨١) .

كما ينبغى أن يقر الإنسان الكريم بالحق، ولو على نفسه وآله الأقربين كما ورد قوله تبارك وتعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (سورة النساء ١٣٥) فإن الحق مقدس ولو كان فيه مغنم لعدو، فذلك هو لباب التقوى فقد جاء في قوله عز وجل في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة ٨) .

ثم جاء في ختامها: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة المائدة ١١٩) .

ويشيد المولى عز وجل في سورة الفرقان بالصادقين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (سورة الفرقان ٧٢) .

إن الإنسان الكريم العزيز بإيمانه لصبور على المكاره وإن أوذى في سبيل الحق فقد جاء في سورة البقرة قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة ١٥٣) .

وقوله جل وعلا في سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران ٢٠٠) .

وفى سورة ابراهيم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (سورة إبراهيم ٢) ، فالشجاعة الحق والشهادة لله والصبر على الإيذاء في سبيل الحق إنها لصفات الإنسان الكريم على نفسه حقا ، ولكنها لا تتم روعتها إلا بالخشوع للرحمن إذ يقول عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (سورة البقرة ٤٣ - ٤٦) .

وفى سورة لقمان: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (سورة لقمان ١٨ - ١٩) .

وفي سورة غافر: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (سورة غافر٣٥) .

وفي سورة النحل: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْـمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (سورة النحل ٢٣) .

ولعلك عزيزي القارئ قد شاهدت مرات كم تميعت نفسك وغثيت كلما رأيت عتلا من المستكبرين غرهم من الدنيا ظل من السلطان وما دروا لغفلتهم أن السلطة في ذاتها ليست شيئا ، وأن الولاية على الناس جذوة من النار أما الشيء المجدى حقا ، فهو رعاية الله في حقوق الناس ، واستخدام السلطان للخير والعدل في غيرة على الحق ، وحماسة لنصرته ، وابتغاء لوجه الله لا يعرفه إلا الخاشعون .

وسبحان من أنزل هذا الكلام: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (سورة الإسراء ٣٧ - ٣٨) ولا تتم صورة الإنسان الكريم الغيور على الحق ، والصادق في القول ، الصابر في الهول ، الخاشع للرحمن إلا بأن يكون صادق الوعد موفيا بالعهد والعقد .

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (سورة الإسراء ٣٤) ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (سورة المائدة١) ، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة النحل ٩١) .

وما من خلة أزرى بالإنسان الكريم من النفاق وقد أنحى عليه العلى

القدير في القرآن المجيد إنحاء عنيفا .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (سورة النساء ١٤٢ - ١٤٥) ، ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ (سورة آل عمران ١٦٧) .

فالإنسان الكريم حقا لا ينافق ، ولا يخشى في الله والحق شيئا ، ينصر الله والله ناصره وذلك هو جوهر إيمانه وانه بذلك لعزيز المكان في الدنيا والآخرة ، ولا يسعى في دنياه سعى الغريب والذليل . **يقول جلا وعلا:** ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (سورة القصص ٧٧) وهكذا يكون الإنسان متكامل الجوانب لا يشكو فصام الروح والجسد ذلك الفصام الذى عانى منه الكثيرون ولا يعرف الفصام إلا من يكابده ، وبهذا يكون الإنسان سيد الأرض حقا لا ينظرإلى طيباتها نظرة الحسير ، ولا يمشى في جنباتها مشية الأسير ولا يثقل كاهله الخزى من نوازعه وفى يده زمام نفسه ، وقد أحل له ما لم يرد فيه تحريم وتقربه عينه في غير حرج ولا غضاضة .

* * * * *

الفصل الثاني:
النبوة في الإسلام

لقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد وكان الرسل أيضا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب أو بنسب من الأنساب، فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا في الرسول أو النبى أنه ليس بشرا كسائر البشر وأنه له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء. لذا كانت مسألة أنه لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية مسألة تحتاج إلى توضيح وحسم، ولذا نجد توكيد هذا التنبيه بأنه لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية متواترا مكررا في آيات القرآن الكريم تذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في سورة الكهف من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف ١١٠) وما جاء في سورة فصلت من قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة فصلت ٦).

وفي تخير كلمة مثلكم معنى مقصود به التسويق المطلق والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشر بحال من الأحوال بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى. من قوله جل وعلا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (سورة الشورى ٤٨).

وظاهر في هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمة وحدود رسالته التى كلف بها وليس له أن يعيدها ، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها بل وكأنما احتاج هذا التنبيه إلى مزيد من الصراحة فجاء في **سورة ق:** **قوله عز وجل:** ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ (سورة ق ٤٥) **من هذا القبيل أو أصرح ما ورد من قوله تبارك وتعالى في سورة الغاشية:** ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾ (سورة الغاشية ٢١ - ٢٢) .

رسول بشر ما عليه إلا البلاغ بما يوحى إليه من ربه . . وأسوة للبشرية كبشر مثلهم ولا زيادة . . وتوكيد القيمة البشرية يحددها الرسول ليس بلفظ الآيات فحسب بل معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها وتاريخ الرسالة كله أن رسول الإسلام محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أول رسول بعث إلى الإنسانية جمعاء لا إلى قوم بعينهم أو جنس بعينه أو أمة بعينها: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة سبأ ٢٨) .

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الأنبياء ١٠٧) وقد إنبرى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو الناس لدينه ورسالته الخاتمة بمعجزة عقلية خالدة على مرالزمان وحتى قيام الساعة هى القرآن الكريم فكانت أعظم برهان للدلالة على نبوته وصدق رسالته - سواء لمن عاصروه وشاهدوا مع هذه المعجزة الخالدة معجزات وخوارق حسية أخرى كتكثير الطعام وجلب الماء ونبعه من بين أصابعه . . . إلخ كانت تمليها الضرورة القصوى مثل إنقاذ جيشه وأتباعه من الهلاك في تلك البيئة الصحراوية القاسية . . إلخ أو أتباعه على مر الأجيال والعصور الذين لم يشاهدوا معجزاته وخوارقه الحسية . . . ولكنهم يشاهدون ويزيد إدراكهم جيل بعد جيل ويوما بعد يوما بمدى إعجاز ما يحويه القرآن الكريم من حقائق كونية وعلمية ومعرفة ومنهج معجز وهداية

الإنسانية جمعاء على مر العصور وحتى قيام الساعة لقد أراد الله تبارك وتعالى أن يشعر الناس بأن رسولهم بشر مثلهم حقا وصدقا كما جاء في سورة الكهف عانى مما يعانون منه وتألم مما تألموا منه وخاض مثلهم تجارب الحياة المتعددة المتباينة بحلوها ومرها ثم كان سلوكه وتصرفه وأقواله إزاء ذلك كله قدوة وأسوة حسنة للإنسانية جمعاء يقول الله جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (سورة الأحزاب ٢١) ولكنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ذلك ليس له من سلطان على الناس ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ وإنما الأمر إليهم كي يكون اهتداؤهم نابعا من قدراتهم البشرية وعن اقتناعهم الذاتي، بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير.. فيكون اهتداؤهم إيمانا ليست فيه شائبة استهواء أو توريط أو اقتناص بوسائل هي بالسحرة أشبه وإلى وسائلهم أقرب.. وما توانى العرب في مطالبته بإخراج ما ظنوه في جعبة كل صاحب نبوة وما أرادوا بذلك إلا الملهاة !!

يقول عز وجل في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ (سورة يونس ٢٠) .

وفى سورة الأنعام: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (سورة الأنعام ٥٩) .

وفى سورة الأعراف: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف ١٨٨) فلم يكن يعلم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنباء الغيب إلا ما كان يوحى به إليه فقط من العلى القدير وسبحانه وتعالى يقول: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (سورة يوسف ١٠٢) . ﴿ذَلِكَ مِنْ

أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (سورة آل عمران ٤٤) . ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (سورة هود ١٠٠) .

نعم لو كان يعلم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغيب دون ما يوحى به إليه أو ينبئه الله به ، لاستكثر من الخير وما مسه السوء كما ورد في سورة الأعراف . . حقا ! بل وتخطف الموت فلذات أكباده ليكون ذلك برهانا على أن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بنى آدم . . فتسقط دعوى الناس في التقصير عن الاهتداء به فلو كان يجرى عليه غير الذى يجرى على البشر ، لكانت لبعضهم الحجة بأن استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول فأين هم منه ؟ وكيف يكلفون بما لا طاقة لهم به ؟ بل هو مثلكم لا يملك لنفسه نفعا ولاضرا ويمسه السوء والثكل مرة بعد مرة ، ففيه قدوة سوية وأسوة عادلة لكل من نشد الاهتداء والاقتداء . . وفى رأينا أن تأييد دعوة حق فقط بخارقة غير طبيعية أو بمعجزة خاطفة الإبصار مسألة لا تستساغ إلا في حالات انحطاط العقل البشرى . . . بالإضافة إلى أن هذه المعجزة إن لم يصاحبها دليل على ثبوتها وديموتها فإنها تترك أثرها فقط على الجيل الذى شاهدها فهى أشبه بالاحتيال على الطفل ليقبل على الطعام الذى يقيم أوده . . . وهو حرى أن يطلبه ويلح في طلبه لو أوتى الرشد كذلك العقل السوى الراجح يجد امتهانا له أن يؤمن بدعوى من أجل خارقة أو معجزة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى ، فإن كان دعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها فالحقيقة آية نفسها ولا مراء في ذلك . . . ولا شك أن إحياء ميت أو إبصار أعمى أو غير ذلك من جلائل الأحداث لها قيمتها في حد ذاتها ، ولكنها بغير قيمة إطلاقا إذا أريد بها إثبات أن ٢ + ٢ = ٧ أو ما إلى ذلك من المسائل العقلية لهذا كان لا بد للعقل البشرى في طور رشده ، أن تأتيه

الدعوة إلى الهداية بأسلوب عقلي صرف، يحترم فطرته وبداهته، وذلك برهان على أن دعوة الإسلام جاءت موافقة للطور الطبيعي للبشرية تاريخا ونضوجا ورشدا.

لذا يؤكد الله عز وجل في قرآنه المجيد على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بساحر ولا بكاهن أو مجنون، وعلى أن المعجزة الخارقة لا تفيد في إقناع مكابر وفي ذلك جاء **قوله تبارك وتعالى بسورة الحجر**: ﴿**وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ**﴾ (سورة الحجر ١١ - ١٥) ولا ريب أن من يمعن النظر في الآيات التالية من سورة الإسراء يجد فيها حكمة الإصرار والتاكيد على بشرية الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن آيته الحق هي صدق رسالته بما نزل من وحي عليه وذلك حسبها من سند، وحسب الناس لو كانوا مهتدين غير مكابرين، فما شاء العلي القدير الرحمن الرحيم أن يكون الرسول ملكا من الملائكة، حتى تكون بشرية هذا الرسول قدوة وحجة على الناس **يقول الله عز وجل**: ﴿**وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ**

خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (سورة الإسراء ٩٠ - ٩٦) **يقول الشيخ الإمام محمد عبده في مفتتح كتابه (الإسلام والنصرانية):**

(فالإسلام في هذه الدعوة لا يعتبر على شيء أكثر من الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية... وقد اتفق المسلمون إلا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقادات بالنبوات... فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل، ولا من الكتب المنزلة فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله، وبإنه يجوزأن ينزل كتابا أو يرسل رسولا) نعم إن الحقيقة باقية والبشر زائلون. والرسالة هى الباقية وما هى بمتوقفة في شيء بعد بروزها على بقاء هذا الرسول...

يقول عز من قائل تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة آل عمران ١٤٤).

إنها لحقيقة ولكن كان لابد من تقريرها لتوكيد بشرية هذا الرسول المصطفى، وليس أدل على لزوم هذا الاحتياط من افتتان الناس برسولهم وجنوحهم إلى الخروج من مستوى البشر الفانين من أن صحابيا جليلا مثل عمر بن الخطاب على علو قدره ورجاحة عقله وقوة إيمانه وهو من هو من الإسلام ورسوله أبى أن يصدق أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل به طائف الموت، وأشهر سيفه ليقاتل به كل من ادعى ذلك، ولولا أن أبا بكر الصديق تلى عليه وعلى الناس تلك الآية من سورة آل عمرآن لحدث ما لا تحمد عقباه... نعم.... إن الحق حق لذاته ودعوة الإسلام صادقة لذاتها... عاش الرسول أو مات أو قتل... وهذا إذن هو مكان النبوة

الحق في ذلك الطور الأخير من أطوار العقيدة الإلهية الذى لم يفهمه جيدا ، تابعوا العقائد السابقة ، ففى رسالة الإسلام الخاتمة التى نادى وبشر وأنذر بها محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتنزه الله عز وجل سبحانه وتعالى الواحد الأحد العلى القدير ، عن كل وصف أو تشبيه أو شريك ليس كمثله شيء . . . جل وعلا ورسله وأنبياؤه ليسوا كهانا ولا ملائكة ولا سحرة . وإنما هم بشر يأتيهم الوحى من خالقهم العظيم بالروح الأمين وليس عليهم إلا البلاغ المبين . وقد يتساءل البعض: هل تتكرر تلك النبوة على ذلك الأسلوب ؟ والجواب المنطقى هو لا . . . . لأنه أصبح لا حاجة للبشرية لذلك التكرار فإن طور الأسلوب العقلى المجرد هو آخر أطوار البشرية فمن تفتح عقله وبلغ رشده فطائره في عنقه وعليه بعد ذلك أن يعمل عقله وفكره ، وقد تسلم قيادة نفسه ، كما أن الرسالة خصوصية هى إتمام ما سبق ، ومتابعة البشر في أطوار نضجهم بما يناسبهم من الهداية والصلاح فما هى الخصوصية التى يمكن أن تكون موضوع رسالة جديدة بعد رسالة الإسلام لقد تمت فكرة الوحدانية الأحدية للعلى القدير سبحانه وتعالى ، وتم خطاب العقل ، وتم البلاغ إلى الناس كافة أحمرهم وأسودهم . . . وتمت كرامة الإنسان وصلته بربه ودنياه . . . وتركت لهم مصالحهم المرسلة يعالجونها على ذلك الأساس حسبما يستجد لهم من الأمور فكل رسالة بعد ذلك قول معاد ، ليس فيه جديد يستفاد . . . . **يقول عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِينًا﴾** (سورة المائدة ٣)

وبسبب من طبيعة الرسالة ومن الحاجة الماسة الطبيعية للناس إليها كان من الطبيعى أن يكون هذا الرسول خاتم الرسل لأن رسالته كانت خاتمة الرسلات .

* * * * *

الفصل الثالث:
المرأة في الإسلام

المرأة في الإسلام إنسان له كافة حقوق الإنسان وكل تكاليفة العقلية والروحية .

فهى في ذلك صنو الرجل . . . تقع عليها الأمانة التى تقع عليه . . أمانة العقيدة والإيمان وتزكية النفس . . . **فقد جاء قوله تبارك في سورة الأحزاب:** **﴿الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾** (سورة الأحزاب ٣٥) وقد يجد الكثيرون أن هذا الأمر بديهى في زماننا هذا ولكن لم يك الأمر كذلك في العالم القديم ففى أغلب الأمم والشعوب كانت المرأة تباع كما تباع السلعة يبيعها أبوها أو رأس عشيرتها أو حتى زوجها أحيانا . وكانت في أغلب الأحيان منقوصة الأهلية لا تمارس التصرفات المالية والقانونية إلا عن طريق وليها وبموافقته بل لم تملك تزويج نفسها واختيار شريكها في الحياة وإنما الأمر في ذلك لوليها يجريه على هواه بل وأكثر من هذا كانت بعض القبائل العرب في الجاهلية تئد البنات كراهة لهن وازدراء لشأنهن ومن لم يؤدن كان يضيق بهن ضيقا شديدا . . . **يقول جل وعلا في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** (سورة النحل ٥٨ - ٥٩) وفى الآية ٩٧ من هذه السورة عينها إشارة إلى المساواة عند الله عز وجل بين الذكر والأنثى بغير تفريق

في التكليف أو الجزاء . . . يقول جل وعلا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل ٩٧) وفى سورة النساء الآية ٧ إشارة أيضا صريحة إلى مساواة المرأة والرجل في ثمرات الأعمال والجهود . . . .

يقول الله تبارك تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (سورة النساء ٧) وهذا النصيب المفروض: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ باعتبار أن نفقات المرأة كاملة تقع على عائلها من الذكور بالغا ما بلغ ثراؤها . . أما الذكر فهو عائل أهل البيت من أولاد ونساء ، فأعباؤه المالية أبهظ من المرأة بكثير . . . . وهذه القسمة إذا نظرنا إليها بحيادية عادلة ، فهى إذن أقرب إلى مجاملة المرأة في شؤون الأموال الموروثة . وغالبا لا يخوض باحث في موضوع المرأة في الإسلام من غير أن تخطر بباله قضية تحرير المرأة في هذا العصر ، ومساواتها بالرجال ويخطر على البال حتما قول الله تبارك وتعالى في سورة النساء: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (سورة النساء ٣٤) وما جاء في سورة البقرة من قوله جل وعلا: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة ٢٢٨) وقد يبدو من قراءة الآيتين لأول وهلة أنها هابطة بالمرأة إلى درجة دون الرجل وفى هذا ما فيه من بواعث التساؤل في زمن

إستفلحت فيه قضية المساواة بين الجنسين . . بل وأصبح يقاس بها مدى تقدم الدول وحضارتها وهنا لابد من الرجوع إلى مسوغ هذا التفاوت والتفضيل وليس كل تفضيل جورا بل إنه متى كان التفضيل لفضل ثابت فهو العدل بعينه . . . كما إنه ليس من المفروض أن يكون هذا الفضل مطلقا بغير قيد أو شرط لجنس معين من الجنسين ، بل أن التفضيل عقلا لا يصح إلا بحصول الفضل وتحققه يرتفع بارتفاعه ويوضع بوضعه ويتحول بتحويله . فما الفضل المشاهد للرجل على المرأة ؟ إنه حاميها وإنه عائلها وإنها تركن إليه وتلوذ به كما إنه في الأغلب الأعم أعلم منها وأبصر بأمور الدين وأمور الدنيا وتجاربها وإنه أحظى بنصيب من المواهب أو القدرات ومن الملاحظ الملفت للنظر ويجدر إمعان التفكير فيه هو أنه لم يرد ذكر القوامة على النساء على علاقة المذكورة بغير بينة بل قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (سورة النساء ٣٤) فهناك إذن وجهان لحصول تلك القوامة هما إرباء الفضل والإعالة أو النفقة المالية وشق الإعالة أو النفقة قد تجد له المرأة حلا في نزولها إلى ميدان الأعمال وقيامها على أمر معيشتها كالرجل . . . أما إرباء الفضل فهو رهن بإصابة نصيب من التعليم أو البراعة في فن من الفنون أو رجاحة العقل ونباهة الذكر وهي مقررات الفضل بنص القرآن فقد جاء في سورة المجادلة قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة المجادلة ١١) ويلاحظ هنا بوضوح ورود درجات بصيغة الجمع في حين ورد في سورة البقرة عند التعرض للمرأة والرجل بصيغة الفرد ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وجاء في سورة الزمر قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ

﴿يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة الزمر ٩) وجاء في سورة النساء قوله جل وعلا: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء ٩٥) أن العلم يرفع صاحبه على من لا علم له ، فالعالم خير من الجاهل ، والعالمة خير من الجاهلة . والمؤمن خير من الكافر والكافرة ؛ والمؤمنة خير من الكافرة والكافر ؛ والمجاهد في سبيل الله بأمواله ونفسه خير من القاعد في الجهاد والقاعدة والمجاهدة في سبيل الله بأموالها ونفسها خير من القاعدة في الجهاد والقاعد . لا تفضيل بغير فضل ولا تشريف بغير تكليف وإنما كان العرف جاريا بانحباس المرأة عن هذه المجالات ومتى زال هذا العائق وارتفع عنها القصور أو التقصير فهى حقيقة بثمرات فضلها وقيامها بتلك التكاليف الجسام وليس الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس يكون بالقتال دفاعا عن العقيدة والعرض والمال والأرض والنفس فحسب . . . بل وبكل عمل صالح لخير عباد الله أو دفع المرض أوهدية الناس إلى ما تصح به نفوسهم وييسرون به للخير ومرضاة ربهم في أمور دينهم ودنياهم فليس الإسلام على حقيقته عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين في القيمة بل إن المرأة في موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة ولا يفضلها إلا بفضل ولا يحبس عنها التفضيل متى حصل لها ذلك بعينه في غير مطل أو مراء . . . . وذلك حسب عقيدة أراد العلى القدير سبحانه وتعالى أن تكون صالحة لكل طور اجتماعى على تعاقب الأطوار والعصور ، على سنة العدل الذى يلغى كل تفريق ويقضى على كل تمييز إلا بامتياز ثابت صحيح .

*****

الفصل الرابع: الزواج في الإسلام

لا جدال أن لباب ما يثور حول موضوع الزواج في الإسلام هو الزوجة الواحدة أم تعدد الزوجات ، وهنا لابد من وقفة ونظرة متاملة لتبين الحقيقة في هذا ، ولا جدال أيضا أن من المسلم به أن الدين لايقصد به مستوى من البشر دون مستوى ولا عصرّا من العصور دون سائرها . . ولا بيئة من البيئات بعينها ، وإنما يراد به التشريع للكافة وتنظيم حياة البشرمن حيث هم كذلك مع مراعاة فطرتهم السوية . . . ولكن مع الإشارة إلى ما فوق ذلك من درجات السمو التى لا يبلغ إليها الخاصة وأولو العزم من الناس . وعلاقة المساكنة بين الذكر والأنثى وهى تنبعث من غريزة طبيعة ينظمها التشريع أو العرف الاجتماعى ما وسعه التنظيم ، عسى أن يضع حدودا لتلك القوة الحيوية العارمة ترتفع فوق مستوى الأنعام . . . وما من شك في أن نظام الزوجة الواحدة الدائمة نظام مثالى . . . . وبالتالى فإنه من البديهى أيضا إلا يطيقه إلا المثاليون . . . . وما لهؤلاء فحسب جعلت هداية الدين وأتت الرسالات السماوية المتعاقبة . . . ونظرة متأملة إلى واقع الحياة البشرية في تاريخ مجتمعاتها الغابرة والحاضرة في كافة أرجاء الأرض تطلعنا على تعدد النساء في حياة الرجل الواحد سواء جهرا أو سرا وسواء برخصة من القانون أو الدين أو بغير وهو الأغلب الأعم . . . وأعتقد إنه ما من عاقل يفضل التعدد على إطلاقه بغير رخصة على التعدد المحدود المقنن برخصة . . . فإن أثر الشعور بالإثم والاختلاس على السلوك البشرى بصفة عامة أثر خبيث يسمم حلاوته ويعكر صفاءه الذى لا تتقدم السعادة الروحية والنفسية بغيره فضلا عما في العلاقات المختلسة من إضرار بالمرأة وإفساد

لحياتها بل وحياة المجتمع ككل لاحيلة فيه . . . ثم إن حياة البداوة والريف غير حياة الحضر في العالم كله . . ففى الريف والبادية يعز القوت أحيانا ولا سيما على المرأة وإن كان هذا أيضا أصبح يسيرًا في زماننا هذا على حياة الحضر . . وقد يكون في عدد النساء زيادة عن عدد الرجال والذى أصبح إحصائيا ملموسا لأسباب متعددة أوضحت أهمها وأبرزها حكمة تعدد زوجات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما وراءها من أسباب للتأسى بها سيأتى شرحها فيما بعد . . . وبالتالى لا يصان عرض المرأة ولا تستقر معيشتها أو حياتها ماديا ونفسيا إلا إذا صارت في كنف رجل يعولها ويحميها . . . وعندئذ لا حيلة في التعدد لأنه الحل السليم الوحيد وأسلم أساس لجماعات هذه حقيقة ظروفها والضرورات تبيح المحظورات . . . هى رخصة إذن تستخدم بحقها عند اكتمال تحقق مسوغاتها الطبيعية من أحوال البيئة أو المجتمعات وما القول في زوجة أقعدها المرض ؟ وما القول في الزوجة العقيم؟ وما القول في الزوجة الفاترة ؟ وما القول في الزوجة السقيمة الأعصاب ؟ أطلاق كل منهن أرحم أم الإرداف بزوجة أخرى ؟ لا شك أن الأمر واضح هى رخصة إذن نستخدم بحقها وشروطها ولكنها ليست إلزاما فالنص صريح في سورة النساء: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ أى أن العدل هو الشرط الأساسى والجوهرى في إباحة التعدد ومن البديهى أن العدل هنا يقتضى كفاءة الرجل صحيا وبدنيا وقدرته ماليا على تحمل كافة أعباء الزواج وتبعاته بشكل منصف بين زوجاته في كافة التعاملات والحرص على ذلك . . وفى سورة النساء نص صريح أيضا على عدم استطاعة الزوج تحقيق العدل بين زوجاته ولو حرص على ذلك . . . . وهذا بديهى فإنه بطبيعته كإنسان سيميل هواه إلى واحدة أكثر من الأخرى وفى هذا إيحاء وحض على التزوج بواحدة إذا لم تك هناك ضرورة حتمية لذلك كما

قدمنا: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وكما إنه ليس من الإنصاف أن نقيس هذا الحض بمقياس زماننا فحسب بل بمقياس زمان الدعوة وبيئاته وما تلاه من عصور ففى زمان الدعوة وآدابه كان التعدد مطلقا من كل قيد ومن هذا قد نستطيع أن نفهم بعضا من حكمة قول العزيز الحكيم جل وعلا في سورة النساء ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ بلهجة من يعدد للطامع ما هو مباح بأسلوب يوحى بالتوسيع وهو يرمى إلى التضيق... وهو أشبه بالأب الذى يقول لطفله الشره إلى الحلوى شرها لا يقف عند حد: سأعطيك واحدة في الصباح وثانية في الظهر وثالثة في العصر ورابعة عند حلول المساء أرايت إنى لم أبخل عليك ؟ أما ما زاد على ذلك فليس إليه سبيل ! ثم تلا ذلك الإيحاء بالواحدة لا تزيد - أن لم يك لذلك ضرورة حتمية - لمن خاف الظلم عند التعدد.. أما في غير تلك الأزمنة والبيئات من أزمنة وبيئات البشر كافة الذين توجهت اليهم الدعوة الإسلامية فالمسألة أوضح وأبسط بكثير فلن تضيرهم بأى حال من الأحوال رخصة التعدد وهم على التوحد - الاكتفاء بزوجة واحدة - أقرب إليه طبعا ونشاة والخالق العظيم يريد بنا دائما اليسر ولا يريد بنا العسر وفى ميدان الفضل والتعفف سعة وبه يتفاضل الناس بعضهم فوق بعض درجات... ومن البديهى ألا يتم النظر في موضوع الزواج ما تعدد منه وما توحد، دون النظر في في كيفية الزواج أو نوع الصلة الزوجية.. إنها بالتاكيد ليست محسب مسافة حيوانية بين ذكر وأنثى أو إطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزى بين جنس النوع البشرى... بل لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الآداب وضوابط الشرائع والعقائد ويقول الله تبارك وتعالى في الآية ٢١ من سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة

الروم ٢١) ويجد من يمعن التأمل في قوله جل وعلا ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ لمسة رقيقة رائعة تمس شغاف القلب.... وتذكر بما في الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس ثم أردف ذلك بالسكن الذى هو في سكينة النفس في هذا الباب لا مساكنة الأجساد.... بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة.... مشاطرة نفس، وسكن وسكينة ومودة ورحمة.. وما من شيء في هذه كلها من خصائص المتعة الشهوية والرغبة الجنسية البحتة. فإن الشهوة تأخذ وتنال، وهى معتصمة بأنانيتها وانعزالها عن الطرف الآخر ولا تزيد بعد مأربها إلا شعورا بالعزلة والوحدة والموحشة وشتان بين هذا والمشاطرة وسكن النفس والمودة والرحمة.... الزواج إذن مطلب نفسى وروحى عند الإنسان وليس مطلبا شهويا وجسديا وإن كان له أساس جسدى فما كان أحرى الناس لو أن مطلب الجسد رائدهم ومبتغاهم إلا يعرفوا حدود الزواج وقيوده التى تفرض الالتزامات على كل حال وفى خارج الزواج لا قيد لمن كل همه متاع البدن وقضاء الشهوة **ورب قائل**: أما الزواج في جوهره مطلب نفسى وروحى عند الإنسان وليس مطلبا شهويا وجسديا وإن كان له أساس جسدى... ففيم التعدد إذن حتى ولو كان رخصة يهتبلها من شاء ويتنكبها متعففا من شاء ؟ وإما كان التوحد أفضل في سبيل ذلك السكن النفسى ؟ والجواب: أن هذا صحيح من حيث المبدأ... ولكن المبادئ قلما تعيش في دنيا البشر أو تتيسر في أمور هى أمس ما تكون بالحياة اليومية والحقائق المادية... ونزيد الأمر وضوحا متسائلين: أين هى الزوجة المثلى التى تملأ جوانب الرجل النفسية وتسكن إليها نفسه سكنا كاملاحتى لا يفتقد في كنفها لونا من السكينة والطمأنينة كان يرجوه أو يشتاق إليه ؟ والجواب: قليل..... أو أقل من القليل خاصة في زماننا هذا الذى تغلغلت المادية فيه بشكل كبير ومضطرد خاصة فيما يتعلق بالكثير من

الجوانب الروحية والمضيئة في حياة الإنسان **يقول سليمان الحكيم عليه السلام**: (الزوجة الفضلى أثمن من اللؤلؤ النفيس . . . من ذا الذى يجدها؟!) هذا هو قول سليمان الحكيم الذى عرف ألوف النساء من جميع الأصناف والألوان وقد اجتمع في قوله من التجارب الزوجية والنسوية ما لم يجتمع لإنسان . . فماذا يقول إذن سواه من عباد الله الذين لم يؤتوا الملك العضوض والجاه العريض؟ نعم إن من وجد هذه اللؤلؤة بين الناس لن تهفو نفسه إلى سواها بل يتعلق بها تعلق الطفل بصدر أمه لا يرضى به بديلا . . . . أما من لم يجدها ففى نفسه أشواق تظل ظمأى تنشد ريها هنا وهناك . . . . وهذا واقع نلمسه أيضا هنا وهناك ، واقع نلمسه كل ساعة وكل يوم في رجال محصنين بالزواج ، تصبو نفوسهم إلى غير زوجاتهم في علاقات مختلسة تسف بهم وبشريكاتهم إلى درك الحيوان ودرك الخزى والتأثم المهدد لإحساس الكرامة الذى هو خاصة الإنسان بالإطلاق . . . . فراغ ينشد الامتلاء فالطبيعة تفرغ من الفراغ وتأباه . . . ومن هنا يكون في رخصة التعدد ملاذ يكفى الناس شرين: أولهما شر التورط في الآثام التى قد تشوه النفس مهما أرضت نوازع الأشواق الجسدية . وثانى الشرين تطليق الزوجة القديمة لتفسح للزوجة الجديدة مكانا في نظام التوحد وقد يكون للزواج الأول ثمرات تذوق التشرد وقد يكون الزوجة الأولى مثقلة بالسنين أو العلة أو الأبناء أو عاطلة من الجمال ، خالية اليد من مهنة ، خاوية الوفاض من مال فتتقوض حياتها ، ولعلها كانت تؤثر البقاء في كنف زوجها على كل حال . . . . . وأقر أننى عرفت في حياتى حالات متعددة من هذا القبيل منها حالة قريب لى جدا تزوج من سيدة ذات مكانة اجتماعية وجامعية كبيرة وقد قضى معها أكثر من عشرين عاما لم تشركها زوجة أخرى أنجبا فيها ولدا وحيدا مات إثر حادث سير أليم وهو في السادسة عشرة من

عمره وخيم الحزن على البيت وكان واضحا أن الزوجة بلغت سن اليأس فإذا بها تلح على زوجها أن يتزوج بزوجة تنجب لهما ولدا تقر به أعينهما في خريف العمر . . . وهو ما تم فعلا وكأنما دبت الخضرة في عودها الجاف ، وعود زوجها الثاكل وكان ولا زال هذا الطفل لصيق بصدر زوجة أبيه الكهلة تعطيه الكثير من حبها وعطفها وحنانها . . قد يجدر الذكر هنا في هذا المعنى ما حفلت به التوراة من ندب الزوجة العاقر جارية لها كى تحمل من زوجها وتلد له نسلا . . . . . . وفى اعتقادنا أن هذا الرأى المستمد من الواقع في تحديد ظروف التوحد والتعدد هو أقرب ما يكون للتعليل الطبيعى . . . . ولو نظرنا إلى حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه لوجدناه لم يشرك في فراشه أحد مدة حياة السيدة خديجة رضى الله عنها وقد طال زواجهما ربع قرن تقريبا هو طور الفحولة في حياة الإنسان . . . إذ كان ما بين الخامسة والعشرين والخمسين من عمره المبارك ولم تتعدد زوجاته إلا بعد وفاته وليس هذا موضع الشرح أو الكلام في ظروف زواجه بأولئك الزوجات أمهات المؤمنين فحقيقة الأمر أنه زوج بهن ليكون هذا الزواج أسوة وقدوة للمؤمنين عند تعدد الزوجات خدمة للإسلام . . وصونا لكرامة المؤمنات بهذا الدين وهو ما سنعرض له تفصيلا فيما بعد بمشيئة الله تعالى ولكن حسبنا هنا الآن الإشارة إلى أن السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها كانت الزوجة المثلى في حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد ظل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشهد بذلك إلى ختام أيامه وأيا كان التعدد بموجبات تلك الرخصة غير الملزمة فهو مشروط بالمودة والرحمة وحسن التعامل والمعاشرة وتقوى الله عز وجل . . . وقد يجدر أن نشير هنا أيضا إلى ما يذهب إليه المعتزلة من تحريم زواج الرجل بثانية ما دامت الأولى في عصمته لما في ذلك من المضار للزوجة الأولى . . . وهذا في رأينا قد يكون من باب السمو الذى

يحض القرآن الكريم عليه عندما أشار قول الله عز وجل فيه الاكتفاء بواحدة خيفة الظلم في حال التعدد وإنه كان لم يحض على الإطلاق على تطليق الزوجة الأولى ليتسنى إتمام الزواج بزوجة أخرى كما يذهب إليه المعتزلة . . . . وعلى آية حال فإن الرخصة غير الملزمة واضحة والحكمة منها قاطعة . . . . والتعدد غير محرم لمن عجز عن الخطة المثلى وهى التوحد فهى رخصة مبذولة لمن لا مندوحة لهم عنها . . . . والمرتقى فوق ذلك مفتوح لمن استطاع وهو محمود . . .

وقد يجدر بنا أيضا في هذا المقام التعرض لناموس الزواج أصلا بعد أن شاعت المسيحية حوله مناخا خاصا خلاصته أن العفة ، أو الرهبانية هى الأصل ومن لم يستطع ذلك فليتزوج أى أنَّ الرهبانية هى الأصل والزواج رخصة يرتخصها من لا مندوحة له من ذلك . . . ولا شك أن هذا المفهوم مرتبط بفكرة الخطيئة الأولى واعتبار أن العلاقة الجنسية شر في ذاتها ولذاتها وأن الجسد كله عورة بكل رغائبه وطلبه للطيبات من الدنيا فهذا الترهب من النسك والصيام المسيحى العزوف عن أطايب الطعام ، أدلة على الضيق بالبدن ، وازدرائه وصحبته على مضاضة والنظر إلى مطالبه وإلى زينة الدنيا جملة نظرة عداء وخصومة . . . البدن شر لا بد منه . . . . . وكذلك الزواج والخير كل الخير في محاربتهما وعدم الانسياق أو الإخلاد إليهما . . . حياة لا طمأنينة فيها ولا قرار وإنما هو الصراع المستمر والقلق المستمر ، الذى تفسد به الدنيا وتعيا به النفس خاصة بعد أن كشف لنا علم النفس الحديث عن العلل والآفات المخربة التى تسمم ينابيع الحياة بسبب الشعور بالتأثم من الجسد وغرائزه النوعية . . . فما حال إنسان يمارس الحياة حزينا حارما نفسه من كل نبضة سرور بها وكل خلجة استمتاع فيها وكل انتفاضة طبيعية إليها . . . إن الإسلام لا يقاوم الحياة بل يقر الفطرة البشرية على تقديسها ، وصيانة ينابيعها من الأكدار ولا يفصل بين حياة

الروح وحياة الجسد حيث لا انفصال لهما في واقع الجبلة التى جبلها خالقها الحكيم الخبير.. وآيات القرآن الكريم تكرر فضل الخلق سبحانه وتعالى وحكمته السامية في إبداع الجنسين وكيف أن هذه سنة الله في خلقه كافة في جميع مراتب الحياة، والرسول ﷺ يؤكد أن الزواج نصف الدين.... وأى تعبير أقرب إلى فطرة الحياة ويرفع كل شبهة خزى أو حبوط معيب عن تلك الصلة بين الزوجين مما ورد في سورة البقرة بذلك التعبير اللطيف الرقيق اللبق المعجز: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ أو كما ورد في سورة النساء فيما يتعلق بتعظيم ما يكون بالزواج من ميثاق وعقد وعهد له حرمة ترعى ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (سورة النساء ٢١) بل إن الكراهية أمر لا يسوغ المبادرة إلى فصم العروة الوثقى.

كما جاء أيضا في سورة النساء قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء ١٩) إن الأساس في ذلك العقد أنه لا ضرر ولا ضرار. ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ كما جاء قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة وذلك من الخلق الكريم الذى يرتفع في سمت الفروسية عن الإفتئات الذميم والجور اللئيم... وهو ما أكد عليه رسول الله للإنسانية جمعاء ورحمته المهداة **للعالمين في خطبة الوداع: «استوصوا بالنساء خير فإنهن عوان لا يملكن لأنفسهم شيئا وإنكم أخذتموهن بأمانة الله»** إن الرجل يمسك المرأة ويقوم على أمرها في كنفه ومن ثم وجبت عليه الرحمة بها ولم يجز له الاستبداد في أمرها... إنها أمانة الله في يده وعنقه وليس بعد أمانة الله محرجة لمن ألقى السمع وهو شهيد استجابة للحياة في طلاقة وبراءة من التأثم وتقديس لدوافعها وورود طلق لينابيعها، مع

الحفاظ عليها من أكدار البهيمية المسفة وبذلك يسعد المرء من بنى الإنسان، وتترقرق في نفسه نضارة الثقة وأفراح الحياة. ولا يجد حرجا بين ربه ونفسه، فربه قد خلقه على تلك الفطرة، ولو شاء لجعله ملكا لا بدن له ولا شهوة... كان لابد من إصلاح ما بين الإنسان ونفسه التى بين جنبيه بعقيدة موفقة بين الدين والدنيا.. وقد نهض بهذا الإسلام وكانت سنته في الزواج كفاء خطته في جوانب الهداية البشرية الفطرية، لتحرير البشر من الذعر، والخزى وعقدة الإثم الشوهاء التى كبلته ولم تزل تكبل الكثيرين عن انطلاق الحياة وسواء الفطرة ولا يمكن أن تتم لنا فكرة متكاملة عن الزواج في الإسلام من غير التعرض لموضوع الطلاق يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ (سورة البقرة ٢٩) والحق أنه يعسر جدا تشريع الزواج دون وجود تشريع أيضا للطلاق بصورة من الصور... فالزواج نظام جعل لإسعاد الناس وصلاح أمور حياتهم.. ولم يخلق الله عز وجل الناس ليكونوا عبيدا أو ضحايا للزواج بل ليكونوا راضين عنه سعداء به؛ فالزواج الذى تستقيم به حياة الإنسان هو الذى يستحق الإبقاء عليه أما الزواج الذى به تفسد حياة الإنسان ويتطرق إليها العطب والعفن وصديد الحقد والسخط فهذا ينبغى أن يبتر قبل أن يقضى على فرصة الحياة المقدسة، كما يبتر العضو الفاسد من الجسم حرصا على بقاء للجسم كله مهما كان ذلك المبتور عزيزا.

فقاعدة... (لا ضرر ولا ضرار) هى قاعدة ليس أحكم منها في جميع شؤون البشر ومعاملاتهم وهذه هى القاعدة الإسلامية العامة إن فرصة الإنسان في الحياة واحدة ففيم نجعلها عذابا مقيما لزوجين وقد تبين وتأكد لنا أن الوفاق بينهما مستحيل، وأن حياتهما معا إهدار لحياتهما لا محالة ؟ ولقد أثبت التطبيق العملى حتمية إجازة الطلاق وصارت أمم الغرب المسيحية تجيز الطلاق قانونا في قانونها بواسطة المحاكم وذهب بعضها إلى التوسعة في أسباب الطلاق

وإجراءاته فما قيمة سعادة شكلية للإنسان فارغة من لبها . . وهو يدرك ويحس أنه محكوم عليه بهذه السعادة الشكلية المرائية ولا فكاك له منها بأى حال من الأحوال؟! إن في يقينى أن الشعور بالحرية والقدرة على اختيار المواقف والمصير هما حجر الأساس في كل إحساس بالكرامة البشرية وبغير تلك الكرامة لا قيمة لسعادة شكلية مفروضة مهما استطالت . . إن السعادة الحقيقية هى التى يشعر معها الشخص أن الباب أمامه مفتوح، وإنه لو قدر له أن يملك زمام الاختيار من جديد ما اختار إلا ما هو فيه إن رخصة الطلاق دواء مر المذاق أو جراحة موجعة ولكن من ذا الذى يلغى التداوى كراهة للمرارة أو يحرم الجراحات كراهة للآلام والمصائب ؟ لابد من الدواء ومن الجراحة، مادمنا نعيش في عالم الصلاح والفساد والصواب والخطا والصحة والمرض والحكمة والحماقة . . بحيث لا عصمة للبشر، لابد من وسيلة لتدرك الأخطاء وإعطاء الفرصة لبنى آدم وبنات حواء كى يبدؤوا من جديد بناء سعادتهم في الدنيا بإقامة أركان أسر سليمة الصرح يعمرها الأمن والمودة الرحمة والإسلام يضع رخصة الطلاق في موضع الدواء والكريه المذاق أو مبضع الجراح ولا زيادة ولا يكون اللجوء إليه إلا بعد استنفاد الحيلة في إصلاح ذات البين يقول الله تبارك وتعالى في سورة النساء: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾** (سورة النساء ٣٥) فإذا عجز الحكم من أهلها والحكم من أهله عن إصلاح ذات البين فقد أن إذن أن يكون: **﴿تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾** لأن الإمساك بالمرأة على كراهة بينة وأسباب مقنعة لا يرجى لها علاج يكون مضارة لها والقاعدة المثلى في الإسلام أنه لا ضرر ولا ضرار .

ولذا جاء قوله عز وجل في سورة البقرة: **﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾** (سورة البقرة ٢٣١) وليست المرأة في

جميع الأحوال تحت إرادة الزوج إمساكا وتسريحا.. إذا يجوز أن تكون عصمة المرأة بيدها إن شرطت ذلك عند عقد الزواج فيكون زمام الحياة الزوجية في عنقها إن شاءت أبقت وإن شاءت فصمت... وهذا هو الحد الذى يقول العقل أنه لا يجور على حقوق السعادة الفردية، ولا يجعل الزواج أحيانا (عاهة مستديمة) بغير مبرر عقلى وبغير مصلحة لكائن من كان... وقد يحتج محتج بمصلحة الأولاد وتلك رتب الإسلام فيها أحكام النفقة وأحكام الحضانة... ثم ما من أحد يقول أن تربية الأطفال في كنف أبوين متفهمين متحابين أمر يستوى تربيتهما في كنف أحدهما دون الآخر. ولكن المسألة هى أن التفاهم بين الأبوين وقد امتنع، يكون من الخير إلا ينشا الأولاد في ذلك الجو الحاقد اللدود فذلك أهون الشرين لهم، وهو كذلك أهون الشرين للأبوين وهى على كل حال آفة لا يقبل عليها عاقل وله عنها مندوحة... ولقد لعن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من يستخدم رخصة الزواج بغير حقها الإنسانى والشرعى»**، قضاء لمآرب وضيعة فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لعن الله كل ذواق مطلاق»**. و**«لعن الله الذواقين والذوقات»** و**«لعن الله كل مزواج مطلاق»** ولحكمة واضحة جعل الطلاق على ثلاث مراحل حتى يكون هناك مواضع للمراجعة قبل أن تقع الواقعة فإن سلطان الغضب غشوم أما السكران أو المحرج أو المكره، فلا يقع منه طلاق وأما القول بأن يكون القاضى هو الذى يصدر الطلاق لأسباب محدودة مثل الزنا، فقول فيه غضاضة لأن التحاكم في دور القضاء فيه لا ريب ابتذال للأعراض حتى تغدو مضغة في الأفواه... وأن صون الأسرار وأسباب الفراق هنا أليق وفيه من النخوة والبصيرة الشيء الكثير حتى لا توصم المرأة بما يعيبها ويعوق زواجها مرة أخرى ولا يوصم بناتها أو أبناؤها بما تردد في قاعات المحاكم من مثالبها، وما قد يصدر به حكم القاضى

تأسيسا عليه . . . ثم كيف لنا بتحديد الأسباب التى تجيز الطلاق بناء على طلب الرجل؟ إن الزواج صلة حميمة وقد لا يرى الغريب في المرأة عيبا ولكن يجد الزوج فيها عيبا كبيرا ، وليس من الضرورى أن يكون ذلك العيب جسميا أو محسوسا فهناك اختلاف الطباع مع كمال الأدب في الزوجين بحيث يمتنع بينهما الامتزاج والتفاهم فإن الماء من أجود الماء وأنقاه ، والزيت من أجود الزيت وأنقاه لا يمكن مزجهما للاختلاف البين في التركيب والطبيعة والمعدن . وعندئذ يكون الافتراق خيرا وأولى لأن كلا من الزوجين قد يصلح كل الصلاح للزواج بأخرى يحيا حياة طبيعية مريحة ولا مرارة فيها ، فلا عيب في الدواء إذن ، ولا يطعن في صلاحه أن تطيش به يد أو يشتط لسان فلا يطعن على الماء إنه قد يشرق به الشاب أو يغرق به المغتسل ولا يطعن في النار إنها قد تكون حريقا لا يبقى ولا يذر فالمعول كله على تقوى الله ثم على حسن البصر ومراعاة الحذر هذا وقد يجدر بنا فيما يتعلق بالزواج في الإسلام أن نقول كلمة حق لنرد بها على خصوم الإسلام وخاصة من المستشرقين المحترفين الذين يوصمونه بالأنانية لإجازته زواج المسلم بالكتابية - يهودية أم نصرانية - في حين يمتنع العكس أى زواج الكتابى بمسلمة .

نقول لهم أن يتذكروا أن الإسلام يعترف باليهودية والنصرانية ولا يجحدهما وبالتالى فإنه لا غضاضة على الزوجة الكتابية في الاحتفاظ بدينها وهى زوج للرجل المسلم .

وأن يتذكروا بأن رجال الدين عند كل من اليهود والنصارى قد جرى تقديرهم على إنكار الإسلام فبالتالى تكون المسلمة غير آمنة على دينها في كنف الكتابى . . وأن المسألة ليست مسألة تحيز أو عصبية في كثير أو قليل . .

* * * * *

الفصل الخامس:
الأسرة في الإسلام

إذا تتبعنا سائر الفضائل والمناقب الخلقية المحمودة لوجدنا أن أصلا من أصولها على الأقل مصدرا من مصادر الحياة في الأسرة فالغيرة والعزة والوفاء ورعاية الحرمات كلها قريبة النسب من فضائل الأسرة الأولى ولا تزال من فضائلها بعد تطور الأسرة في أطوارها العديدة منذ عشرات القرون

ولابقاء لما كسبه الإنسان من أخلاق المروءة والإيثار إذا هجرالأسرة وفكك روابطها ووشائجها فمن عادى الأسرة فهو عدو للنوع الإنسانى في ماضيه ومستقبله ولا يعادى الأسرة أحد إلا تبينت عداوته للنوع الإنسانى من نظرته إلى تاريخ الأجيال الماضية . .

فلولا الأسرة ما اجتمعت الثروات التى تفرقت شيئا فشيئا بين الوارثين وغير الوارثين من الأعقاب ولولا الأسرة لاستجاب لدعوة الهدم والتخريب كل من لا خلاق له من حثالات الخلق ونفاياتهم في كل جماعة بشرية

فالأسرة هى التى تمسك اليوم ما بناه النوع الإنسانى في ماضيه ، وهى التى تؤول به غدا إلى أعقابه وذراريه حقبة وجيلا بعد جيل

فلا أمة حيث لا أسرة بل لا آدمية حيث لا أسرة ولن ينسى الناس إنهم أبناء آدم وحواء إلا إذا نسوا أنهم أبناء رحم واحد وأسرة واحدة ، أيا كان تاويلهم لقصة آدم وحواء ، ومتى علمنا أن واجب الإنسان لبنى نوعه في الإسلام - وإنما هو واجب الأسرة الكبرى التى جمعت أخوة الشعوب والقبائل لتتعارف بينها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ

خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات ١٣) .

فقد علمنا شأن الأسرة في هذا الدين وعلمنا أن قرابة الرحم والرحمة حجة القرابة بين الأخوة من أبناء آدم وحواء ، وإنها هى شفاعة كل إنسان عند كل إنسان

وتقوم الأسرة في الإسلام على أنها كيان دائم يراد له السعة والامتداد والوئام وتتحقق سعة الأسرة وامتدادها ووئامها بنظامين من النظم التى شرعها لها الإسلام ، وهما نظام المحارم في الزواج ونظام الميراث . فالإسلام يحرم الزواج بالأقربين ولا يبيح ذوى القرابة إلا من أوشكوا أن يكونوا غرباء ، فالزواج يجمع منهم في الأسرة من أوشكوا أن يتفرقوا كابناء العمومة والخؤولة .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (سورة النساء ٢٣) .

وقد تكون المقاصد من هذا التحريم متنوعة ومتعددة لا يمكن حصرها في هذا المقام إلا أن أجدها وأجلها في رأينا يتمثل في توسعة الأسرة ووقايتها من شواجر الخصومة والبغضاء ، وأن يتحقق بالزواج من أسباب المودة والنسب ما لم يتحقق بالقرابة ، فيرجع إلى الأسرة من أوشك أن ينفصل عنها ، ويحرم الزواج بذوى القرابة الحميمة التى التى لا حاجة بها إلى توثيق النسب والمصاهرة وهما في القرآن الكريم من آيات خلق الإنسان **كما جاء في سورة الفرقان:** ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا

وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (سورة الفرقان ٥٤) ويشرع الإسلام نظام الميراث ؛ لأن الأسرة كيان يعيش ويتصل عمره بعد انقضاء أعمار أعضائه ، ولا اعتراض على نظام الميراث من وجهة النظر إلى طبائع الأحياء ولا من وجهة النظر إلى المصلحة الاجتماعية فإن الأبناء يرثون من آبائهم ما أرادوه وما لم يريدوه ، وحق لهم أن يرثوا ما خلفوه من عروض كما ورثوا عنهم ما خلفوه من خليقة لا فكاك منها ، ولا غبن على المجتمع في اختصاص الأبناء بثمرة العمل الذى توفر عليه الآباء ؛ لأن هذه الثمرة إذا بقيت في المجتمع كان الورثة أحق بها من سواهم ، إذ الغبن أن يتساوى في النهاية العامل لغده والعامل الذى لا ينظر إلى غير يومه وساعته ، أو يتساوى من يعمل ويبنى للدوام ومن لا يعمل ولا يبالى ما يصيب المجتمع بعد يومه الذى يعيش فيه .

ويتحقق وئام الأسرة وامتدادها بما فرضه الإسلام من حقوق لكل عضو من أعضائها فلا حق لإنسان على إنسان أعظم من حق الآباء والأمهات في الإسلام على الأبناء والذرية ، ويكفى أن البر بهم يكاد أن يكون مقرونا بالإيمان بوحدانية الله .

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (سورة الأنعام ١٥١) .

وكادت الطاعة لهم ألا يسبقها واجب غير الطاعة للخالق العظيم سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (سورة لقمان ١٤ – ١٥) .

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ

عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (سورة الإسراء ٢٣ - ٢٤) وفى القرآن الكريم غير الوصايا في هذه الآيات وصايا مثلها تذكر كلما ذكر الوالدأن وفيه من الآيات ما يتصل به شكر الإنسان لنعمة الله على أبويه بدعائه إلى الله أن يصلح له ذريته وأن يلهمه العمل الذى تصلح به حياته الباقية .

وربما قد يسبق الخاطر في عصرنا هذا أن البر بالأبناء لا يحتاجون إلى وصية دينية كوصية الأبناء بالآباء لما ركب في طباعنا من حب البنين والرقة لصغار الأطفال على العموم . . . إلا أن أحوال الأمم وأحكام شرائعها قبل الإسلام تؤكد على مسيس الحاجة إلى هذه الوصية ، لأن أخطاء العرف الشائع فيها كانت أشد من أخطاء العرف الشائع من معاملة الأبناء للآباء . . . فكان الولد في شريعة الرومأن بمثابة العبد الذى يملكه والده ويتصرف فيه برأيه في كل ما يرتضيه له قبل بلوغ رشده وكانت شريعة حمورابى توجب على الأب الذى يقتل ولدا لغيره أن يقدم ولده لأبى القتيل يقتص منه بقتله وكان اليهود يقتلون الأبناء والبنات مع أبيهم إذا جنى الأب جناية لم يشتركوا فيها ولم يعملوها) .

ومن ذلك في الإصحاح السابع من كتاب يشوع حين اعترف عخان ابن زارح بسرقة الرداء النفيس والفضة:

(فارسل يشوع رسلا فركبوا إلى الخيمة وإذا هى مطمورة في خيمته والفضة تحتها فأخذوها من وسط الخيمة وأتوا بها إلى يشوع وإلى جميع بنى إسرائيل وبسطوها أمام الرب فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ما له وجميع إسرائيل معه وصعدوا بهم إلى وادى عجور فقال يسوع: كيف كدرتنا

يكدرك الرب في هذا اليوم ؟ فرجمه جميع بنى إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورجموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم فرجع الرب عن حمو غضبه) .

ولذلك اسم ذلك المكان وادى عجور إلى هذا اليوم وغير خاف أن عرب الجاهلية الذين نزل فيهم القرآن الكريم فقد أبيح بينهم قتل الأولاد وجرت بينهم شريعة الثأر من الابن بذنب أبيه مجرى العرف المحمود . . .

فلما جاء الإسلام أثبت للولد حقا في الحياة والملك كحق أبويه وشرع له من مولده حقوق الرضاع والحضانة وكان أبر بالأبناء من آبائهم وأمهاتهم ، لأنه يأخذ العهد عليهم ألا يقتلوا أبناءهم ويحميهم بما لا يحتمون منه بحنان الأبوة والأمومة . . . .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ (سورة الممتحنة ١٢) .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام ١٤٠)

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (سورة الإسراء ٣١) .

أما فيما يتعلق بحقوق الأسرة من حيث الروابط الزوجية فقد جاء الإسلام فيها بالجديد الصالح وأقام حقوق الزوجين على أساس العدل بينهما ، وأقام العدل على أساس الحقوق والواجبات ، وهى المساواة العادلة حقا في هذا الموضوع . . . . إذا كانت المساواة بين الذين لا يتساوون بأعمالهم وكفاياتهم ظلما لاعدل فيه .

وارتفع الإسلام بلا ريب بمنزلة المرأة من الدرك الذى هبطت إليه في الحضارات الغابرة وعقائد الأمم التى تأثرت بتلك الحضارات قبل ظهوره ، وكلها لم تكن على حالة مرضية في عالم ما قبل الإسلام .

كانت المرأة في الحضارة الرومانية تابعا له حقوق القاصر أو ليست له حقوق مستقلة على الإطلاق وكانت في الحضارة الهندية عائقا للخلاص من دولاب الحياة الجسدية وخلاص المرء مرهون (بالهوكشا) أى بالانفصال عنها، وكان حقها في الحياة منهيا بانتهاء أجل الزوج، تحرق على جثمانه عند وفاته، ولا تعيش بعده إلا حاقت بها اللعنة الأبدية أو تحاشاها الأهل والأقربون.

ويقول أستاذنا العقاد في هذا المعنى (المصدر السابق): (وقد كان للمرأة في الحضارة المصرية القديمة حظ من الكرامة يجيز لها الجلوس على العرش ويبوئها مكان الرعاية في الأسرة ولكن الأمة المصرية كانت من الأمم التى شاعت فيها عقيدة الخطيئة بعد الميلاد وشاع فيها مع اعتقاد الخطيئة الأبدية أن المرأة هى علة تلك الخطيئة وخليفة الشيطان وشرك الغواية والرذيلة ولا نجاة للروح إلا بالنجاة من أوهاقها وحبائلها، وكانت معيشة البدو في الجاهلية العربية تمنح المرأة بعض الحريات لأنها كانت عضوا نافعا في تلك المعيشة البدوية تسقى وترعى وتنسج وتستخرج الطعام من الألبان والثمرات ولكن هذه المعيشة البدوية نفسها كانت ترغب الآباء في ذرية البنين وتزهدهم في ذرية البنات، لأن البنين جند القبيلة وحماة حوزتها وعدتها في شن الغارات والتأهب لردها فلم يكن أبغض إلى الأب من خبر يأتيه بمولد أنثى، ولو كان ذا وفر ووفرة ومنهم من كان يئد البنات إشفاقا من العار إذا لم يئدهن خشية إملاق).

وإلى ذلك يشير القرآن الكريم حيث جاء في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة النحل ٥٨ – ٥٩).

فلم تكن للمرأة قبل الإسلام منزلة مرضية ولا حقوق مرعية في وطن

من أوطان الحضارة أو البداوة ، فدحض الإسلام عنها هذه الوصمة وخولها من الحقوق ما يساوى حقوق الرجل في كل شيء إلا في حق القوامة: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (سورة النساء ٣٤) .

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (سورة البقرة ٢٢٨) وهذا الذى عنيناه بين الحقوق والواجبات لأن المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الكفايات والأعمال أمر لم يقم عليه دليل من تكوين الفطرة ولا من تجاوب الأمم ولا من حكم البداهة والمشاهدة بل قام الدليل على نقيضه في جميع هذه الاعتبارات .

ولم تتجاهل الأمم فوارق الجنسين إلا كان تجاهلها لها من قبيل تجاهل الطبيعة التى تضطر من يتجاهلها إلى الاعتراف بها بعد حين ، ولو من قبيل الاعتراف بتقسيم العمل بين جنسين لم يخلقا مختلفين عبثا بعد أن غبرت عليهما آلاف السنين وأحرى أن يكون طول الزمن مع تطور الأحوال الاجتماعية سببا لاختصاص كل منهما بوظيفة غير وظيفة الجنس الآخر ، ولا سيما في الخصائص التى تفترق فيها كافة الحياة البيتية وكفاية الحياة الخارجية فإنّ طول الزمن لا يلغى الفوارق بل يزيدها ويجعل لكل منها موضعا لا يشابه سواه وإذا اعتبر مسألة القوامة من جهة (إدارية) بحتة واعتبرنا أن الأسرة شركة لا غنى لها عن قيم يتولاها فمن يكون هذا القيم بين الزوجين ؟

أن تكون القوامة للمرأة أم تكون للرجل ؟

أتكون حقوق الأبناء في ذمتها أم تكون في ذمته؟

إن هذه الأمور من وقائع الحياة التى لا ترحم من يتجاهلها ولا تحلها تحيات الأندية ولا جعجعة الفروسية الكاذبة في بقاياها المتخلفة من عصورها

المنقرضة، وما كان للمرأة في أحسن حالاتها في تلك العصور المنقرضة من مكانة غير مكانة العشيقة في قصص الغرام . . . كأنما هي مباهاة الفارس بشجاعته تعلو به في كل موقف له مع المخلوقة الضعيفة أن يكون كموقفه مع الأنداد والنظراء .

وفى هذا المعنى يقول أستاذنا العقاد (المصدر السابق):

ولا نحب أن نقضى على الباعث الذى يتذرع به من ينكرون قوامة الرجل لادعاء المساواة بين الجنسين فإنهم يتذرعون لدعواهم هذه باضطرار المرأة إلى الكدح لنفسها أحيانا في ميدان العمل طلبا للقوت ولوازم المعيشة . . . فهذه ولا مراء حالة واقعة تكثر في المجتمعات الحديثة كلما اختلت فيها وسائل العيش وتأزمت فيها أسباب الكفاح على الأرزاق . . . . ولكننا نراهم كأنهم يحسبونها حالة حسنة يبنون عليها دعائم المستقبل؛ ولا يحسبونها حالة سيئة تتضافر الجهود على إصلاحها وتدبير وسائل الخلاص منها، وما هى في الواقع إلا كالحالة السيئة التى دفعت الآباء والأمهات إلى الزج بأطفالهم في ميدان الكفاح على الرزق فأنكرتها القوانين وحرمتها أشد التحريم، ولم تجعلها حجة تسوغ بقاءها وتقيم عليها ما تستتبعه من النظم الحديثة في الأسرة أو في الحياة الخارجية . . . . وإذا أعطيت هذه الاعتبارات قسطها من الجد والرؤية صح لدينا أن الإسلام قد جاء بالهداية الصالحة في تقرير مكان المرأة من الأسرة بالقياس إلى الحالة التى كانت عليها قبل الدعوة الإسلامية، وبالقياس إلى الحالات التى يحتمل أن تؤول إليها في جميع الظروف والعوارض الاجتماعية، إذ رفعها الإسلام من الهوان الذى ران عليها من ركام العادات الخالية، وأقام حقوقها الزوجية على الأساس الذى يحسن في جميع الأحوال أن تقام عليه) .

إن الإسلام لم يوجب تعدد الزوجات بل إباحه فقط مع التحذير منه ولم يمنع الاكتفاء بزوجة واحدة بل حض عليه .

ولكنه أيضا شرع لأزواج يعيشون على الأرض ولم يشرع لأزواج تعيش في السماء ، ولا مناص في كل تشريع من النظر إلى جميع العوارض والتقدير لجميع الاحتمالات ، وفى هذه الاحتمالات ولا ريب ما يجعل إباحة التعدد خيرا وأسلم من تحريمه بغير تفرقة بين ظروف المجتمع المختلفة التى يدفع إليها الأزواج . . . . فلم يحرم الإسلام أمرا قد تدعو إليه الضرورة الحازبة ، ويجوز أن تكون إباحته خيرا من تحريمه في بعض ظروف الأسرة أو بعض الظروف الاجتماعية العامة .

أما أن هذه الظروف قد تضطر أناسا إلى الزواج بأكثر من واحدة فالأمر فيها موكول إلى الذين يعانون تلك الضرورات من الرجال والنساء .

ومن تلك الضرورات أن يحتفظ الرجل بزوجته عقيما أو مريضة لا يريد فراقها ولا تريد فراقه ، ومنها أن يتكاثر عدد النساء في أوقات الحروب والفتن مع ما يشاهد من زيادة عدد النساء على الرجال في كثير من الأوقات ، فإذا رضيت المرأة في هذه الأحوال أن تتزوج من ذى حليلة فذلك أكرم لها من الرضا بعلاقة الخليلة التى لا حقوق لها على زوجها ، وأكرم لها كثيرا من الرضا بابتذال الفاقة أو بذل النفس في سوق الرذيلة .

ومن حسنات التشريع في جميع هذه الضرورات أنه يحسب حسابها ولا ينسى الحيطة لاتقاء ما يتقى من أضرارها ومن سواء التصرف فيها . . . . وكذلك صنع الإسلام بعد إباحة تعدد الزوجات للضرورة القصوى فإنه اشترط فيه العدل ونبه الرجال إلى صعوبة العدل بين النساء مع الحرص عليه وهناك حيطة تعدل سلطان التشريع كله في أمر تعدد الزوجات ، لأنها تكل القول الفصل فيه إلى اختيار المرأة فإن شاءت قبلته وإن لم تشأ رفضته فلا يجوز إكراهها عليه ولا يصح الزواج إذا بنى على إكراه فعلماء الفقه متفقون على أن للمرأة الرشيدة أن تلى جميع العقود بنفسها وأن توكل فيها من تشاء ولا يعترض عليها ، وإنها أحق

من وليها بالأمر في عقود الزواج إذا خالفها ولم يستأمرها .

ولا حرج على المرأة في تشريع تعدد الزوجات متى كان الرأى فيه موكلا إلى مشيئتها تأبى منه ما تأباه وتقبل منه ما لا ترى فيه غضاضة عليها أو ترى أنه ضرورة أخف عليها من ضرورات تأباها .

ثم يأتي العرف الاجتماعى فيتولى تنظيم التشريع فوق هذه الولاية الموكولة إلى الزوجات فإذا كانت الطبقة الغنية أقدر على الإنفاق وأقدر من ثم على تعدد الزوجات ، ولكن الرجل الغنى يأبى لابنته أن تعيش مع ضرة أو ضرائر متعددات ، والمرأة الغنية تطلب لنفسها ولأبنائها نفقات ترتفع مع إرتفاع درجة الغنى حتى يشعر الأغنياء أنفسهم بثقلها إذا تعددت بين زوجات كثيرات فلا ينطلق الزوج الغنى في رغباته على حسب غناه بل يقيم له العرف حدودا وموانع من عنده تكف من رغباته على حسب غناه ، بل يقيم له العرف حدودا وموانع من عنده تكف من رغباته لتثوب به إلى الاعتدال . ولهذا نرى في الواقع أن الطبقات الغنية تكتفى بزوجة واحدة في معظم الأحيان . . . وربما كان للاختيار نصيب من ذلك كنصيب الاضطرار لأن كثيرا من الأغنياء يستوفون حظهم من العلم الثقافة فيدركون بلطف الذوق مزايا العطف المتبادل بين زوجين متكافئين في الكرامة والشعور .

ومما يعمله العرف الاجتماعى في أحوال الضرورة أن يكون الزوج غنيا وأن تكون المرأة مرغوبًا فيها من الطبقة الفقيرة ففى هذه الحالة ترغب المرأة المخطوبة في قبول الزوجات باختيارها أو تضطر إليه تطلعا منها إلى من معيشة أحب من معيشتها ، فلا تزال الضرورة في هذة الحالة أكرم لها من ضرورة تغريها بالتفريط في العرض طمعا في المال .

على أن العرف الاجتماعى – مع سلطانه الغالب – قد يستفيد من روح

الدين وحكمة التشريع فوق ما يستفيد من نصوصه في أوامره ونواهيه . . .

وروح الدين الإسلامى التى سرت إلى العرف في المجتمعات الإسلامية أن الزواج رحم ومودة وسكن .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (سورة الروم ٢١) .

فلا زواج بغير مودة ورحمة ولا حكمة للزواج إن لم يكن ملاذا يأوى فيه الزوجان معا إلى سكن يلقيان عنده أعباء صراع الحياة العنيف إلى حين . . وخير الزواج ما استطاع أن يدبر للإنسان كهفا أمينا يثوب إليه كلما ألجأته المتاعب والمشاغل إلى ظلاله . . . فإن عز عليه أن يجده كما أراده فليس ذلك بحجة على أن حياة المتاعب والشواغل وتواصلها هى الحياة المثلى وأن كهوف الأمان ليست بالمطلب الجدير بالطلب والبحث وفى قديم الزمان هيأت الأمومة طبيعة المرأة لتدبير ذلك السكن وتزويده بزاد المودة والرحمة ، ومن أراد أن يتكلم لغة (الاستغلال) والانتفاع بالفرص فله أن يقول أن النوع الإنسانى خليق أن يستغل الفوارق بين طبيعتى الجنسين لينتفع بكل منهما غاية ما ينتفعه في موضعه ومجاله ، وليكن ذلك من قبيل تقسيم العمل وتخصيص كل طبيعة لما يناسبها ولا يكن خصومة على دعاوى المساواة أو الرجحان . . . . فما خلق الجنسان ليكون منهما مساويا لصاحبه في طراز واحد من المزايا والملكات ، وإنما خلقت لكل منهما مزاياه وملكاته ليكمل بها صاحبه ويزيد بها ثروة النوع كله من خصائص النفس وألوان الفهم والشعور .

وعلى هذه السنة الطبيعية الاجتماعية ، في تقسيم العمل وإتقان كل عامل لضرب من ضروبه بتعاون الزوجين كل فيما هو أصلح له من مطالب الحياة . .

فعلى الرجل شطر الكفاح في سبيل الرزق وكفاية أهله مئونة الكدح

في مضطرب الزحام والصراع وعلى المرأة شطر السكن الأمين وكلاءة الجيل المقبل في نشأته الأولى، ويخطئ خطأ كبيرًا كل من يتصور أن حضانة الغد وإعداد مستقبل الإنسانية مرحلة بعد مرحلة على الدوام شطرا زهيدا . . .

وقد نجزم في هذا بأن كثيرا مما تعانيه الإنسانية والأجيال الحالية في العالم هو نتيجة افتقاد المرأة الأم للوقت للقيام بدورها الأساسى في هذا الخصوص من جراء ما تعانيه من ضغوط العمل وما تبذله من جهد شديد خارج بيتها لمواجهة ظروف وقسوة الحياة . . . .

وتحتوى الشريعة الإسلامية تفصيلا مسهبا عن حقوق كل من الزوجين قبل الآخر وقبل الأسرة في مجموعها، وكلها تتجه إلى هذه الغاية المقصودة من إقامة الأسرة على المودة والرحمة ولا ينحرف عنها حق من الحقوق عن هذه الغاية بلا استثناء حق التأديب لرب الأسرة . . . .

فإن حق التأديب لا ينفى المودة والرحمة ولم ينفهما فيما هو أمس الأمور بالمودة والرحمة وهو تربية المتعلمين وتخويل رب الأسرة حق التأديب بدل من أحوال كثيرة كلها غير صالح وكلها غير معقول في شؤون القوامة البيتية، فإما أن يكون لرب الأسرة هذا الحق في معظم الشئون البيتية وأما أن يستغنى عن التأديب في الأسرة أو يوكل التأديب فيها إلى دور الشرطة والقضاء في كل كبيرة وصغيرة تعرض للزوجين على الرضا والغضب والجهر والنجوى . . . .

هذا أو يكون التأديب المسموح به أن ينصرم حبل الزواج وأن ينهدم بناء البيوت على من فيها من الآباء والأمهات والبنين يقول أستاذنا العقاد في هذا المعنى . (المصدر السابق):

ولا يخفى أن عقوبات التأديب إنما توضع للمسيئين وللمسيئات ولا توضع لمن هم غنيون عن التأديب متورعون عن الإساءة، وليس من أدب

التشريع أن تسقط الشرائع حساب نقيصة نسترذلها وتأنف منها فما دامت النقيصة من النقائص التى تعرض للإنسان ولو في حالة من الوف الحالات فخلو التشريع منها قصور يعاب على الشريعة ولا يمتنع به الضرر الواقع من تلك النقيصة . . ولو حذف من القوانين كل عيب تأنف من ذكرها لما بقيت في تلك القوانين بقية تستلزمها الضرورة الموجبة لبقائها إذا كانت العيوب التى لا تأنف الاسماع منها أهون الأضرار الاجتماعية وأغناها عن التشريع والعقاب .

والأدب العام - بعد - شيء غير عقوبات التأديب في القانون . . . فالحياء يأبى للرجل الكريم أن يضرب امرأته وأن يعاملها بما يغضُّ من كرامتها . . . ومما أنكره النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مرة أن يضرب الرجل امرأته وهو يأنس إليها في داره .

(إما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب بعيره) متفق عليه .

إلا أن الخلائق المستحسنة - خلائق الكرامة والحياء - ليست هى الخلائق التى توجب الحساب والعقاب ، وليست هى الخلائق التى يقف عندها التشريع وتبطل بعدها فرائض الزجر والمؤاخذة ، فإذا وضعت العقوبات في مواضعها ، فلا مناص من أن يحسب فيها الحساب للحميد والذميم من الأخلاق والعيوب ، بل لا مناص لحسبان الحساب للذميم خاصة لأن الضرورة هنا ضرورة النهى والردع وليست ضرورة الثواب والتشجيع وبين الوعظ والهجر والعقوبة البدنية تتفاوت العقوبات الزوجية في الإسلام ثم يكون التحكيم أو الفراق . ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (سورة النساء ٣٤ - ٣٥) .

ويقول أستاذنا العقاد أيضا: (إنه لمن السخف الرخيص أن يقال أن جنس النساء قد برئ من المرأة التى يصلحها الضرب ولا يصلحها غيره)

و يقول: (إنه سخف رخيص وخيم لأنه ذلك السخف الذى يضر كثيرا ولا يفيد أحدا إلا الذى يشترى سمعة الكياسة في سوق الحذلقة (التقليدية) ويسميه الغربيون بينهم باسمه الذى هو به حقيق: وهو اسم الدعى المتذحلق) (Bons) .

ولقد وجد هؤلاء في أمم لم تستكثر عقوبة الجلد على كرامة الرجولة وكرامة الجندية وغبرت مئات السنين وهى تعلن القوانين التى توجب العقوبة البدنية لمن يخالفون الأوامر أو النظم العسكرية ، وأن مع ذلك لمدوحة من العقوبات المستطاعة في المعاهد العامة كالحبس والتأخير وتنزيل الرتب وقطع الأجور والحرمان من أنواط الشرف والفصل من الخدمة فلولا أنها حذلقة خاوية لا تفيد أحدا ولا تدل على كياسة صادقة لما جاز في عرف هؤلاء الأدعياء أن تسرى عقوبة الجلد في مؤاخذة الجنود وأن تمتنع بعد إخفاق الحيل جميعا في عقوبة النشوز ولم تترك هذه العقوبة على كراهتها بغير حدها المعقول الذى تمليه كل مشكلة بحسبها من الخلق المعهود في آداب الزوجين ، وإنما حدها الصالح أن تكون أصلح من الفراق وهدم بناء الأسرة في تقدير الرجل والمرأة فإن لم تكن كذلك فهى المضارة التى توجب التحكيم بين الأسرتين أو توجب الطلاق بحكم الشريعة مرجعها الأخير الذى ينبغى أن يؤخر إلى انقطاع الحيلة وذهاب الرجاء في الوفاق .

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (سورة البقرة ٢٣١) ويحق للمرأة عند نشوز زوجها و إعراضه أن تلجأ إلى حكم غير حكمه ترضاه قبل شكواها من أذى المضارة التى توجب الطلاق .

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (سورة النساء ١٢٨) .

فإذا جاز لباحث منصف يتوخى الصدق بأن يعقب على تشريع الإسلام فمن وأجبه أن يحمد لهذا التشريع أنه قدر للواقع حسابه وأحاط كل تقدير بما يستوعبه من الحيطة والضمان الميسور في أمثال هذه العلاقات ، وأن نظرة الشريعة الإسلامية إلى حقوق المرأة من مبدئها قد كانت نظرة تصحيح لما سلف من الشرائع وإتمام لما نقص فيها .

وفى هذا المعنى يقول أيضا أستاذنا العقاد (المصدر السابق): كانت المرأة كالرقيق في قوانين الدولة التى كانت تسمى أم القوانين وهى الدولة الرومانية . . . وكانت حطاما يحرق بقيد الحياة على ضريح زوجها في الديانة البرهمية وكانت ديانة العهد القديم تبيح لمن شاء أن يتزوج ما يشاء بلا قيد ولا ضمان ، وبهذه الإباحة وردت فيه أخبار إبراهيم ويعقوب وموسى وداود وسليمان عليهم السلام .

ثم جاءت المسيحية فلم تنقض حكما من أحكام الناموس في أمرالزواج وسئل بولس الرسول عن شرط الأسقف فكتب في رسالته الأولى إلى تيموثاوس إنه ينبغى أن يكون (بلا لوم بعل امرأة واحدة) وهو تخصيص لا موجب له لو كان هذا هو الحكم العام المرعى بين جميع المؤمنين بالدين وظل أباء الكنيسة في الغرب يبيحون تعدد الزوجات ويعترفون بأبناء الملوك الشرعيين من أزواج متعددات فلما منعته بعد القرن السابع عشر على إثر الخلاف بينهما وبين الملوك الخارجين عليها كانت حجة منعه أن الاكتفاء بالواحدة أخف الشرور لمن لا يقدر على الرهبانية ، ولم يكن منعه إكبار الشأن المرأة يوم كان الخلاف بينهم على أنها ذات روح ، وأنها جسد بغير روح ولم يكن خلاف يومئذ على أنها حبالة الشيطان ، أبعد أن يكون الإنسان عنها أسلم ما يكون .

وبينما أمم الحضارة في إجماعها هذا على تلك النظرة الزرية إلى المرأة كانت أمة الصحراء تقضى فيها قضاء لا خيار بينه وبين ما عداه: كانت تتشاءم بمولودها ، ولا تبالى أن تعالجها بالدفن في مهدها مخافة العار أو مخافة الإملاق .

ومن تلك الزاوية النائية عن العالم تقبل عليه دعوة سماوية تنصفها من ظلم وترفعها من ضعة وتبسط لها كنف المودة والرحمة ، وتنتزع لها من القلوب عدلا أعيا على الرؤوس وتقيد من مباح الزواج ما لم يقيده عرف ولا قانون ، وتجعل لها الخيار بين ما ترضاه منه وما تاباه ، وتستجد لها حياة يستحى المنصف والمكابر أن يجحدا فضلها العميم على ما كانت عليه .

وأما بعد هذا فماذا جاءت به القرون بعد القرون من زيادة لها على نصيبها من عدل الإسلام ؟

أن خير ما لها في الإسلام لم يدركه خير مالها في العصر الحديث ، وشر ما يصيبها من الإسلام رحمة ونعمة بالقياس إلى الشر الذى يسلمها العصر الحديث إليه ، ولا تزال فضائل العصر الحديث في حاضرها ، وما لها دعوى لم يؤيدها ثبوت من حوادث الواقع ولا من مبادئ النظر .

فأما حوادث الواقع فشكوى المرأة منها في بيتها وفى دنياها كأسوأ ما كانت في عهد من العهود ، وأما مبادئ النظر فلا خير للمرأة أن تكون على مبدأ القرون الوسطى شيطانا يسلم الإنسان ما سلم وأسلم منه ولا خير لها أن تكون على مبدأ الفروسية الكاذبة ملكا في مباذل السوقة ، ولا هى في خير مع الناس حتى يقنعوا لها الطبيعة - إن استطاعوا - ويقنعوا أنفسهم قبلها أن المرأة والرجل ندان متساويان متعادلان) .

* * * * *



الباب الثاني:

ملك اليمين

في إطار التدبر لدلالات كلمات كتاب الله تعالى



لا ريب أن الإسلام براء من أحكام السبي والعبيد وملك اليمين، التي أطرت فقيهًا وإحلالاً للتاريخ، وإنها تخالف دلالات كتاب الله تعالى مخالفة صريحة. وبينه لمن يعمل عقله في هذا الخصوص... وقد يتساءل في هذا سائل:

أليس هذا نبشا في التاريخ - دون طائل - لمسائل وقضايا انقضت وعفا عنها الزمن ؟

فما الفائدة من إعادة طرح هذه القضايا في عصر لم يبق فيه عبيد أو ملك يمين ؟

" وأليس هذا القول نقضا وهدما لجانب كبير وهام مما تم تأطيره فقهيا، ومما تم الإجماع عليه؛ من معظم الفقهاء والعلماء؛ ومما تم نسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ **ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾** (سورة النحل ٧٥) واحتج بعضهم بهذه الآية على أن العبد المملوك ملك يمين لا يملك شيئا، ولا يملك كل ماله تعلق بالمال ؟

و ألم يقل الله تعالى: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ (سورة النحل ٧١) واحتج بعضهم بهذه الآية، أن المولى عز وجل فضل المالكين على مملوكيهم، فجعل المملوك لا يقدر على ملك مع مولاه" وبهذه الحقيقة برد الله تعالى على عبدة الأصنام، قائلا من خلال هذه الآية الكريمة: "كيف يجعلون عبيدي ومخلوقاتي معي شركاء وسواء، في الوقت ذاته الذي لم تجعلوا عبيدكم لا يملكون شيئا وليسوا سواء معكم في الملك، كذلك الأصنام التي تجعلونها شريكا معي ؟

وللوصول إلى ذات النتيجة وبأن المملوك لا يملك شيئا احتج بعضهم بقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الزمر ٢٩) .

هل من المعقول أن أحكامًا تم الإجماع عليها أربعة عشر قرنا ، ونفذت على ملايين البشر خلال التاريخ . . تخالف دلالات كتاب الله سبحانه تعالى - وينقضها تماما القرآن الكريم من أساسها كل حكم يحمله القرآن الكريم له ساحات تطبيق وأتباع في كل زمان ومكان ، فالنص القرآني حامل للتاريخ ، وليس محمولا به . .

والتوهم بتاريخية أحكام العبيد وملك اليمين ، ناتج عن تلفيق الكثير من الروايات ونسبها إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعن التفسير التاريخي المغلوط للآيات القرآنية الخاصة بهذه المسألة . .

وهذا يشبه التفسير التاريخي المغلوط في مسألة الناسخ والمنسوخ المزعومة . وسنرى - أن شاء الله تعالى - كيف أن أحكام هذه المسألة لم تنته لأنها تعنى حالات اجتماعية طارئة موجودة في كل زمان ومكان . . . .

وحتي لوفرضنا - جدلا - أن هذه المسألة تاريخية كما زعم ، فنحن تعنينا تبرئة القرآن الكريم مما نسب إليه من أحكام ظالمة ، لا يحملها ولا بأي شكل من الأشكال .

أحكام العبيد ملك اليمين والتي أطرت في الكثير من موروثاتنا الفكرية والفقهية ، تجعل من البشر الذين تطبق عليهم هذه الاحكام مخلوقات قريبة جدأ من درجة الحيوانات إن لم تكن أقل درجات من الحيوانات . .

وهذه التشريعات التي ينقضها القرآن الكريم - كما سنرى إن شاء الله تعالى - إنما وضعت تحت الضغط التاريخي والسياسي والاجتماعي ، والذي

خضع له واضعو هذه التشريعات ، ولبست بروايات تاريخية ، فصلت حسب مقاسات المتطلبات الاجتماعية لبعضهم في عصر وضعها . . وهي نموذج مثالي لوضع التاريخ وأهواء رجالاته منهجا بديلا عن منهج الله تعالى . .

فالتشريع وضع بالذي حسب على الإسلام بسبى النساء في الحروب ، وتحويلهن إلى ملك يمين يتم وطؤهن على الرغم من أنوفهن ، دون عقد نكاح شرعي كباقي النساء ، حتى المتزوجات منهن ، وبيعهن وشراؤهن كالحيوانات ، وبيع وطئهن لغير المالك مع بقاء خد متهن للمالك ، وكأتهن متاع مادي ، ووضع تشريعات بحيث يستطيع الرجل وطأ أي عدد منهن ، وبحيث لا تنطبق عليهن أحكام كتاب الله تعالى المتعلقة بالنساء ، وبحيث لا يشفع لهن إسلامهن الذي لا يستطيع إخراجهن من حالتهن . . إضافة إلى استرقاق الرجال بحيث لا يملكون شيئا ، ويباعون ويشترون ، ولا يكونون إلا مجرد أرقام في المجتمع ، ولا يشفع لهم حتى إسلامهم . . كل ذلك ، وغيره مما يندي له الجبين ، لا تقبله الفطرة النقية . . . . وبينا أن العبارة القرآنية .

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ الله لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾

هي جزء من مسألة كاملة تبين لنا ، إنه لا يجوز أخذ الأسري من أجل الإثخان في الأرض ، وهذا نقيض ما ذهبت إليه تفاسيرنا التاريخية . . (الإثخان في الأرض: التسيد والهيمنة والتسلط) .

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الأنفال ٦٧ - ٦٩) .

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ الله لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾

= ٣٠٣ ، ١١٧٩ + ٣٠٣ = ١٤٨٢ = ١٩+٧٨ .

وبينا من خلال المسألة الكاملة التالية . .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال ٧٠ - ٧١) = ٩٦٩ =١٩ + ٥١ .

وبينا أنه لو كان ما ذهبوا إليه صحيحا ، ويؤمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتل الأسير . .

فما الفائدة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الأنفال ٧٠) .

لا يوجد نص في القرآن الكريم يبيح السبي أو الاسترقاق ، أو السطو على أموال الناس وعلى أعراضهم أو على دمائهم . . فالله تعالى الرحمن الذي يمنع قتل الأسير أو استرقاقه ، حيث يحصر التعامل معه في خيارين نهايتهما إطلاق سراحه حرا ، لا يمكن أن يبيح الاعتداء على عرضه أو ماله أو حريته . .

مسألة ملك اليمين في القرآن الكريم .

ولم ترد ولا مرة في كتاب الله تعالى بالصيغة الاسمية (ملك اليمين) أو (ملك يمين) ، وما يرد هو الصيغ الفعلية ، وبالفعل الماضي حصرا ، عبر اقتران الماضي (ملك) بإضافات مسألة اليمين: (ملكت أيمانكم) ، (ملكت أيمانهم) ، (ملكت أيمانهن) ، (ملكت يمينك) . . وفي هذا الدليل على أن هذه المسأله لا تصف جنسا محددا من البشر ، إنما تصف حالات اجتماعية طارئة

قد يقع في ساحتها أي إنسان، ويخرج من ساحتها أي إنسان، فلو كانت مسألة تصف جنسا من الناس يتصفون بها بشكل مستمر، لأتت عبارات ملك اليمين في القرآن الكريم بالصيغة الاسمية، أو على الأقل بصيغة الفعل المضارع..

يقول المفكر الإسلامي عدنان الرفاعي في كتابه المعجزة:

وللجذر اللغوي (ي، م، ن) **في القرآن الكريم عمقان:**

١- **عمق مادي حسي**، بمعنى القوة الخيرة، حيث ترمز له اليد اليمنى..

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (سورة طه ١٧ - ١٨).

٢- عمق معنوي، بمعنى العهد والميثاق الذى يلزم الإنسان به نفسه..

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة آل عمران ٧٧).

وبالتالى فمالك اليمين له عمقان أيضا:

١- عمق مادي حسي، يكون فيه الإنسان فقيرا عاجزا ماديا و لايملك المؤهلات المادية والاجتماعية لإدارة شؤونه وشق طريقه في الحياة فيقع تحت ولاية إنسان، وتحت رعايته وتربيته وإشرافه، بحيث يساعده في ذلك، ريثما يتمكن من إدارة شؤونه المادية ومن الاستقلال بذاته..

٢- عمق معنوي، يكون فيه الإنسان واقعا تحت الولاية الإرشادية

والتربوية والدينية، بحيث لا يملك من الوعي والرشد ما يؤهله لقيادة نفسه في المجتمع، أو يكون منتميا إلى دين آخر، ولكنه تحت العلم والنظر والرعاية والإشراف، بحيث نملك تقييمه ونملأ أيدينا منه ومن معرفة أخلاقه وسلوكه..

.. فملك اليمين.. يعني الوقوع تحت الولاية والإشراف والرعاية والإدارة، وتحت العلم بالوقوف على حقيقة المملوك، وذلك حينما يفتقد الإنسان بعض هذه الأمور، ولا يعني أبدا الرق وما تم الذهاب إليه تاريخيا...... وهذا ما نقرؤه في الآية الكريمة: ﴿**وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ**﴾ (سورة النحل ٧١).

فالعبارة القرآنية: ﴿**أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ**﴾ بهذه الصيغة، أعني صيغة الغائب والتعلق بالنعمة، دليل على أن المسألة ليست مجرد مثل يضربه الله تعالى للجاحدين عقيدة بألوهية الله تعالى، مؤكدا فيه أن الرزق لا يرد على ملك اليمين، كما ذهب المفسرون.. أبدا..

إن بداية الآية الكريمة تبدأ بصيغة المخاطب ﴿**وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**﴾ وبعد ذلك ينتقل الخطاب إلى صيغه الغائب: ﴿**فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ**﴾ أي أن الجحود هو عدم رد الذين فضلوا بالرزق، بجزء من رزقهم على الذين يقعون تحت وصايتهم ورعايتهم وإشرافهم ليكونوا سواء.. وهذا نقيض التفسير التاريخي.. فالله تعالى يريد رد جزء من الرزق على ملك اليمين، وليس العكس..

.. هذا إضافة إلى أن ورود الجحود متعلقا بالنعمة، وليس بالله تعالى

وألوهيته .

﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ ، ينفي توجه التفسير التاريخي الذي يحتجون به ، فكيف يصير عابدو الأصنام جاحدين بنعمة الله تعالى نتيجة هذه العبادة . . إنهم بعبادتهم للأصنام يجحدون الله تعالى وألوهيته ، وليس نعمه) .

ولذالك نرى أن هذه الآية الكريمة جزء من مسألة كاملة تتمحور في تذكير الإنسان بنعم الله تعالى عليه ، وكيف أنه على الرغم من ذلك يعبد بعض البشر ما لا يملك لهم شيئا . . ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (سورة النحل ٧٠-٧٣) ، = ٢٢٨٠ = ١٩ + ١٢٠ .

وهذه الآية الكريمة - التي يحتجون بها - تتكامل مع آيات كريمة - يحتجون بها أيضا - يضرب الله تعالى فيها الأمثال ليبين جحود الإنسان وجهله . .

﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (سورة النحل ٧١) = ٧٠٠ .

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا

رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة النحل ٧٥ - ٧٦) = ١٤٩٥ .

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر ٢٩) = ٥٧٩ ، ٧٠٠ + ١٤٩٥ + ٥٧٩ = ٢٧٧٤ = ١٩ × ١٤٦ .

واحتجاجهم بهذه الآيات التي يضرب الله تعالى بها هذه الأمثال، على أنها دليل على عدم تملك المملوك ملك يمين، يظهر فساد ما يذهبون إليه . . .

فقوله تعالى: **﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾**، بهذه الصيغة، لا يعني أن جنسا من البشر هم العبيد يتصفون بصفة عدم القدرة على شيء.. فهذا مثال يصف عبدا ما يتميز بهذه الصفة، لأن الصيغة النكرة التي نراها لا تقتضي الشمول، إنما عبد واحد هو الذي يضربه الله تعالى مثلا، والذي يقابلة إنسان ما يتصف بصفة معاكسة في ذات الآية الكريمة: **﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾** .. فهل كل من رزق رزقا حسنا ينفق منه سرا وعلانية.. بالطبع لا.. إذاً ليس كل عبد مملوكا ولا يقدر على شيء. فحين يقول أحدنا للآخر: أضرب لك مثلا رجلا طويلا لا يستطيع السباحة، فهل هذا يعني أن كل رجل يتصف بهاتين الصفتين ؟

هذا بالإضافة إلى أن كلمة عبد في القرآن الكريم، تطلق على الإنسان بشكل عام .

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (سورة سبأ ٩) .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (سورة ص ٣٠) .

ولذلك فكلمة العبيد ليستا خاصتين بجنس من البشر دون غيره .

﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ (غافر: ٣١) .

﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ (فصلت: ٤٦) .

وبالتالى يكون تقدير العبارة القرآنية: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ هو ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ، ﴿ وَعبْدًا رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ . .

وبذات المنهج التفسيري نفهم **الآية الكريمة**: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الزمر ٢٩) .

من المسألة الكاملة السابقة . . فليس كل رجل فيه شركاء متشاكسون ، وليس كل رجل سلما لرجل ، وإنما هذه أمثلة لا تخص جنسا من البشر دون غيره ، ويضربها الله تعالى ليبين لنا أنه تعالى واحد ، وأنه لو تعددت الآلهة لفسدت السماوات والأرض . ولذلك فهذه الآية الكريمة تتوازن مع آية أخرى تصور الموضوع ذاته .

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الزمر ٢٩) ، = ٥٧٩ .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ

وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنبياء ٢٤) = ٥٧٩ .

والآية الكريمة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (سورة الأنبياء ٢٢) تتكون من قسمين قسم يتوازن مع عبارة قرآنية في **الآية السابقة** . .

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (سورة الأنبياء ٢٤) = ١٩٧ .

﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (سورة الأنبياء ٢٢)= ١٩٧ .

وقسم يتكامل مع أي من الآيتين المتوازنتين السابقتين . .

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر ٢٩) = ٥٧٩ .

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأنبياء ٢٢) = ١٤٣ ،
٥٧٩ + ١٤٣ = ٧٢٢ = ١٩ × ١٩ × ٢ .

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنبياء ٢٤) = ٥٧٩ .

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأنبياء ٢٢) = ١٤٣ ،
٥٧٩ + ١٤٣ = ٧٢٢ = ١٩ × ١٩ × ٢ .

إذا . ما احتجوا به من أن العبيد والمملوكين ملك يمين لا يملكون شيئا ، بناء على هذه الآيات الكريمة ، هو احتجاج باطل ، تنقضه – كما نرى

- الصياغة اللغوية لهذه الآيات والمنهج ذاته نستطيع قراءة المسألة الكاملة التالية . .

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَـهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (سورة الروم ٢٨ - ٢٩)
= ١١٧٨ = ١٩ × ٦٢ .

فالعبارة القرآنية ﴿مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ لا تعني جنسا محددا من البشر لا يملكون شيئا، إنما تعني: من ما وقع تحت رعايتكم وإشرافكم ومسؤوليتكم . . وهذا المثل الذي يضربه الله تعالى هو تفصيل لآيات يريد الله تعالى منا أن نتعقلها، لا أن تقع في الضلال متبعين أهواء أنفسنا بغير علم، للاعتداء على حريات بعض البشر وأموالهم وأعراضهم وكرامتهم . . وهذا ما نستطيع قراءته في التوازن بين العبارتين القرآنيتين التاليتين من هذه المسألة الكاملة . .

﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ = ٣٠٧ .

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ = ٣٠٧ .

وهكذا نرى كيف أن الزعم بحرمان العبيد وملك اليمين من حق التملك، هو ظلم وضلال واتباع للأهواء بغير علم، وبالتالي هو زعم باطل لا وجود له في كتاب الله تعالى . .

بعد ما تقدم: كيف توفق بين تعريفك لملك اليمين، وبين مقابلة الله

تعالى للحر بالعبد في مسألة القصاص في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ (سورة البقرة ١٧٨) ، أليس هذا دليلا على وجود جنس من البشر هم العبيد يقابلون جنس الأحرار ؟

ألم ترد في القرآن الكريم كفارات بتحرير رقبة ؟ ألم ترد مسألة الرقاب واضحة جلية كيف تفسر هذه المسائل على ضوء تعريفك للعبيد وملك اليمين ؟

لقد بينت في الإجابة على مسألة الناسخ والمنسوخ المزعومة ، فساد التفسير التاريخي للعبارة القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ (سورة البقرة ١٧٨) ، وبينت أنها تتكامل مع **الآية الكريمة التي زعموا أنها ناسخة لها . .**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ (سورة البقرة ١٧٨) = ٤٨١ .

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة المائدة ٤٥) = ٩٠٦ ، ٤٨١ + ٩٠٦ = ١٣٨٧ = ١٩ × ٧٣ .

ذلك على . . أن العبارة القرآنية ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ لو فسرت في إطار المنهج القرآني المجرد عن الحيثيات التاريخية ، لما تم زعم نسخها . ولا داعي لإعادة تكرارما قلناه في تفسير هذه العبارة القرآنية ، حينما تعرضنا في مسألة الناسخ والمنسوخ المزعومة (في عدة مقالات) .

أحدهما مملوك للآخر، ومتقابلين في حق التملك وفي امتلاك الكرامة وحرمة العرض والمال.. أبدا... إنهما تعنيان مركزين وظيفيين متقابلين في اتخاذ القرار بالنسبة لمسألة محددة في أي مجتمع كان.. فكلمة الحر تصف فردا مسؤولا وصاحب قرار حر، وبيده رسم القرار المحيط بالنسبة لمسألة ما. وكلمة العبد تصف فردا واقعا تحت إمرة ذلك الحر، بحيث لا يملك إلا تنفيذ قرارات ذلك الحر، بالنسبة لتلك المسألة فقط، ولا تعنى أبدا أن ذلك العبد مملوك ولايملك شيئا في كل مناحي حياته.

إذاً.. العبارة القرآنية: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾، تصور لنا حالتين وظيفتين متقابلتين بالنسبة لامتلاك القرار والمرتبة القيادية في المجتمع، بالنسبة لحالة وظيفية محددة يجمع فيها الحر مع العبد.. فالله تعالى يقول لنا من خلال هذه الصياغة: أن القصاص ينال الفاعل ذاته - كما بينا سابقا - ولا تلغي هذا القصاص المراتب الوظيفية بين البشر مهما كانت..

فالمراتب المعيشية والوظيفية بين البشر، ورفع بعضهم فوق بعض درجات يتخذ من خلالها بعضهم سخريا، ما بين رئيس ومرؤوس، هو في حقيقته تقابل بين مالك للقرار الحر ومنفذ له دون امتلاك الحرية بعدم تنفيذه.. وهذا ما نراه في المسألة الكاملة التالية..

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ (سورة البقرة ١٧٨) = ١٦١.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (سورة الزخرف ٣٢)= ٦٧٥،

١٦١ + ٦٧٥ = ٨٣٦ = ١٩ × ٤٤.

فاختلاف المناصب الوظيفية بين البشر، لا يلغي حرمة الدم في القصاص، فإن قتل رئيس مرؤوسه يقتل به، كما إنه لو قتل مرؤوس رئيسه

يقتل به ، ولا تعنى هذه العبارة القرآنية جنسين من البشر كما فسر تاريخيا . .

ومما يؤكد صحة ما نذهب إليه ، هو العبارة التالية مباشرة لعبارة ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ ، وهي عبارة: ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ . . فالأنوثه هنا مجردة عن أي مفهوم طبقي ، لتصف أي أنثى مهما كانت . .

ولو أن العبارة القرآنية ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ تعنى جنسين مختلفين من البشر ، أحدهما مملوك للآخر ، وتصف الذكور من هذين الجنسين ، لاقتضى ذلك ورود العبارة القرآنية ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ بصيغة أخرى يتم فيها التمييز بين الأناث من هذين الجنسين . . ولكن ورودها بهذه الصيغة ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ يؤكد أنه لا وجود لجنسين مختلفين أحدهما مملوك للآخر . . فورود العبارة القرآنية:

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ تعنى كما قلنا مرتبتين وظيفتين متقابلتين ، لكل من الجنسين الذكور والإناث ، وليست خاصة بالذكور دون الإناث . .

ولقد بينا جليا من قبل أنه لا يوجد نص قرآني يحرم إنسانا من حق التملك ، أو يجعله رقما لا قيمة إنسانية له ، وبينا أنه لا سبي في القرآن الكريم ، ولا استرقاق ، ولا اعتداء على أعراض الآخرين وحرياتهم وأموالهم ، وأن القرآن الكريم بريء من كل هذه الأحكام الوضعية التي حسبت عليه ، وهو منها براء . . فالأولى بنا أن ندرك دلالات العبارة القرآنية ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ من منظار هذه الثوابت القرآنية . .

ووجود طبقة من العبيد خلال التاريخ ، بعد نزول القرآن الكريم ، هو وجود غير شرعي ، ولا يريده الله تعالى . . ولا يمكن الاحتجاج بالتاريخ

وأفعال رجاله لإثبات شرعية أحكام لا وجود لها في كتاب الله تعالى . .

أما بالنسبة لمسألة الرقاب، فقد وردت في القرآن الكريم في جميع مرات ورودها دون أي تعلق بعبارات العبيد وملك اليمين، فالله تعالى يقول: (تحرير رقبة)، حيث وردت هذه الصيغة في القرآن الكريم خمس مرات ككفارة يكفر بها الإنسان عن ذنبه . . ووردت العبارة القرآنية ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ مرة واحدة دون تعلق بكفارة، لتشمل مساحة أكبر وأوسع من المساحة المعنية في الصيغة الأخرى، فهي ضمن سياق قرآني يصور جوهرالإنفاق المادي من زاوية كونه برا وصدقة، يقتحم بها الإنسان الموانع والحواجز، مترقيا من عالم المادة الهابط إلى عالم الروح .

والخلاص لله تعالى . .

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (سورة البلد ١١ - ١٦) .

يقول المفكر الإسلامي عدنان الرفاعي (في كتابه المعجزة الكبرى):

إن مشتقات الجذر اللغوي (ر، ق، ب) تدور في إطار دلالات الانتظار والترقب . .

﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (سورة طه ٩٤) . . والتحرير هو بمعنى الخلاص والاستقلال .

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة آل عمران ٣٥) . .

والانفكاك بمعنى الترك والانفصال . .

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْـمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (سورة البينة ١) . . وكلمة ﴿رَقَبَةٍ﴾ لم ترد في القرآن الكريم إلا نكرة ، مؤنثة لتشمل حالات واسعة ليست محددة بحيثية تاريخية محددة ، ولا بجنس محدد من البشر دون غيره . ولكن القاسم المشترك بين جميع هذه الحالات هو عدم الانفكاك وعدم التحرر من هذه الحالة ، وعدم الاستطاعة لفعل ذلك ، كأن يقع إنسانٌ ما تحت ضائقة مادية تحيط به ، فتجعله مأسورا لمراقبة إنسان آخر وانتظاره ، فتجعله مسجونا ، أو يحجز أجره وكسبه لحين سداد ما عليه لغيره ، في الوقت الذي لا يستطيع فيه السداد ، فيكون تحرير هذا الإنسان من الحالة التي هو فيها وفكه منها ، كفارة وصدقة وقربة من الله تعالى . .

فكلمة ﴿رَقَبَةٍ﴾ تعنى حالة يقع فيها الإنسان تحت الانتظار والمراقبة بشكل كامل ، وبحيث تسد أمامه كل آفاق الخروج من هذه الضائقة ، وبحيث لا يستطيع الخروج من هذه الحالة التي هو فيها . . . ولذلك نرى أن القيمة العددية لهذه الكلمة مسألة كاملة في معيار معجزة إحدى الكبر:

﴿رَقَبَةٍ﴾ = ٣٨ = ١٩ × ٢ .

ومما يؤكد أن كلمه ﴿رَقَبَةٍ﴾ هي حالة وضائقة ما ، هو أنها لم تجمع جمع المؤنث السالم ، (رقبات) ، لأنها لا تعنى فردا من جنس محدد من البشر ، إنما تعنى - كما قلنا - حالة وضائقة مجردة عن أي جنس بشري ، ومن الممكن لأي إنسان مهما كان جنسه أن يقع في مثل هذه الحالة ، ولذلك نراها تجمع جمع تكثير ﴿الرِّقَابِ﴾ .

وفي الصورتين القرآنيتين اللتين ترد في سيا قهما كلمة الرقاب لتصور جوهر الإنفاق المادي من زاوية كونه برا وصدقة: ﴿وَآتَى الْـمَالَ عَلَى حُبِّهِ

ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (سورة البقرة ١٧٧) . ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (سورة التوبة ٦٠) .

في هاتين الصورتين. نرى أن الصدقة وإتيان المال هو: في ﴿الرِّقَابِ﴾ ، أي في سبيل فك حالة ﴿الرِّقَابِ﴾ وتحريرها مما هي فيه ، وليس ﴿للرِّقَابِ﴾ . . فالذي يدفع هو لمن ينتظر السداد من صاحب الحالة الذي لا يستطيع سداده ، وليس للغارق في هذه الحالة . .

ودون الاقتران بكفارة ، رأينا أن العبارة القرآنية ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ مع سياقها القرآني المحيط والمصور لجوهر الإنفاق المادي كبر وصدقة وعطاء غير مقترن بكفارة ، هي فقط التي تصور ذلك ، فالصيغ القرآنية (تحرير رَقَبَةٍ) رأينا أنها خاصة بالكفارات . . ولذلك نرى أن العبارة القرآنية ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ مع سياقها القرآني المحيط بها ، تتكامل مع السياق القرآني المحيط بعبارتي ﴿فى الرِّقَابِ﴾ ، والذي يصور جوهر الإنفاق المادي كبر وصدقة يخلص بها الإنسان لله تعالى .

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (سورة البقرة ١٧٧) = ٣٦٩ .

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (سورة التوبة ٦٠) = ٥٤١ .

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (سورة

البلد ١١ - ١٦)، = ٦٢٩، ٣٦٩ + ٥٤١ + ٦٢٩ = ١٥٣٩ = ١٩ × ٨١.

وفي هذه المسألة الكاملة نرى كلمة (وفي) تتكرر في العبارة القرآنية ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، وفي هذا دليل على أن مسألتي الإنفاق في الرقاب والغارمين، لها إطارها الخاص والذي يميزهما عن إطار مسألتي الإنفاق في سبيل الله تعالى وابن السبيل.

وما نود إلقاء الضوء عليه هو الفارق بين الإنفاق في مسألة الرقاب، وبينه في مسألة الغارمين، وذلك في العبارة القرآنية ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ﴾..

في هذا التفريق، تتضح حقيقة دلالات النص القرآني أمامنا بشكل أكبر.

وفي الجذر اللغوي (غ، ر، م)، علينا أن نميز بين دلالات الفعل اللازم (غرم)، حيث اسم الفاعل من هذا الفعل هو كلمة (غارم) واسم المفعول هو كلمة (مغروم)، فالغرم في هذه الحالة - من الفعل اللازم (غرم) لا يتعدى الإنسان المغروم، فالمغروم هو ذاته الغارم، فلا علاقة لغير الإنسان الغارم بهذا الغرم، أي أن الغرامة المستحقة على الإنسان الغارم، والتي لا يستطيع دفعها، ليست لصالح إنسان آخر، وإنما هي لمصيبة لا علاقة للآخرين بها.. وأكثر ما يجسد هذه الحالة هو المرضى الذين فيهم مرض علاجه باهظ، ويشكل بالنسبة للإنسان الفقير الغارم غرما فوق طاقته ولا قدرة له دفعه..

وهذا ما تعبر عنه كلمة ﴿الْغَارِمِينَ﴾ في النص القرآني ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (سورة التوبة ٦٠) من المسألة

الكاملة السابقة . .

. . وكلمة ﴿الْغَارِمِينَ﴾ وهي من الفعل اللازم (غرم) – كما قلنا – لم ترد في كتاب الله تعالى إلا في هذا الموقع ، وكلمة (المرضى) بأل التعريف لم ترد في كتاب الله تعالى إلا مرة واحدة . .

وتتجلى عظمة الصياغة القرآنية بأنه لو جمعنا القيمة العددية لهاتين الكلمتين ، لرأينا أنهما متكاملتان في معيار معجزة (إحدى الكبر) . .

﴿الْغَارِمِينَ﴾ (سورة التوبة ٦٠)= ٥٦ .

﴿الْـمَرْضَى﴾ (سورة التوبة ٩١) = ٣٩ ، ٥٦+ ٣٩= ٩٥= ١٩× ٥ .

ولو كانت كلمة ﴿الْغَارِمِينَ﴾ تعنى المدينين – كما ذهبت التفاسير التاريخية لكان هناك دائن ومدين ، أي مغرم ومغرم ، وهذا يناسبه كلمة المغرمين ، وليس كلمة الغارمين ، أي لوردت العبارة القرآنية على الشكل ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْمغَرِمِينَ﴾ بينما نراها ترد ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ﴾ . فصياغة القرآن الكريم مطلقة ، وهي مكمن معجزته كما رأينا ونرى بأم أعيننا . .

بينما الفعل المتعدى أغرم . . اسم الفاعل منه هو (مغرم) ، واسم المفعول هو (مغرم) ، فهناك غرامة مستحقه على المغرم لا بد أن يدفعها للمغرم ، وهذه الغرامة حينما تشكل عبأ على المغرم بحيث لا يستطيع دفع الغرامة المستحقة للمغرم ، وبالتالى تشكل حالة وضائقة لا يستطيع المغرم الخروج منها ، فإن إخراج هذا المغرم من حالته بدفع الغرامة عنه ومساعدته للخروج من تلك الضائقة ، يكون ذلك بمثابة فك رقبة ، وهذا ما تصوره العبارة القرآنية ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ في المسألة الكاملة السابقة . .

ولو جمعنا العبارتين القرآنيتين ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ (البقرة: ١٧٧) ﴿وَفِي

الرِّقَابِ﴾ (سورة التوبة ٦٠)، وفي المسألة الكاملة السابقة، مع كلمة ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ (الواقعة ٦٦) من الفعل المتعدي (أغرم) (اسم مفعول) وهي الكلمة الوحيدة التي ترد في كتاب الله تعالى بهذه الصيغة، لرأينا أننا أمام مسألة كاملة في معيار معجزة(إحدى الكبر) . .

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ (البقرة: ١٧٧) = ٥٩ .

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ (سورة التوبة ٦٠) = ٥٩ .

﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ (الواقعة ٦٦) = ٥٣ .

٥٩ + ٥٩ + ٥٣ = ١٧١ = ١٩ × ٩ .

ولو أخذنا الكلمة القرآنية (لمغرمون) مع الآية الكريمة (فك رقبة)، لوجدنا أيضا مسألة كاملة في معيار معجزة (إحدى الكبر . .) .

﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ (الواقعة ٦٦) = ٥٣ .

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ (البلد: ١٣) = ٦١ ، ٥٣ + ٦١ = ١١٤ = ١٩ × ٦ .

إذاً الرقاب وتحريرها وفكها، هو إخراج المغرم الذي لا يستطيع وفاء ما عليه من حالته التي هو فيها، من خلال دفع الغرامة المستحقة عليه للمغرم . . وهذه الحالة موجودة في كل زمان ومكان، ولا علاقة لمسائل العبيد وملك اليمين - حسب المفهوم التاريخي - بمسألة لا من قريب ولا من بعيد، فكما قلنا لم يقرن القرآن الكريم بينهما ولا بأي نص من نصوصه . .

وما تم تلبيسه لمسألة الرقاب من دلالات تاريخية بمعنى تحرير العبيد وملك اليمين، إنما هو خروج على حقيقة دلالات كتاب الله تعالى، لأنه في كتاب الله تعالى لا يوجد سبي - كما رأينا - ولا يحق الاعتداء على أعراض الآخرين وأموالهم وحرياتهم .

يعترض البعض بدعوى أننا فيما تقدم، لم تتعرض إلا إلى جانب تحريم السبي، وإلي جانب الحريات المادية والشخصية مفسرا العبد في القرآن الكريم على أنه الإنسان . . . .

ولم تتعرض إلى جانب النكاح وأحكامه، وبدعوى أيضا أن هناك نصوصًا قرآنية واضحة تميز مسألة ملك اليمين عن الأزواج في مسألة النكاح . . ومثيرين لهذه **التساؤلات:**

ألم يقل الله تعالى في سياق تحديد المحرمات ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ (سورة النساء ٢٤) مستثنيا ملك اليمين من تحريم المحصنات إحصان زواج؟

ألم يخاطب الله تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلا ﴿**لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**﴾ (سورة الأحزاب ٥٢) مستثنيا ملك اليمين من جملة النساء الأزواج المعنيات في أحكام هذا النص القرآني.

كيف بنا أن ندرك حكم ملك اليمين وخصوصيته في مخاطبة الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ**﴾ (سورة الأحزاب ٥٠)؟

. . كيف بنا أن ندرك دلالات النصوص القرآنية المحيطة بهذه المسألة بعيدا عن المفهوم التاريخي لها ؟

على قولنا بأن. . . . صيغ ورود مسألة ملك اليمين في القرآن الكريم، هي صيغ فعلية، وبالفعل الماضي حصرا، عبر اقتران مشتقات الفعل الماضي ملك بإضافات **مسألة اليمين:**

﴿**مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾، ﴿**مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**﴾، ﴿**مَلَكَتْ**

أَيْمَانُهُنَّ﴾ ، ﴿مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ .

ولو كانت مسألة تصف جنسا من الناس يتصفون بها بشكل مستمر ، لأتت عبارات ملك اليمين في القرآن بالصيغة الاسمية أو على الأقل بصيغة الفعل المضارع . .

وبينا . . أن ملك اليمين يعني الوقوع تحت الولاية والإشراف والرعاية والإدارة ، والعلم بالوقوف على حقيقة المملوك ، ولا يعني أبدا الرق وما تم الذهاب إليه تاريخيا . ولإدراك هذه المسألة جيدا ، لابد من إدراك معنى النكاح في القرآن الكريم .

وفي كتابه (المعجزة الكبرى) يقول عدنان الرفاعي في هذا الخصوص:

النكاح في القرآن الكريم ، هو العقد الشرعي بين الرجل والمرأة ، ويسبق الدخول ، ولا يعني مجرد الوطء ، فلربما يحصل النكاح دون وطء . . وفي المسألة الكاملة التالية لأكبر دليل على ذلك . .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (سورة الأحزاب ٤٩) = ٥١٣ = ١٩ × ٢٧ .

وعقد النكاح هو الوسيلة الوحيدة لوقوع مسألة الوطء ، وأي وطء دون عقد نكاح شرعي ، هو زنى ، مهما كان جنس طرفي الوطء . . وفي المسألة الكاملة التالية لأكبر دليل على صحة ما نذهب إليه . .

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ (سورة النور ٣٢) = ٢٢٨ = ١٩ × ١٢ .

إن عطف العبارة القرآنية: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾

(سورة النور ٣٢) على العبارة القرآنية ﴿الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ في مسألة واحدة هي مسألة النكاح ﴿وَأَنْكِحُوا﴾ لأكبر دليل على أنه في مسألة النكاح ، لا فارق بين الأيامى والعباد والإماء . . وبالتالى كل لقاء بين امراة ورجل خارج إطار عقد النكاح الشرعي ، هو خروج على أحكام كتاب الله تعالى . .

والمسألة الكاملة التالية تؤكد هذه الحقيقة . .

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ (سورة النساء ٢٥) = ١١٤٠ = ١٩ × ٦٠ .

فقوله تعالى ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ الذي يعني به ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ لأكبر دليل على أن المعنيات بقوله تعالى: ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ لا يجوز وطؤهن إلا عبر عقد نكاح شرعي . .

ونرى أيضا في العبارة القرآنية التي تصور الشرط الثاني في تعدد الزوجات ، كما بينا سابقا: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (سورة النساء ٣) .

نرى أيضا أن عقد النكاح يشمل ملك اليمين أيضا .

فقوله تعالى: ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ، يعني: فنكح واحدة أو نكح مما ملكت أيمانكم . .

ولو كان ملك اليمين مستثنى من العدل بين الزوجات ، لتم العطف بالحرف (و) بدل كلمة (أو) في هذه العبارة القرآنية ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُكُمْ﴾ أي لكانت العبارة القرآنية على الشكل **﴿فَوَاحِدَةٌ وْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾** بمعنى: أن لم يتحقق العدل فواحدة تجمع مع ملك اليمين، ولكن **ما نراه أن الله تعالى يقول: ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾** . .

وهذه العبارة القرآنية التي تصور شرط العدل بين النساء ولا تستثنى ملك اليمين من هذا العدل، تتكامل مع عبارة قرآنية تصور مسألة الإنفاق على العيال . .

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (سورة النساء ٣) = ٣٣١ .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة ٢٨) = ٢٧٧ ، ٣٣١ + ٢٧٧ = ٦٠٨ = ١٩ × ٣٢ .

فملك اليمين المتعلقة بعقد نكاح، هي من العيال، ولا تختلف من حيث العدل والإنفاق عن العيال بشيء . .

وهكذا يتأكد أن ملك اليمين في كتاب الله تعالى، لا يعني أبدا ملك الوطء دون عقد نكاح شرعي، فالوطء - بعد النكاح الشرعي - مسألة تستمر عادة، ولو كان ملك اليمين يعني ملك الوطء، لا قتضي ذلك ورود صيغ ملك اليمين بصيغة المضارع، ولكن ما نراه أن كل تلك الصيغ تأتي بصيغه الماضي حصرا .

ونرى - أيضا - أن ملك اليمين لا يعني استثناء من العدل بين النساء، ولا يعني استثناء من الإنفاق على العيال . .

وصيغ ملك اليمين التي تأتي بها في القرآن الكريم (وهي كما قدمنا صيغ فعلية وبالماضي حصرا)، تستمد دلالاتها من السياق القرآني المحيط، فلكل سياق قرآني دلالات يتم إسقاطها على عبارة ملك اليمين في ذلك

السياق . . وهذا أمر طبيعي ، فعلى سبيل المثال كلمة (أكلت) لا تعطي معنى محددا لمعرفة ماهية الأكل المعنى الذي تم أكله ، إلا من خلال سياق محيط يدل على ماهية الشيء المأكول ، لأنها صيغة فعلية وليست اسمية . .

ففي بعض الحالات تعنى عبارة ملك اليمين امرأة الإنسان التي يرتبط معها بعقد نكاح شرعي . .

وفي المسألة الكاملة التالية دليل على ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة الأحزاب ٥٠) ١٥٠١ = ١٩ × ٧٩ .

فالعبارة القرآنية **﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾** تعنى اللاتي ملكت وطأهن - طبعا بعقد نكاح شرعي - ولكن دون أن تدفع مهرا ، أي بفيء من الله تعالى . .

والفارق بين المعنيات في هذه العبارة القرآنية والمعنيات بالعبارة السابقة لها مباشرة: **﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾** ، أن المعنيات الآية القرآنية: **﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾** هن اللاتي تم دفع مهرهن . .

أي أن الفارق بين هذين النوعين هو ذاته الفارق بين العبارة القرآنية: **﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾** والعبارة القرآنية: **﴿مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾** .

فالقارق - إذاً - هو في حيثيات المهر ، وليس في جنس النساء . .

فالمعنيات بالآية القرآنية: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ ، لا ينتمين إلى مرتبة أقل من غيرهن ، فهن حالة كاملة من حالات ما أحله الله تعالى لنبيه . .

﴿وما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ = ١٣٣ = ١٩ × ٧ .

ولذلك نرى أن النص القرآني المتعلق بتحديد حالات ما أحله الله تعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، من المسألة الكاملة السابقة ، يتكامل مع عبارة قرآنية تصور أحكاما تتعلق بالمسألة ذاتها . .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأحزاب ٥٠)= ١١٠٤ .

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ (سورة الأحزاب ٥٢)= ٥٣٠ ، ١١٠٤ + ٥٣٠ = ١٦٣٤ = ١٩ × ٨٦ .

فالاستثناء ﴿إلاَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الآية الكريمة: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ لا يعني جنسا من النساء اللاتي سيتم سبيهن . .

فهذه العبارة ﴿إلاَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ هي بصيغة الماضي وليس المضارع ، وتعني نساءه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . فالمسألة الكاملة داخل هذه الآية الكريمة . .

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ (سورة الأحزاب ٥٢)= ٣٤٢ = ١٩ × ١٨ .

هذه المسألة . . تعني جميع النساء على وجه الأرض، ودون استثناء، ومنهن نساؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . ولذلك تأتي العبارة القرآنية ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ لتستثني نساءه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللاتي ملك وطأهن بعقد نكاح شرعي، من بين مجموعة النساء على وجه الأرض . . فلولا هذا الاستثناء لحرمت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه نساؤه . .

وهذه الجانب من دلالات ملك اليمين نراه في المسألة الكاملة التالية . .

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سورة النساء ٢٤) = ١١٤٠ = ١٩ × ٦٠ .

فالعبارة القرآنية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ هي ضمن سياق قرآني يحرم العقد على المتزوجات، وهذه العبارة مطلقة تشمل كل المتزوجات على وجه الأرض، ومن ضمنهن أزواج المخاطبين بهذه العبارة القرآنية، كونهن متزوجات منهم . .

وتأتي العبارة التالية لها مباشرة ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ لاستثناء زوجات المخاطبين بهذه العبارة القرآنية، من بين مجموعة المتزوجات على وجه الأرض . .

بمعنى أنه يحرم عليكم جميع النساء المحصنات إحصان زواج بعقد نكاح شرعي، إلا ما ملكتم وطأهن بعقد نكاح شرعي، وهن أزواجكم المحللات

لكم. فلولا هذه العبارة القرآنية ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ لحرم على المتزوج زوجته..

أما ما تم الذهاب إليه من أن العبارة القرآنية ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ تعنى إلا المتزوجات اللاتي يتم سبيهن بالحروب، فهذا تفسير فاسد، أعتقد أننا بتنا نرى فساده بأم أعيننا..

وفي بعض الحالات تعنى عبارة ملك اليمين الذين نملك العلم فيهم والطمأنينة، من أنهم كشهوة وغريزة وميل للنساء لا يختلفون عن الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا عن التابعين غير أولي الإربة من النساء، وفي المسألة **الكاملة التالية لأكبر دليل على ذلك..**

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ (سورة النور ٣١)= ١٦٩١ = ١٩ × ٨٩ .

وأيضا في المسألة الكاملة التالية بيان لهذا الجانب مما تعنيه عبارة ملك اليمين في كتاب الله تعالى..

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ (سورة الأحزاب ٥٣)= ٦٩٩ .

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ

إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (سورة الأحزاب ٥٥) ٦٣١ . ٦٩٩ + ٦٣١ = ١٣٣٠ = ١٩ × ٧٠ .

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (سورة الأحزاب ٥٣) ٣٨٠ = ١٩ × ٢٠ .

فالعبارة القرآنية ﴿ولَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ في هذه المسألة الكاملة، تعنى الذين تم العلم والتأكد والطمأنينة بأنهم لا يأتي منهم أذى تجاه أحكام هذه المسألة، كونهم لا ميل عندهم للنساء ولا شهوة تجاهن، فشرط طهارة القلوب وعدم الإيذاء الذي تحمله هذه المسألة الكاملة متحقق فيهم . .

ودليل أكبر على هذا الجانب من مسألة ملك اليمين، نراه في المسألة الكاملة التالية . .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْـحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْـحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة النور ٥٨ – ٥٩) = ٢١٠٩ = ١٩ × ١١١ .

فهذا الجانب مما تعنيه عبارة ملك اليمين في كتاب الله تعالى، تتم فيه مساواة المتصفين به، مع الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، ونرى أن الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم حينما يتجاوزون مرحلة بلوغ الحلم، يخرجون من إطار عدم الاستئذان .

(طبعا ما عدا المرات الثلاث الواردة في هذه المسألة الكاملة)، في حين

أن المتصفين بهذا الجانب من مسألة ملك اليمين لا يخرجون من هذا الإطار، وهذا يدل على أنهم ليس لديهم شهوة وغريزة وميل للنساء . .

وهناك جانب مما تعنيه عبارة ملك اليمين في كتاب الله تعالى، يصف الذين ينقصهم تعلم حرفة، وإدارة أنفسهم وأحوالهم بسبب فقرهم، أو ينقصهم الوعي والرشد والصلاح، وبالتالي يكونون تحت ولاية إنسان آخر، أي تحت رعايته وإشرافه، ريثما يتمكنون من الاعتماد على ذاتهم.

وهؤلاء يأمر الله تعالى بتزويج الصالحين منهم بعد بلوغهم الرشد والصلاح، ويأمر جل وعلا بعدم تمييزهم عن الأيامى، ففقرهم لا يجعل منهم جنسا آخر لا يحق له تملك حق النكاح كباقي البشر . . وهذا الجانب نراه في المسألة الكاملة التالية . .

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة النور ٣٢ - ٣٣) = ١٢٩٢ = ١٩ × ٦٨ .

وكنا قد رأينا أن المتصفين بهذا الجانب مما تعنيه عبارة ملك اليمين في كتاب الله تعالى، شأنهم كشأن غيرهم في امتلاك حق عقد النكاح، وذلك من دلالات المسألة الكاملة التالية داخل هذه المسألة . .

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ = ٢٢٨ = ١٩ × ١٢ .

والعبارة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ في هذه المسألة الكاملة يؤكد صحة ما نذهب إليه ، فالمعنيون بهذه العبارة القرآنية هم المتصفون بهذا الجانب من دلالات ملك اليمين ، والذين يريدون الخروج من تحت الولاية المادية ، بعد امتلاكهم القدرة على النفقة والإعتماد على الذات ، والله تعالى يأمر بإجابة طلبهم شريطة التيقن من أنهم أصبحوا قادرين على إدارة أنفسهم وشؤون حياتهم ويأمرنا جل وعلا بمساعدتهم وإعطائهم من أموالنا التي أتانا الله تعالى إياها . .

فالمعنيون بهذه العبارة القرآنية إلى اليتامى الذين كانوا تحت ولاية إنسان ريثما يكبروا ، ويريدون الانفكاك من هذه الولاية بعد ما أصبحوا قادرين على إدارة شؤونهم بأنفسهم . .

والخصوصية التي تميز المعنيين بهذا الجانب من ملك اليمين عن اليتامى ، أنهم لا يشترط فيهم الصغر في السن ، كما هو الحال في اليتامى ، وهم - بشكل عام - أفقر من اليتامى حيث اليتامى لا يشترط فيهم الفقر . . ودليل ذلك أن الله تعالى يأمرنا أن نأتيهم من مال الله تعالى الذي آتانا إياه: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ .

إن الذهاب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ، إلى أن ابتغاء الكتاب المعني هو طلب الخروج من تحت الولاية المادية حين الإعتماد على الذات ، وتشبيهه بمسألة اليتامى هو نسف لمفهوم المكاتبة بين العبد وسيده الذي تحمله الروايات ، وعملت به الأمة قرونا من الزمن ، والذي يعني عقدا مؤجلا يعتق في نهايته المملوك مقابل مبلغ يوفيه للمالك في نهاية الأجل المتفق عليه . . كما لابد له أيضا من برهان دامغ ، لا

يقف عند حدود تفنيد فساد التفسير التاريخي فحسب ، إنما يتعداه إلى تقديم الحجج التي تضع النقاط على الحروف . .

في اعتقادنا أن الدلالات الحق لآيات كتاب الله تعالى ، لا تدرك أبدا إلا بالخروج من مستنقع التاريخ ، وبفهم دلالات الكلمات القرآنية والجمل القرآنية ، كما هي صياغتها اللغوية ، بعيدا عن تأثير ضغط الموروث التاريخي وأبواق الناعقين ، لتحويله صنما يحول بيننا وبين كتاب الله تعالى .

فأحكام العبيد وملك اليمين التي حسبت على الإسلام وهو منها براء ، تشمئز منها الفطرة النقية ، ولا يقبلها عقل أو منطق ، وتسيء للإسلام الحق الذي أراده الله تعالى رحمة للعالمين . .

وفوق كل ذلك ، لا وجود لها في كتاب الله تعالى ، وينقضها كتاب الله تعالى من أساسها . .

فنحن حينما نبرهن من كتاب الله تعالى أنه لا سبي في الدين الحق الذي يحمله كتاب الله تعالى ، ولا استرقاق للبشر ، وأن حرمة المال والعرض والحرية مصانة ولا يجوز الاعتداء عليها ، نكون بذلك قد فتحنا آفاقا جديدة ، نستطيع الانطلاق منها لرؤية دلالات هذه العبارة القرآنية وغيرها ، بعيدا عن فرض تصورات البشر وأهوائهم على رؤية تلك الدلالات . .

لنقارن بين العبارة القرآنية ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (سورة النور ٣٣) ، وبين الآية الكريمة التالية ، التي تدور دلالاتها في إطار مسألة ابتلاء اليتامى حتى مرحلة بلوغهم واستقلالهم وملكهم لأموالهم وإدارتهم لشؤون أنفسهم وهي قريبة من تفسيرنا لدلالات العبارة القرآنية . .

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا

فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ (سورة النساء ٦).

العبارة القرآنية ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾، تصف - كما قدمنا - أولئك الذين يبتغون الانفكاك من الولاية المادية التي كانوا تحتها، وذلك بعد أن بلغوا مرحلة إدارة أنفسهم والاعتماد على ذاتهم دون الحاجة لتلك الولاية.. وهذا يقابلة بلوغ اليتامى مرحلة النكاح، حيث تدفع إليهم أموالهم بعد ما أصبحوا قادرين على إدارة أنفسهم، وهذا ما تصوره العبارة القرآنية ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾.

ولذلك نرى أن القيمة العددية لكل من هاتين العبارتين القرآنيتين مساوية للقيمة العددية للعبارة الأخرى..

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ = ١٢٨.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ = ١٢٨.

يقول عدنان الرفاعي (المرجع السابق):

(لو أخذنا العبارة القرآنية ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ حيث المرحلة التي تدفع فيها أموال اليتيم له، ويخرج من تحت الوصاية كونه يتيما، لرأينا أنها تتكامل مع العبارة القرآنية ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾، حيث يأمر الله تعالى بخروج المملوك بالولاية والوصاية من تلك الولاية بعد بلوغة مرحلة إدارة شؤونه بنفسه، واعتماده على ذاته.. ولذلك نرى أن هاتين العبارتين القرآنيتين تتكاملان في معيار معجزة (إحدى الكبر).

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ = ١٢٨.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ = ٢٥٢، ١٢٨ + ٢٥٢ = ٣٨٠ = ١٩ × ٢٠.

ولو أخذنا العبارة القرآنية ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ من هذه المسألة الكاملة، لرأينا أنه حتى كلمة (أيمانكم): ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، تصف المملوك بهذه الولاية حتى مرحلة اعتماده على ذاته، وقبل خروجه مباشرة من تحت الولاية التي يريد الخروج منها، وهذا يقابله في مسألة اليتامى مرحلة بلوغ اليتيم رشده قبل دفع أمواله إليه.

وهذا ما تصوره العبارة القرآنية: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾.

ولذلك نرى تكامل هاتين العبارتين القرآنيتين في معيار معجزة إحدى الكبر.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ = ٣٠٢.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ = ١٩٢، (٣٠٢ + ١٩٢ = ٤٩٤ = ١٩ × ٢٦).

والعبارة القرآنية ﴿عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ في العبارة محل التساؤل، لا تحمل التفسير التاريخي وهو: علمتم لهم قدرة وقوة على الكسب من أجل دفع ما تمت المكاتبة عليه.

فلو كان الأمر كذلك لكان من الأولى أن ترد هذه العبارة القرآنية بالصيغة (علمتم لهم) بدل (علمتم فيهم)..

فالعبارة القرآنية ﴿عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ تعنى علمتم في كينونتهم الرشد والصلاح والوعي والقدرة على إدارة الذات والاعتماد عليها ، وهذا يقابل تماما العبارة القرآنية ﴿آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ في مسألة اليتامى . . لذلك نرى عظمة الصياغة القرآنية تتجلى في تساوي القيم العددية بين هاتين العبارتين القرآنيتين . .

﴿آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ = ٩٨ .

﴿عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ = ٩٨ .

فالخير الذي يريد الله تعالى منا أن نعلمه في هؤلاء ، هو الرشد والصلاح والاعتماد على الذات ، وليس الاعتداء على حرياتهم وجهدهم ومستقبلهم ، وهذا مما كرم الله تعالى به بني آدم ، فأي كرامة لبني آدم يمكننا أن نتصورها حينما يكون جهدة ومستقبله وكرامته وحريته بيد الآخرين؟

وهذا ما نقرؤه في التوازن بين العبارتين القرآنيتين التاليتين . .

﴿عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ (النور: ٣٣) = ١٠٢ .

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (سورة الإسراء ٧٠) = ١٠٢ .

والعبارة القرآنية ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ ، تتكامل - في تقابلها مع مسألة اليتامى - مع العبارة القرآنية .

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ فكلا العبارتين أمر إلهي بإخراج من كان تحت الوصاية المادية ، من تلك الوصاية ، سواء من الموصوفين بهذا الجانب من ملك اليمين ، أم من اليتامى ، ولذلك تتكامل هاتان العبارتان في معيار

معجزة (إحدى الكبر).

﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾= ٣٥٤.

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾= ٤٠٦، ٣٥٤ + ٤٠٦ = ٧٦٠ = ١٩ × ٤٠.

إذا العبارة القرآنية: ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾، تنهي عن عدم فك من يود الانفكاك من هذه الولاية، حين التأكد من رشده وصلاحه وقدرته على إدارة شؤونه واعتماده على ذاته، وهذا يتكامل بالنسبة لمسألة اليتامى - مع الأمر الإلهي بدفع أموال اليتامى إليهم وعدم أكلها ومع الأمر بالإشهاد عليهم حين دفع أموالهم إليهم.

﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ = ٩٠٠.

﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ = ٣٥٤، ٩٠٠ + ٣٥٤ = ١٢٥٤ = ١٩ × ٦٦.

ولذلك نرى أن العبارة القرآنية ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾، تتوازن مع آية كريمة تبين مصير من يأكل أموال اليتامى.

﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ = ٣٥٤.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (سورة النساء ١٠) =٣٥٤ .

فعدم إخراج الموصوفين بهذا الجانب من ملك اليمين من تحت الوصاية ، حينما يبتغون ذلك ، يوازي أكل مال اليتيم ظلما .

إذا العبارة القرآنية ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ تتكامل – في تقابلها مع مسألة اليتامى – مع العبارة القرآنية ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ ، ففي كلا الحالتين أمر الهي باخراج من يريد الانفكاك من تحت الوصاية . .

﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ = ١٦٢ .

﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ = ١٠٤ ، ١٦٢ + ١٠٤ = ٢٦٦ = ١٩ × ١٤ .

ولذلك فإخراج من يريد الانفكاك من تحت وصاية هذا الجانب من ملك اليمين ، بعد علم رشده وصلاحه وقدرته في الاعتماد على ذاته ، وإعطاؤه من مال الله تعالى الذي أتاه لنا ، يتكامل – في تقابل هذه المسألة مع مسألة اليتامى – مع دفع أموال اليتيم إليه بعد علم رشده وعدم أكلها . . وهذا ما يتجلي في تكامل القيم العددية بين العبارتين القرآنيتين التاليتين . .

﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ = ٢٧٩ .

﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ = ٣٨٦ ، ٢٧٩ + ٣٨٦ = ٦٦٥ = ١٩ × ٣٥ .

بعد هذا البيان القرآني ، وما يتحلى في معجزة (إحدى الكبر) ، من تكامل العبارات القرآنية بين مسألة هذا الجانب من ملك اليمين ومسألة

اليتامى، وما يتحلى في معجزة تساوي القيم العددية للعبارات القرآنية المتوازنة في المعنى والدلالات كما رأينا بعد كل ذلك نرى برهانا دامغا يظهر فساد التفسير التاريخي لمسألة ملك اليمين ويضع النقاط على الحروف، وذكري لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد.

مع كل ما قدمنا من براهين كيف لنا أن نوفق بين ما ذهبنا إليه، وبين كون عقوبة المملوكة نصف عقوبة المحصنة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (سورة النساء ٢٥).

وأن نوفق بينما ذهبنا إليه، وبين عطف المملوكات ملك يمين على الأزواج في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (سورة المؤمنون ٥ – ٧).

وعما إذا كان هذا العطف يعني وجود نوعين متمايزين من النساء بالنسبة لعقد النكاح ؟

كون نكح المملوكة ملك يمين مشروطا بعدم استطاعة نكح المحصنات المؤمنات يقول تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ (سورة النساء ٢٥) على أنه يقينا للإجابة على هذه الاستفسارات لا بد من توضيح حقيقة قرآنيه تم تغييبها، وهي أن. **عقد النكاح في القرآن الكريم يتكون من نوعين اثنين:**

النوع الأول: يتصف بالزوجية، أي بالتماثل في العقيدة بين طرفي عقد النكاح، أي أن الرجل زوج للمرأة (بمعنى أنه مماثل لها في العقيدة)، وأن المرأة زوج للرجل (بمعنى أنها مماثلة له في العقيدة).. وحين ذلك تسمي المرأة زوج الرجل، وتسمي امرأته في الوقت ذاته، كامرأة إبراهيم وامرأة

زكريا عليهما السلام . . فصفة الزوجية لا تلغي كون الزوجة امرأة لزوجها . وكل ذلك من منظار الاقتران بعقد نكاح ، فكلمة زوج - في القرآن الكريم - دلالاتها واسعة تتجاوز الساحة التي نلقي الضوء عليها . .

النوع الثاني: لا يتصف بالزوجية ، وبالتالى يتصف بعدم التماثل في العقيدة بين طرفي عقد النكاح ، وحين ذلك لا تسمى المرأة زوج الرجل ، إنما تسمى امرأته فقط .

وذلك - أيضا - من منظار الاقتران بعقد نكاح . . وحين ذلك يسمى هذاالعقد - من هذا المنظار- عقد نكاح ملك يمين ، بمعنى أنه عقد نكاح لملك الوطأ ، دون تحقق الزوجية من تناظر وتماثل في العقيدة . .

ومثال ذلك ، امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام ، وامرأة فرعون . .

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة التحريم ١٠ - ١١) .

الله تعالى يقول **﴿امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾** ويقول جل وعلا: **﴿امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾** ، ولم يقل (زوجة نوح وزوجة لوط) ، ولم يقل: (زوجة فرعون) .

إذا . ورود كلمة زوجة يشير إلى التماثل في العقيدة ، بينما ورود كلمة امرأة ليس دليلاً على عدم التماثل في العقيدة ، أو على التماثل . .

وتتجلى هذه الحقيقة أمام أعيننا ، حينما ننظر بعمق إلى النصوص

القرآنية التالية . .

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ (سورة الرعد ٢٣) .

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ (سورة يس ٥٦) .

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (سورة الصافات ٢٢ - ٢٣) .

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (سورة الزخرف ٧٠) .

وهذان النوعان لعقد النكاح ، نراهما بشكل جلي في النص القرآني التالي: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (سورة المؤمنون ٥ - ٧) .

فعطف ملك اليمين على الأزواج في هذا النص ، هو عطف لنوعي عقد النكاح ، من منظار التماثل في العقيدة وعدمه بين طرفي هذا العقد . .

وعقد ملك الوطا الذي يسمى عقد ملك يمين كما قلنا ، نراه يتجلي في المسألة الكاملة التالية ، حيث يأمر الله تعالى بالابتعاد عنه ، إلا عند الضرورة ، وضمن شروط . .

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ

الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء ٢٥ - ٢٧)= ٢٦٦٠ = ١٩ × ١٤٠ .

ما نراه في هذه المسألة الكاملة أن الله تعالى يشترط لنكح الفتيات المؤمنات من هذا الجانب من مسألة ملك اليمين، يشترط عدم الاستطاعة من نكح المحصنات المؤمنات . .

فتطبيق أحكام العبارة القرآنية .

﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ .

لا يكون إلا بتحقق الشرط: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ .

وكلمة (طولا) في عبارة الشرط: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ليست محصورة بالجانب المادي كما ذهبت تفاسيرنا التاريخية، فلا يوجد في هذا النص القرآني ما يشير إلى فقر طالب النكاح .

فقوله تعالى: ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يبين أن طالب النكاح يمتلك المال . . ووجود شرط آخر هو الخوف من الضرر والوقوع في الخطيئة ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ .

وحكم الله تعالى بأن الصبر على عدم النكاح أولى من نكح هذا النوع من ملك اليمين: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ .

إضافة إلى قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ .
كل ذلك يؤكد أن المسألة تتعلق بالعقيدة وليس بامتلاك المال ، فليس من المعقول أن يضع الله تعالى كل هذه الاشتراطات لإبعاد الرجال عن نكح امرأة بسبب فقرها وحالتها المادية .

إذا الشرط: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ هو عدم الاستطاعة في تناول المراد من نكح المحصنات المؤمنات ، حيث الإحصان المعني في هذه المسألة الكاملة هو إحصان إسلام .

بمعنى: من لم يستطع منكم القدرة على نكح المسلمات المؤمنات لسبب من الأسباب . . . من لا يستطيع ذلك ، فلا بأس أن ينكح مما وقع تحت استطاعته وإشرافه وعلمه من الفتيات المؤمنات . . ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ .

وفي المسألة الكاملة التالية بيان إلهي بتحديد انتماء من يسمح نكحها من غير المسلمات . .

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة المائدة ٥) = ١٣٨٧ = ١٩ × ٧٣ .

إذا . المعنيات في جواب الشرط هن الكتابيات حصرا ، كخيار في حال عدم الاستطاعة من القدرة على تناول نكح المسلمات المحصنات إحصان إسلام . .

والعبارة القرآنية (من فتياتكم) ، تعنى: من اللاتي يتحركن ويسعين

تحت علمكم ورؤيتكم وإشرافكم ، بحيث تقفون على حقيقتهن . .

فكلمة (فتى) - في القرآن الكريم - تعنى الساعي والمتحرك في مسألة ما .

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (سورة الأنبياء ٦٠) .

فإبراهيم عليه السلام ، ليس عبدا لأحد من البشر ، إنما هو متحرك وساع في سبيل البحث عن الحقيقة .

والفتية المذكورون في سورة الكهف ، إنما وصفوا بهذه الكلمة ، لأنهم سعوا وتحركوا في سبيل البحث عن الحقيقة .

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (سورة الكهف ١٣) .

وحينما تضاف كلمة فتى التي تصف إنسانا ما ، إلى إنسان آخر ، فإنها تعنى الساعي والمتحرك تحت علم هذا الآخر وإشرافه .

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة يوسف ٣٠) .

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة يوسف ٦٢) .

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (سورة الكهف ٦٢) .

وبالتالى فكلمة ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمُ﴾ تعنى اللاتي يسعين ويتحركن تحت رعايتكم وإشرافكم وعلمكم وتربيتكم . .

يقول تعالى . .

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ

الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (سورة النور ٣٣) .

وعلي هذا . . فالعبارة القرآنية ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمُ﴾ ، في المسألة التي نحن بصدد دراستها تعنى: من اللاتي يتحركن في المجتمع تحت علمكم ومشاهدتكم ، وبحيث تعرفون أخلاقهن وحقيقتهن من خلال علمكم بسعيهن تحت إشرافكم ورؤيتكم لهن .

وهن - كما قلنا - المحصنات من الذين أوتوا الكتاب: ﴿وَالْـمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ اللاتي أباح الله تعالى الارتباط معهن نكاح شرعي ، ونذلك نرى أن هاتين العبارتين القرآنيتين تتكاملان في معيار معجزة (إحدى الكبر) . .

﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمُ﴾ = ٦٢ .

﴿وَالْـمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾= ٢٠٤ ، ٦٢ + ٢٠٤ = ٢٦٦ = ١٩ × ١٤ .

وفي التكامل بين العبارة القرآنية ﴿فمن مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْـمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ من المسألة التي نحن بصدد دراستها ، مع العبارة القرآنية من المسألة الثانية ﴿وَالْـمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ ، والتي تحدد انتماء من يسمح بنكحها من غير المسلمات . . في هذا التكامل دليل إضافي على صحة ما نذهب إليه . .

﴿وَالْـمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (المائدة:٥) = ٥٧٧

﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْـمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٢٥) = ٣٥٤ ، ٥٧٧ + ٣٥٤ = ٩٣١ = ١٩ × ٤٩ .

وهذا ما نراه أيضا في التكامل بين العبارتين القرآنيتين التاليتين . .

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْـمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ = ٦٢٠ .

﴿وَالْـمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (المائدة:٥) = ٥٧٧ ، ٦٢٠ + ٥٧٧ = ١١٩٧ = ١٩ × ٦٣ .

ولذلك في النص القرآني: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُمَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ والذي يرد في كتاب الله تعالى مرتين، في سورتي (المؤمنون) و (المعارج) . . نرى أن الآيتين: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ، تلقيان الضوء على نوعي عقد النكاح الشرعي الذي على المؤمن ألا يبتغي وراءهما . . وهما - كما قلنا - عقد زوجية ، حين وجود التناظر في العقيدة ، وعقد ملك يمين ، حين عدم وجود هذا التناظر ، وبالتالى تتكاملان مع ركني الشرط في المسألة الكاملة التي نحن بصدد دراستها . .

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْـمُحْصَنَاتِ الْـمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْـمُؤْمِنَاتِ﴾ (سورة النساء ٢٥)= ٦٢٩ .

﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المؤمنون:٦-٧) = ٤٣٦ .

﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠)

﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المعارج: ٣٠ - ٣١) = ٤٣٦ ، ٦٢٩ + ٤٣٦ + ٤٣٦ = ١٥٠١ = ١٩ × ٧٩ .

ومما يؤكد حقيقة ما نذهب إليه في بياننا لهذا النوع من مسألة ملك اليمين ، وبأن خيار نكح الكتابية مشروط بشروط أهمها عدم الاستطاعة من تناول نكاح المسلمة ، مما يؤكد ذلك ، هو العطف بكلمة (أو) دون العطف بالحرف (و) في العبارة القرآنية ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ .

ولو كان الأمر كما فسر تاريخيا ، وبأنه تنكح العبدة دون أي شرط وذلك بجمعها مع الحرة كما زعم ، ولو كان الأمر كذلك لتم العطف بين الأزواج وهذا النوع من ملك اليمين بالحرف (و) وليس بالكلمة (أو) . .

أي لأتت هذه العبارة القرآنية على الشكل: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ وْمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ .

ولذلك نرى إنه حين عطف ملك اليمين على الأزواج من زاوية التعلق بعلم الله تعالى ، وليس من زاوية تحديد نوعي عقد النكاح ، نرى أن العطف يكون بالحرف (و) الذي يفيد الجمع ، وليس بالكلمة (أو) التي تفيد التخيير . . فعلم الله تعالى يحيط إحاطة مطلقة بكل شيء . . ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ (سورة الأحزاب ٥٠) .

ومما يؤكد صحة ما نذهب إليه ، أن عقوبة المعنيات بملك اليمين في المسألة التي ندرسها ، وهن الكتابيات - كما قلنا - هي نصف عقوبة المسلمات: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْـمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ . .

فالكلمة القرآنية: ﴿الْـمُحْصَنَاتِ﴾ في هذه العبارة القرآنية ، تصور

ذات النوع من الأحصان الذي تصوره العبارة: ﴿الْـمُحْصَنَاتِ الْـمُؤْمِنَاتِ﴾ في عبارة الشرط في بدأيه الآية الكريمة ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنكِحَ الْـمُحْصَنَاتِ الْـمُؤْمِنَاتِ﴾ وهو إحصان الانتماء إلى الإسلام.. ولذلك نرى أن كلمة ﴿الْـمُحْصَنَاتِ﴾ تتكامل مع العبارة القرآنية: ﴿الْـمُحْصَنَاتِ الْـمُؤْمِنَاتِ﴾.

﴿الْـمُحْصَنَاتِ الْـمُؤْمِنَاتِ﴾ = ٩١.

﴿الْـمُحْصَنَاتِ﴾ = ٦١، ٩١ + ٦١ = ١٥٢ = ١٩ × ٨.

والتفسير التاريخي الذي ذهب لتخفيض عقوبة المملوكة (حسب مفهومهم لملك اليمين) إلى نصف عقوبة الحرة في حال إتيانها للفاحشة، وإلي جعل ذلك معادلة قياسية تخفض فيها أحكام كتاب الله تعالى كالعدة، بناء على هذه العبارة القرآنية: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْـمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

هذا التفسير يظهر فساده واضحا جليا.. فأحكام كتاب الله تعالى وحدوده تطبق على جميع المسلمين والمسلمات، دون استثناء، ولا فارق عند الله تعالى من زاوية الالتزام بحدوده وأحكامه بين فقير وغني ومالك ومملوك.

إن الكتابيات اللاتي ارتبطن بعقد نكاح مع بعض المسلمين الذين ينصاعون لمنهج القرآن الكريم بحدوده وأحكامه، لا يمكن تطبيق أحكام القرآن الكريم عليهن، كونهن ينتمين إلى رسالة أخرى لها حدودها وأحكامها، وبالتالى فإن عقوبة إتيان الفاحشة، والتي تطبق على المسلمات، تخفض بالنسبة لهن إلى النصف نتيجة تعلقهن بعقد نكاح ملك يمين مع بعض المسلمين.

وهذا يؤكد صحة ما نذهب إليه في إنتمائهن لعقيدة أخرى لها أحكامها وحدودها.. وكنا قد راينا- سابقا - كيف يتكامل هذا الحكم مع حكم

إتيان الفاحشة بالنسبة للمسلمات . .

﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْـمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (سورة النساء ٢٥)= ٣٩٣ .

﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (سورة النساء ١٦) = ٤٠٥ .

٣٩٣ + ٤٠٥ = ٧٩٨ = ١٩ × ٤٢ .

ونرى أنه في العبارة الأخرى - من هذه المسألة الكاملة - والتي تصور حكم إتيان هذه الفاحشة ، ترد كلمة (منكم): ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ = ١٣٣ = ١٩ × ٧ .

وذلك لتخصيص المسلمين ونسائهم ، في الوقت الذي لا نرى فيه هذا التخصيص في العبارة الأخرى .

وفوق ذلك نرى حكما مخفضا إلى النصف . . وكل ذلك يؤكد صحة اسندلالنا .

ومما يؤكد صحة ما نذهب إليه ، إننا نرى في العبارة القرآنية: ﴿ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (سورة النساء ٣) .

في عبارة الشرط الثاني لتعدد الزوجات ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (سورة النساء ٣) .

وهو شرط العدل كما بينا سابقا ، نرى العطف فيها بكلمة (أو) التي تفيد التخيير ، وليس بالحرف (و) الذي يفيد الجمع ، وذلك لتشمل دلالاتها مساحة يدخل فيها نوعا عقد النكاح اللذين نتحدث عنهما .

لقد تناولنا هذه المسألة باختصار وفي إطار الرد على ما يثار حولها

ولكن الثابت في الأمر، أن كل عبارات ملك اليمين - في القرآن الكريم - تدرك دلالاتها ضمن السياق القرآني المحيط بها، فهي - كما قدمنا - لم ترد إلا بالصيغة الفعلية، وبصيغه الفعل الماضي حصرا، وهي لا تحمل - أبدا - ما تم الذهاب إليه تاريخيا.

جوهر القفز فوق المنهج الذي يحمله كتاب الله تعالى، يتجسد في الإيمان والإعتقاد بأن نصوص روايات التاريخ - مهما كانت صحتها - نصوص موازية للنص القرآني.

فبدلا من معايرة الروايات التاريخية على كتاب الله تعالى، وأخذها بالمقاربة دون اليقين الموازي لليقين بدلالات النص القرآني.. بدلا من ذلك.. راح الكثيرون يعتبرونها أحاديث مطلقة لا يرون دلالات كتاب الله تعالى إلامن منظارها، وهذا بحقيقته تكذيب بأحكام القرآن الكريم.

هذه الحقيقة التي لا تعجب الكثيرين، نراها جليلة في دلالات المسألة الكاملة التالية: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (سورة الأنعام ٦٦)= ٢٥٢.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف ١٨٥)= ١٦٤.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الجاثية ٦)= ١٩٩.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة المرسلات ٥٠) = ١٦٤، ٢٥٢+ ١٦٤ + ١٩٩ + ١٦٤ = ٧٧٩ = ١٩ × ٤١.

وهكذا نرى - من خلال بحث هذه المسألة وغيرها - كيف وضعت بعض المعايير التاريخية التي تمت صياغتها من تصورات بعض السابقين، لتستخدم في كل زمان ومكان مانعة صواعق، هدفها الحيلولة دون انهيار منظومة ثقافة عبادة الأصنام، وإنشاء مجتمع تحكمه معايير تاريخية، وعقل

تراثي ، يعيش الماضي ويلبس ثوب الحاضر . والمهزلة الكبرى أن أصحاب هذه المعايير التاريخية ، وأتباعهم ، لاينصاعون لأي معيار ، حتى لتلك المعايير التي يحددونها بأنفسهم . . فمهزلة الكثير من الروايات التي لفقها بعض السابقين ، ونسبوها إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والرسول منها براء ، لها الكثيرون مدافعين عنها ، ضاربين بعرض الحائط ، الحد الأدنى مما يدرك من كتاب الله تعالى ، ومن قواعد اللغة ، ومن العقل والمنطق وهم بذلك يحولون التاريخ ورجالاته إلى مقدس على حساب قدسية كتاب الله تعالى ، ويحاولون دفع كل متدبر لكتاب الله تعالى ، إلى أن يكون هدفا لأبواق الشياطين وسهامهم . . وبالتالى يغيبون - عن الكثيرين - حقيقة الإسلام ، مقدمين أهواءهم وعصبياتهم إسلاما لاعلاقة له بالإسلام ، لا من قريب ولا من بعيد .

لقد تم جليا مما تقدم الكشف عن العلاقة الرابطة بين جانب من بناء دلالات النص القرآني ، وبين بنائه الرقمي . . وما لهذه العلاقة الرابطة من دلالة كلية تتعلق بما هية المفردة القرآنية . .

فالقرآن الكريم يتميزعن غيره من الكتب السماوية بأنه قول الله تعالى وكلامه في حين أن الكتب الأخرى كلام الله تعالى فقط .

ويتميز أيضا بأنه منزل ومنزل من عند الله تعالى ، في حين أن الكتب الأخرى منزلة فقط . . فالقول هو الصياغة اللغوية للمعنى الكائن في الذات ، أي هو الصياغة اللغوية للكلام . . وأن التنزيل يعني ثبات ماهية المنزل في تنزله من الساحة المنزل منها إلى الساحة المنزل إليها . وأن الإنزال يعني تحول المنزل من الساحة التي أنزل منها إلى الساحة التي أنزل إليها ، وارتسامه بما هية الساحة التي أنزل إليها ، ليكون ميسرا للفائدة في الساحة التي أنزل إليها .

من هذا نستنتج أن الكلمة القرآنية التي بين أيدينا هي ذاتها دون تغير وتحول نزلت إلينا من عند الله تعالى . . أي أنها ليست وضعية من اصطلاح البشر ، كباقي الكلمات التي يتعامل معها البشر في حياتهم الدنيا . .

الكلمة وعاء المعنى . . كما أنَّ الكأس وعاء السائل الذي يوضع فيه . . ولا يمكن للوعاء أن يحمل أكثر من حجمه الذى صمم من أجل حاجته الوظيفية . . . من هنا . . فإن الكلمة الوضعية التي اصطلح عليها البشر ، تحمل من المعاني والدلالات ما يتناسب مع علم واضعها ، ولا يمكن تحميلها من المعنى والدلالات أكثر مما حملها واضعها .

وبالتالى فالكلمة الوضعية ، تقارب المعنى الذي أدركه واضعها ، للشيء الذي وضعت الكلمة اسما له . . وبالتالى تبتعد هذه الكلمة الوضعية عن ذات المعنى الحق لهذا الشيء مسافة جهل واضعها بحقيقة هذا الشيء . .

والقرأن الكريم الذي نزله الله تعالى تبيانا لكل شيء . . دلالاته ومعانيه غير متناهية . . وهذا لا يكون إلا إذا كانت كلماته أوعية تحمل من المعاني والدلالات ما يحيط بكليات كل الأشياء في هذا الكون . . وهذا نتيجة كون صائغها سبحانه وتعالى محيطا بكليات كل شيء في هذا الكون ، ونزلها من عنده إلى عالمنا دون أي تحويل أو تغيير . . .

وبالتالى فالكلمة القرآنية هي ذات المعنى الحق للشيء الذي تسميه هذه الكلمة . .

وفي المسألة الكاملة التالية دليل على ذلك . . حيث يتقاطع النصان المكونان لها عند هذه الحقيقة . . .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا

عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (سورة البقرة ٣١ - ٣٣) = ١٢٣٤ .

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة النحل ٨٩)= ٧٠٤ ، ١٢٣٤ + ٧٠٤ = ١٩٣٨ = ١٩ × ١٠٢ .

فالله تعالى علم آدم الأسماء كلها.. وحينما يقول الله تعالى: ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فهذا يعني: ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.. والقرآن الكريم نزله الله تعالى تبيانا لكل شيء.

وبالتالى تبيانا للأسماء كلها التي علمها لآدم عليه السلام قبل هبوطه إلى الأرض..

من هنا نستنج أن الأسماء كلها المعنية محتواه في دلالات الكلمات القرآنية، فكليات الأشياء في هذا الكون يحملها القرآن الكريم كما يؤكد منزله جل وعلا، وقد تأكدت هذه الحقيقة رياضيا ومنطقيا فقد رأينا كيف أن بناء المعنى والدلالات للنص القرآني يتعلق تماما مع البناء العددي ويتوازن معه. (يراجع في ذلك كتاب المعجزة الكبرى للمفكر الإسلامي عدنان الرفاعي).

ولما كان الحرف اللبنة الأولى في البناء العددي الذي رأيناه في تناولنا وتوظيفيا لنظرية (إحدى الكبر) للعالم والمفكر الإسلامي عدنان الرفاعي. فهذا يقتضي أنه اللبنة الأولى في بناء المعنى والدلالات.. فالوحدة الأولى للمعنى في القرآن الكريم هي الحرف وليس الكلمة.. وهذا ما لا نجده في

أي لغة وضعية ، بما في ذلك مفردات اللغه العربية غير القرآنية . .

إذا . تحمل الكلمة القرآنية معنى هو في النهاية مجموع معاني الحروف المكونة لها ، مع الأخذ بعين الاعتبار ترتيب الحروف في هذه الكلمة ، والجذر اللغوي الذي تفرعت عنه . .

فحينما يقول الله تعالى ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (سورة القلم ١) .

فإن حرف النون النوراني:

(ن) يحمل معنى مستقلاً بذاته ، وهو ذاته المعنى الذي يحمله حرف النون في كلمة ﴿يَسْطُرُونَ﴾ ، ولكن حرف النون في كلمة ﴿يَسْطُرُونَ﴾ يدخل مع غيره من حروف هذه الكلمة في تكوين معناها . . . وكذلك الأمر حينما يقول الله تعالى . .

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْـمَجِيدِ﴾ (سورة ق ١) . . فإن حرف القاف النوراني (ق) يحمل معنى مستقلا بذاته ، وهو ذاته المعني الذي يحمله حرف القاف في كلمة (والقرآن) ، ولكن حرف القاف في كلمة (والقرآن) يدخل مع غيره من حروف هذه الكلمة في تكوين معناها . . وكذلك كل الحروف القرآنية في بدأيات بعض سور القرآن الكريم . .

وبامكاننا أن نستنبط هذه الحقيقة من الحروف القرآنية ذاتها ، فهي حروف مقطعة تقرأ بشكل مقطع . . ومنها ما أتي بآيات مستقلة ، ومنها ما يكون مسألة كاملة دون الحروف غير القرآنية التالية لها ، فقد رأينا أن الحروف القرآنية في سورة مريم تكون لوحدها مسألة كاملة في معيار معجزة (إحدى الكبر) . ﴿كهيعص﴾ (سورة مريم ١) = ٥٧ = ١٩ × ٣ .

ورأينا أن مجموع القيم العددية لهذه الحروف النورانية ، مع حذف المكرر ، تكون مسألة كاملة قيمتها العددية تساوي جداء أساس معجزة (إحدى الكبر)

في نفسه: ﴿آلم﴾ = ٧، ، ﴿المص﴾ = ٢٩، ، ﴿الر﴾ = ١١، ، ﴿آلمر﴾ = ١٥، ، ﴿كهيعص﴾= ٥٧ = ١٩ × ٣، ، ﴿طه﴾ = ٣٣، ، ﴿طسم﴾ = ٤٥، ، ﴿طس﴾ = ٤١، ، ﴿يس﴾ = ٢١، ، ﴿ص﴾ = ٢٢، ، ﴿حم﴾ = ٢٢، ، ﴿عسق﴾ = ٤١، ، ﴿ق﴾ = ١٤.

﴿ن﴾ = ٣، ٧ +٢٩ +١١ + ١٥ + ٥٧ + ٣٣ +٤٥ + ٤١ + ٢١ + ٢٢ + ٢٢ + ٤١ + ١٤ + ٣ = ٣٦١، ٣٦١ = ١٩ × ١٩.

ومن هنا نرى أن كل ما في القرآن الكريم من عند الله تعالى..

فكلماته فطرية موحاة من الله تعالى علمها الله تعالى لآدم عليه السلام، قبل هبوطه إلى الأرض...

وهبط بها إلى الأرض، حيث حافظت على هذه الكلمات أمة أمية إلى أن نزل القرآن الكريم مصوغا في هذة المفردات.

ونرى أيضا أن صياغته من عند الله تعالى، كونه قول الله تعالى.. وأنه نزل كما هو تما ما دون أى تحول وتغير؛ كونه تنزيلا من عند الله تعالى... فلا يمكن لعاقل أن يتصور أن الله تعالى يفرغ معانيه المطلقة التي تحمل تبيانا لكل شيء، في قوالب لغوية من صنع البشر سعتها لا تتجاوز علم هؤلاء البشر.

وإذا قلنا أن المفردات القرآنية ليست وضعية من صنع البشر.. وبالتالى ليست من صنع قوم العرب الذين تكلموا بهذه المفردات قبل نزول القرآن الكريم..... فكيف نوفق بين هذا القول، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة يوسف ٢)..

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف ٣).

أليس قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يعني قرآنا بلغة قوم العرب؟..

محور الإجابة على هذا التساؤل يكمن في إدراك دلالات الجذر اللغوي (ع، ر، ب) في القرآن الكريم... ولإدراك دلالات هذا الجذر اللغوي، لابد من الوقوف عند دلالات جميع مشتقاته في كتاب الله تعالى..

إن دلالات الكلمات القرآنية المتفرعة عن هذا الجذر اللغوي في كتاب الله تعالى، تدور داخل إطار من المعنى هو: الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص..

ولذلك نرى - في كتاب الله تعالى - أن صفة العرب لم تتعلق بالبشر أبدا، وإنما تأتي متعلقة بكتاب الله تعالى، وباللاتي سينشئهن الله تعالى في الآخرة، وبآلية اللغة وأسلوب المخاطبة وطريقة التبيان، أي اللسان. وما تعلق بالبشر، هو صفة الأعراب، وليس العرب..

فكلمة ﴿عُرُبًا﴾ في قوله تعالى.. ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (سورة الواقعة ٣٥ - ٣٧).

تعنى كاملات، تامات، خاليات من أي عيب أو نقص.. ولا يمكن لعاقل أن يتصورها بمعنى انتماءهن إلى قوم العرب، من سورية، أو من مصر أو من المغرب، على سبيل المثال......

وكلمة ﴿عَرَبِيًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (سورة الرعد ٣٧)..

لا يمكن أن تصف الحكم الذي أنزله الله تعالى بأنه لقوم العرب.. فالحكم الذي أنزله الله تعالى كامل تام خال من أي عيب أو نقص..

وإلا لماذا يصلي الأتراك، ولماذا يصوم أهل إيران، ولماذا يحج أهل الباكستان..

في هذا الإطار من المعنى تدرك دلالات كلمة ﴿عربيًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة يوسف ٢).

فالقرآن أنزله الله تعالى كاملا تاما خاليا من أي عيب أو نقص، لعل الناس جميعا يعقلونه.. فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة خطاب للبشرية جمعاء، وليس خاصا بقوم العرب.. وفي ذات الإطار من المعنى ندرك دلالات **قوله تعالى:** ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف ٣).

وكلمة ﴿لِسَانَ﴾ في كتاب الله تعالى، تعنى أسلوب المخاطبة، ووسيلة التبيان.. **يقول تعالى**..

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (سورة مريم ٥٠).

وبالتالى فأسلوب إنذار الرسول ﷺ نتيجة نزول جبريل عليه السلام بالقرآن الكريم على قلبه، ووسيلة تبيانه ﷺ كامل تام خال من أي عيب أو نقص...

هذا ما ندركه من دلالات كلمة (عربي) **في قوله تعالى:** ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (سورة الشعراء ١٩٣ - ١٩٥).

أما كلمة الأعراب فهي مشتقة من الفعل (أعرب).. ولذلك فهمزة التعدي هذه نقلت المعنى إلى النقيض.. فالأعراب يتظاهرون بالكمال والتمام والخلو من العيب والنقص، مع إنهم نقيض ذلك

ومسألة نقل هذه الهمزة للمعنى إلى النقيض واردة في كتاب الله تعالى.. ففي الجذر اللغوي.

(ق ، س ، ط) نرى إنه في الانتقال من الفعل (قسط) إلى الفعل (أقسط) ننتقل من المعنى إلى نقيضه . . فالقاسطون الذين هم لجهنم حطبا ، نقيض المقسطين الذين يحبهم الله تعالى . .

وكنا قد رأينا أن الإطار العام لما تصفه كلمة الأعراب يدور حول الكفر والنفاق . . يقول تعالى . .

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ (سورة التوبة ٩٧) .

ولذلك نستشف من هذه العبارة القرآنية ثلاث صفات متلازمة هي: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ ، ﴿الكُفْر﴾ ، ﴿النِفَاق﴾ .

ونرى أن هذا التلازم ينعكس في توزان القيم العددية بين الكلمات الحاملة لها في كتاب الله تعالى .

﴿الْأَعْرَابُ﴾ = ﴿الكُفْرَ﴾ = ﴿النِفَاقَ﴾ = ٣٤ .

أما القول بأن كلمة الأعراب – في كتاب الله تعالى – تعنى سكان البادية ، فهذا يتعارض مع روح القرآن الكريم ، الذي يصف البشر بالكفر والنفاق بناء على حقيقة انتماءاتهم العقيدية ، وليس بناء على انتماءاتهم الجغرافية والإقليمية . .

ولو كانت كلمة الأعراب لا تعني إلا البدو ، لاستبدلت في كتاب الله تعالى بكلمة البدو . . فكلمة البدو كلمة قرآنية .

يقول تعالى واصفا قول يوسف عليه السلام . . ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ (سورة يوسف ١٠٠) .

ففي القرآن الكريم لا توجد كلمة قرآنية مرادفة لأخرى بالمعنى الذي يتصوره بعض البشر .

وصفة العربي التي يوصف القرآن الكريم بها، نقيض صفة ﴿أَعْجَمِيّ﴾ التي تعنى الإبهام، وعدم الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص.. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (سورة فصلت ٤٤). برهان على ذلك.

فلو كانت كلمة ﴿أَعْجَمِيّ﴾ في هذه الآية الكريمة، لا تعني إلا اللغات الأخرى غير اللغة القومية عند العرب، وأن الله تعالى جعل هذا القرآن بلغه قوم العرب حتى لا يحتج قوم العرب.

لو كان ذلك صحيحا، لكان من حق غير العرب أن يحتجوا على نزول القرآن الكريم بلغة أخرى غير لغتهم، ولكان القرآن الكريم أعجميا بالنسبة لهم.. وكل ذلك محال. فكلمة: ﴿أَعْجَمِيّ﴾ تشير إلى الوجه النقيض لما تعنيه كلمة عربي، وذلك في وصف كتاب الله تعالى، كما أن كلمة ﴿الْأَعْرَابُ﴾ تشير إلى صفات البشر الذين يتظاهرون بصفات الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص، مع أنهم نقيض ذلك.

وهكذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (سورة فصلت ٤٤)، هو: ولو جعلناه قرآنا مبهما يحوي العيب والنقص، لرأوا فيه عيبا ونقصا، ولحسبوا فيه كمالا وتماما حسب ما يوافق أهواءهم، وبالتالى لقالوا: أعيب ونقص، وكمال وتمام.. أي لقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

إذا القرآن الكريم وصف بالعربي لأنه كامل تام خال من أي عيب أو نقص.. أما القول بإنه وصف بذلك؛ لأنه مصوغ بمفردات من لغة قوم العرب، فهو صحيح من جهة أن مفرداته اللغوية الكاملة التامة الخالية من أي عيب أو نقص، والتي علمها الله تعالى لآدم عليه السلام، وهبط بها إلى

الأرض، محتواه داخل مجموع المفردات التي يتكلم بها قوم العرب .

وسنقف عند جميع الصور القرآنية التي وصف بها كتاب الله تعالى بالعربي، لنرى كيف أنها تتكامل في كل جانب من جوانب كمال كتاب الله تعالى .

وحي القرآن الكريم، كامل تام خال من أي عيب أو نقص . . ولذلك فالقرآن الموحي من الله تعالى يوصف بالعربي .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (سورة الشورى ٧)= ٦٢٧ = ١٩ × ٣٣ .

[٢] - إنزال القرآن الكريم نصا وحكما، كامل تام خال من أي عيب أو نقص . . ولذلك فالقرآن الكريم المنزل نصا وحكما يوصف بالعربي .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة يوسف ٢)= ١٨٥ .

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (سورة الرعد ٣٧)= ١٥٣ .

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (سورة طه ١١٣)= ٤٦٠ ، ١٨٥ + ١٥٣ + ٤٦٠ = ٧٩٨ = ١٩ × ٤٢ .

[٣] - إليه تبيان القرآن الكريم ﴿اللِّسَانَ﴾ كونه عربيا، وليس أعجميا، بمعنى وليس مبهما، وتفصيل آياته قرآنا غير ذي عوج يضرب الله تعالى فيه من كل مثل . . كل ذلك كامل تام خال من أي عيب أو نقص . . ولذلك يوصف بالعربي . .

﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة النحل ١٠٣)= ١٠٨ .

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ

(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (سورة الشعراء ١٩٣ - ١٩٥) = ٣١٥ .

﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (سورة الزمر ٢٧ - ٢٨)= ٥٤٣ .

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة فصلت ٣)= ٢٢٣ .

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (سورة فصلت ٤٤)= ٣١٦ .

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الأحقاف ١٢) = ٣٧٦ ، ١٠٨ + ٣١٥ + ٥٤٣ + ٢٢٣ + ٣١٦ + = ٣٧٦ = ١٨٨١ = ١٩ × ٩٩ .

[٤] - جعل القرآن الكريم بمعنى وصفة وتسميته على حقيقته كما هو دون أى إرتسام بمادة عالمنا هووصف تنزيله فقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف ٣) .

يبين جانب تنزيل القرآن الكريم ، من الفعل نزل .

لذلك نرى أن العبارة القرآنية فيه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ، تتوازن مع آية قرانية تبين جانب التنزيل لكتاب الله تعالى .

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء ١٩٢)= ١١١ .

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (سورة الزخرف ٣)= ١١١ .

وقد رأينا كيف أن جعل القرآن الكريم عربيا لعل البشر يعقلون ، يتوازن مع تنزيل الذكر وحفظه ومع الروح ، حيث يتصف القرآن الكريم بصفة الروح .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر ٩)= ١٨٨ .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (سورة الإسراء ٨٥)= ١٨٨ .

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف ٣)= ١٨٨ .

وكل عبارة من هذه العبارات القرآنية، التي تصور جوانب تنزيل القرآن الكريم، تتكامل مع عبارة قرآنية تبين أن هذا التنزيل هو تبيان لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين . .

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة النحل ٨٩)= ٣٢٥ .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر ٩)= ١٨٨

٣٢٥ + ١٨٨ = ٥١٣ = ١٩ × ٢٧ .

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة النحل ٨٩)= ٣٢٥ .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (سورة الإسراء ٨٥)= ١٨٨ ٣٢٥ + ١٨٨ = ٥١٣ = ١٩ × ٢٧ .

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة النحل ٨٩) = ٣٢٥ .

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف ٣)= ١٨٨ ، ٣٢٥ + ١٨٨ = ٥١٣ = ١٩ × ٢٧ .

وتنزيل القرآن الكريم هو – كما قلنا – بمعنى عدم تغيير ماهيته ما بين الساحة المنزل منها، وبين الساحة المنزل إليها . . فالمفردات القرآنية التي صاغ

الله تعالى بها القرآن الكريم ، هي ذاتها المفردات التي علم بها آدم عليه السلام الأسماء كلها .

وهكذا فالقرآن المنزل من الله تعالى ، والذي جعله الله تعالى قرآنا عربيا ، والذي نزل به الروح الأمين عليه السلام على قلب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لينذر بتبيان كامل تام خالٍ من أي عيب أو نقص ، تمت صياغته من ذات الأسماء التي علمها الله تعالى لأبي البشرية جمعاء ، آدم عليه السلام . . وبالتالى فالمفردات القرآنية هي ذاتها المفردات الأولي التي نطق بها أبو البشريه جمعاء . . . . . . هذه الحقيقة نراها في المسألة الكاملة التالية . .

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (سورة البقرة ٣١)= ٨٩ .

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (سورة الشعراء ٩٢ - ٩٥) = ٤٢٦ .

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف ٣)= ١٨٨ .

٨٩ + ٤٢٦ + ١٨٨ = ٧٠٣ = ١٩ × ٣٧ .

إن نزول الروح الأمين عليه السلام بالقرآن المصوغ من مفردات الأسماء التي علمها الله تعالى لآدم عليه السلام ، على قلب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هو فضل الله تعالى العظيم على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإنزال الله تعالى الكتاب والحكمة عليه وبتعليمه ما لم يكن يعلم . . . . . هذه الحقيقة نراها في توازن القيم العددية بين المسألتين المتوزانتين التاليتين . .

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (سورة البقرة ٣١)= ٨٩ .

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (سورة الشعراء ١٩٣ - ١٩٥) = ٣١٥ . ٨٩ + ٣١٥ =

. ٤٠٤

﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (سورة النساء ١١٣) = ٤٠٤ .

ودلالات العبارة القرآنية . . ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ التي تلقي الضوء على جوهر إنزال الكتاب والحكمة على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تتكامل مع تتريل الكتاب تبيانا لكل شيء ، كونه مصوغا من مفردات فطرية هي ذاتها التي علمها الله تعالى لآدم عليه السلام . .

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (سورة البقرة ٣١)= ٨٩ .

﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (سورة النساء ١١٣) = ١٥٧ .

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ = ١٧٢ ، ٨٩ + ١٥٧ + ١٧٢ = ٤١٨ = ١٩ × ٢٢ .

للتوفيق بين هذا القول ، وبين قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم ٤)؟

نقول أن سنة الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتحول أن يرسل الله تعالى كل رسول بلسان قومه ليبين لهم منهج الله تعالى على أكمل وجه . . وقد بين الله تعالى هذه السنة في المسألة الكاملة التالية . .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة إبراهيم ٤) = ٤٧٥ = ١٩ × ٢٥

ففي الرسالات السابقة نرى أن لغة كل رسول ، وأسلوبه ، وآلية تبيانه ، لا تخرج عما اعتاد عليه قومه ، وعن لغاتهم الوضعية ، كون تلك

الرسالات، لأزمنة وأمكنة محددة.

وفي الرسالة الخاتمة لم تتغير سنة الله تعالى هذه أبدا.. ولكن الذي تغير أن هذه الرسالة أصبحت لجميع الناس في كل زمان ومكان.. فكون رسول الرسالة الخاتمة أرسله الله تعالى للناس دون استثناء.. يوازي كون كتاب الرسالة الخاتمة بيانا للناس دون استثناء..

هذا التوازن بين هاتين المسألتين، نراه توازنا في القيم العددية بين النصين القرآنيين التاليين..

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة آل عمران ١٣٨)= ١٩٩.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ (سورة النساء ٧٩)= ١٩٩.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ = ٦٧.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾ = ٦٧.

إذا بعث رسول الرسالة الخاتمة بلسان الناس (دون استثناء)، ليبين لهم دون استثناء ولذلك نرى أن كلا من العبارتين القرآنيتين السابقتين، تتكامل مع العبارة القرآنية المصورة لجوهر سنه الله تعالى، في بعث رسله بلسان المبعوث إليهم..

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم ٤) = ١٨٠.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ (سورة آل عمران ١٣٨)= ٦٧. ١٨٠ + ٦٧ = ٢٤٧ = ١٩ × ١٣.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم ٤)

=١٨٠ .

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾ (سورة النساء ٧٩) = ٦٧ ، ١٨٠+٦٧=٢٤٧ = ١٩*١٣ .

وهكذا فاللسان الأمثل الذي يتقاطع عنده كل الناس على مختلف قومياتهم ولغاتهم، هو اللغة الفطرية التي علمها الله تعالى لأبي الناس جميعا، آدم عليه السلام، وهي اللغة الأولى للبشرية.. وهي المفردات القرآنية كما قلنا سابقا.

فلا يمكن أن تتحقق سنه الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم ٤).

في الرسالة الخاتمة التي أنزلها الله تعالى لكل الناس ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾، وببيان لكل الناس ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾..

إلا إذا كانت لغة كتابها (القرآن الكريم)، ليست من وضع الناس، ويلتقي عندها كل الناس، وتكلمها أبو الناس، آدم عليه السلام..

وهذه الرسالة الخاتمة التي أرادها الله تعالى لكل الناس إلى قيام الساعة، حيث تدرجت الرسالات السماوية - كما رأينا - للوصول إليها، أخذ الله تعالى ميثاق النبيين وميثاق الذين أوتوا الكتاب - حيث يبلغ النبيون أممهم - بأن يؤمنوا بها حين نزولها، وأن ينصروا رسولها، وأن يبينوها للناس..

لذلك نرى أن العبارات القرآنية المصورة لخطاب الله تعالى المباشر لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإرساله إلى الناس والعالمين، بكلمة ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، تتكامل مع العبارات القرآنية المصورة لأخذ الله تعالى ميثاق النبيين وميثاق الذين أوتوا الكتاب، في نصرة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإيمان به، وتبين منهج الله تعالى وعدم كتمانه..

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٧٩) = ١٩٩ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء ١٠٧)= ١٢١ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة سبأ ٢٨) = ٣١٣ .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (سورة آل عمران ٨١) = ١٠١٨ .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (سورة آل عمران ١٨٧) = ٦٨٦ . ١٩٩+ ١٢١ + ٣١٣+ ١٠١٨ + ٦٨٦ = ٢٣٣٧ = ١٩ × ١٢٣ .

وفي الآية الكريمة المصورة لأخذ ميثاق النبيين نص يصور جوهر هذا الميثاق بتبليغ النبيين لأممهم من أجل نصرة رسول الرسالة الخاتمة ، والإيمان به ، وجوهر إقرارهم بهذا ، وذلك حين مجيء رسول الرسالة الخاتمة . . . وكنا قد رأينا سابقا أن اسم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرسالات السابقة هو (أحمد) . . . لذلك نرى أن القيمة العددية لهذا النص تساوي تسعة عشر ضعفا القيمة العددية لكلمة (أحمد) .

﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (سورة آل عمران ٨١) = ٧٤١ = ١٩ × ٣٩ . (أحمد) = ٣٩ .

وهنا يثور التساؤل عن سبب إعراض الكثيرين عن منهج الله تعالى

الذي أراده للبشرية جمعاء .

فهل تكمن المشكلة في تقصير المسلمين بإبلاغ هذا المنهج ، وبعدم تدبره وإستنباط معجزاته في كل زمان ومكان .

أم تكن في إعراض بقية الناس عن هذا المنهج ؟

وقد نرى المشكلة تكمن أولا في تقصير المسلمين خلال التاريخ ، من خلال عدم تدبر القرآن الكريم تدبرا كافيا ، موازيا لتطور البشرية الحضاري . .

وتكمن ثانيا في إعراض الآخرين . .

فمهمة تدبر آيات كتاب الله تعالى ، لاستنباط أحكامه ومعجزاته في كل زمان ومكان ، من أجل تطبيق هذه الأحكام ، وإبلاغ الآخرين بالمنهج من خلال عرض معجزات كتاب الله تعالى عليهم .

هذه المهمة الكبيرة ، تقع على مسؤولية المسلمين عامة ، وعلي مسؤولية العرب المسلمين خاصة ، كونهم يدركون - أكثر من غيرهم - لغة كتاب الله تعالى .

فدفع التاريخ ورواياته إلى داخل إطار المقدس الديني ، دون معايرة حقيقية على دلالات كتاب الله تعالى ، هو- في الحقيقة - دفع لمستقبل إبلاغ منهج الله تعالى إلى مذبح فكري ، وسير بمستقبل هذا الدين فوق حقل من الإلغام ، يمتد إلى قيام الساعة

فأي رواية تاريخية تقدم على أنها من المقدس ، وتثبت معارضتها لدلالات كتاب الله تعالى ، وللحقائق العلمية ، هي لغم يساهم في تدمير مصداقية منهج الله تعالى عند المسلمين وغيرهم على حد سواء .

إن درجة التقصير في التدبر الحقيقي لكتاب الله تعالى، في أي عصر من العصور، هي ذاتها درجة التخلف الفكري تجاه إدراك الفكر الحق الذي يحمله القرآن الكريم لذلك العصر، وهي ذاتها درجة القوة الدافعة لفكر الأمة باتجاه الماضي، والمراوحة في المكان واجترار فكر الماضي، والعيش في الدلالات التي إدركها السابقون من كتاب الله تعالى، دون الدلالات التي يحملها القرآن الكريم للعصر الذي تعيشه الأمة.

فمن لا ينظر إلى آيات كتاب الله تعالى ودلالاته، إلا من منظار إدراك السابقين لها، إنما يجحد حقيقة هذه الآيات، وتستيقن نفسه هذا الجحود ظلما وعلوا، ويتماثل في ذلك مع فرعون وقومه في الإعراض عن آيات الله تعالى.

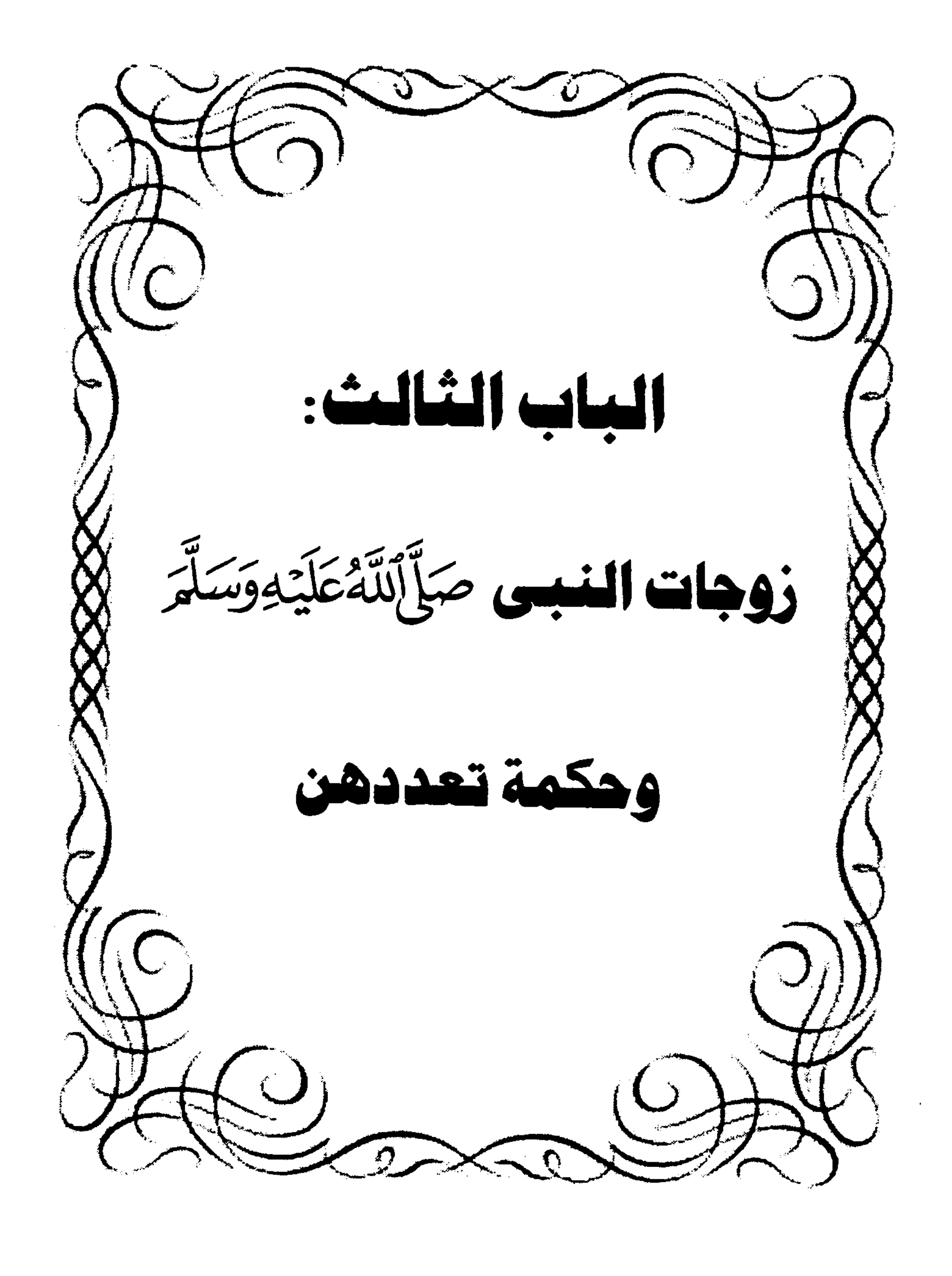
والخروج من ساحة الالتزام بمنهج الله تعالى إلى ساحة الفساد.. يقول تعالى في وصف ذلك.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة النمل ١٤) = ٤٥٦ = ١٩ × ٢٤.

إذا مع الزمن، أن لم يتم التدبر الحقيقي لدلالات كتاب الله تعالى، فستزداد المسافة الفاصلة بين الفكر الذي تحمله الأمة في أي عصر، وبين الفكر الذي يحمله القرآن الكريم لذلك العصر.

وكلما مر الزمن تزداد هذه المسافة الفاصلة.

*****



الباب الثالث:

زوجات النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وحكمة تعددهن

الفصل الأول:
زوجات النبى

قال الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سورة الفتح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (سورة الفتح ٨ - ٩) .

وفى توقير النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورعاية جنابه وتبجيله وتعظيمه توقير آله وذريته وأزواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلكه السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم.. فآل بيت النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها فقد جعل الله جل وعلا لهم حقا في الخمس والفيء..

قال عز وجل في سورة الأنفال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الأنفال ٤١) .

وقال جل وعلا في سورة الحشر: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (سورة الحشر ٧) .

وأمر سبحانه وتعالى بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففى الحديث عن كعب بن عجرة رضى الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قولوا: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على**

محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد» أخرج البخارى (٣٣٧٠) ومسلم (٤٠٦ / ٦٦).

فالصلاة على آل محمد حق لهم عند المسلمين وذلك سبب لرحمة الله تعالى بهذا النسب كما تجب محبتهم لحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم، ولأن محبتهم من محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن نتولاهم ونحفظ فيهم وصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال في يوم غدير خم: **«وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل، بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى»** جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٤٠٨ / ٣٦).

قال ابن كثير: (ولا تنكر الوصاة بأهله والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على ظهر الأرض فخرا وحسبا ونسبا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه والإمام على وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين).

وقال ابن تيمية ولا ريب أن لآل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقا على الأمة لا يشركهم فيه غيرهم، ويستحقون من زيادة المحبة والموالاة ما لا يستحقه سائر بطون قريش، كما أن قريشا يستحقون من المحبة والموالاة ما لايستحقه غير قريش من القبائل، كما أن جنس العرب يستحق من المحبة والموالاة ما لايستحقه سائر أجناس بنى آدم، هذا على مذهب الجمهور الذين يرون فضل العرب على غيرهم، وفضل قريش على سائر العرب وفضل بنى هاشم على سائر قريش وهذا هو المنصوص عن الأئمة كأحمد وغيره.

والنصوص دلت على هذا القول كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من**

قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم» أخرجه مسلم ٢٢٧٦/ ١ .

وكقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»** (أخرجه مسلم ٢٦٣٨/ ١٦٠) .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال: (ارقبوا محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل بيته) أخرجه البخارى ٣٧١٣

أما زوجات النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رضوان الله تعالى عليهم فيجب علينا أن نحفظ حقهن في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام والمكانة التى جعل الله لهن لقد رفع الله مقامهم ، وبوأهن أعلى منزلة عند جميع المؤمنين ، وهى منزلة الأمومة ، فجعلهن أمهات في التحريم والاحترام فقد قال تبارك وتعالى في سورة الأحزاب. **﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾** (سورة الأحزاب ٦) .

قال القرطبى: (شرف الله تعالى أزواج نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن جعلهم أمهات المؤمنين أى في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال وحجبهن رضى الله تعالى عنهم بخلاف الأمهات) تفسير القرطبى ١٢٣/١٤ .

وقال ابن كثير: وقوله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) أى: في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع .

وكيف لا تكون لهن هذه المنزلة وتلك المكانة وهن اللاتى اخترن الله ورسوله والدار الآخرة عندما نزلت آيتا التمييز .

قال جل وعلا في سورة الأحزاب: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ**

كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْـحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْـمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب ٨ - ٢٩) .

وبعد اختيارهن رضى الله عنهن الله تعالى ورسوله والدار الآخرة كرمهم الله تبارك وتعالى وكافأهن على اختيارهن أحسن تكريم وأعظم مكافأة فكان لهن ما أعد الله لهن من الأجر العظيم ، ثم ميزهن عن نساء العالمين في العذاب والأجر فقال عز وجل: **﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾** (سورة الأحزاب ٣٢) .

يعنى في الفضل والشرف وذلك لما منحهن من صحبة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعظيم المحل منه ونزول القرآن في حقهن .

عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها قالت: (لما أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتخيير أزواجه بدأ بى فقال: «**إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلى حتى تستأمرى أبويك**» قالت: ثم قال: أن الله جل ثناؤه قال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْـحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** (سورة الأحزاب ٢٨- ٢٩) .

قالت ، فقلت: أفى هذا استأمر أبوى ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة قالت: ثم فعل أزواج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل ما فعلت. أخرجه البخارى (٤٧٨٥) ومسلم (١٤٧٥/ ٢٢) .

ولقد تضمنت سورة الأحزاب كثيرا من الأمور التى أكرم الله تعالى بها أزواج النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجازاة لهن على حسن صنيعهن في اختيارهم لله ورسوله والدار الآخرة .

فمن حقهن علينا أن نحفظ لهن هذه المكانة ، وأن نثنى عليهم بما ورد من فضائلهن وما كان لهن من دور في مؤازرة النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصرته وما كان لهن من دور بعد وفاته من حفظ مسائل الدين ونشرها بين الأمة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يتولون أزواج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمهات المؤمنين والمؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة) ، فمن الواجب أن ننشر هذه الفضائل ونعلمها وبخاصة لنسائنا حتى يكون لهن في ذلك الأسوة والقدوة .

قال جل وعلا: ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (سورة الأحزاب ٣١) .

وفى ذلك قال ابن كثير: (أى في الجنة فإنهن في منازل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش) .

وقال عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب ٣١) .

وفى ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما: (يريد ليس قدركن عندى مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن اكرم على . وثوابكن أعظم لدي) .

وقال أبو بكر بن العربى (يعنى في الفضل والشرف) .

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (سورة الأحزاب ٣٤) .

وفى ذلك قال ابن جرير الطبرى: (إن الله كان ذا لطف بكن إذ

جعلكن في البيوت التى تتلى فيها آياته والحكمة وهى السنة خبيرا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا) .

وقال ابن كثير: (أى بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة وبخبرته بكن وإنكن أهل لذلك أعطاكن ذلك وخصكن بذلك) .

ويؤخذ من كلام الفقهاء أنهم يريدون ب (أمهات المؤمنين) كل امرأة عقد عليها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخل بها .

كما جاء قوله تعالى في سورة الأحزاب وأزواجه أمهاتهم .

والنساء اللاتى عقد عليهن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخل بهن وهن أمهات المؤمنين اثنتا عشرة زوجة هن على ترتيب دخوله بهن كما يلي:

١- خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها.

٢- سودة بنت زمعة رضى الله تعالى عنها.

٣- عائشة بنت أبي بكر رضى الله تعالى عنها.

٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية رضى الله تعالى عنها.

٥- زينب بنت خزيمة الهلالية رضى الله تعالى عنها.

٦- أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية رضى الله تعالى عنها.

٧- زينب بنت جحش الأسدية رضى الله تعالى عنها.

٨- جويرية بنت الحارث الخزاعية رضى الله تعالى عنها.

٩- ريحانة بنت زيد بنت عمرو القرظية رضى الله تعالى عنها.

١٠-أم حبيبة واسمها رملة بنت أبي سفيان الأموية رضى الله تعالى عنها.

١١-صفية بنت حيى بن أخطب النضيرية رضى الله تعالى عنها.

١٢-ميمونة بنت الحارث رضى الله تعالى عنها.

وتوفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تسع منهن وهن أمهات المؤمنين: سودة ، وعائشة وحفصة وأم سلمة وزينت بنت جحش وأم حبيبة وجويرية وصفية وميمونة . .

ولم تكن واحدة من أمهات المؤمنين رقيقة ، بل كن كلهن حرائر بل ذكر المالكية والشافعية أنه يحرم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتزوج بأمة ولو كانت مسلمة ؛ لأن نكاحها يكون لعدم الطول (القدرة على زواج الحرة) وخوف العنت . (الزنى) وهو غنى عن الأول ابتداء وانتهاء ؛ لأن له أن يتزوج بغير مهر وعن الثانى للعصمة التى عصمه الله سبحانه وتعالى بها .

ونهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أن يتزوج من وجبت عليها الهجرة فلم تهاجر ولو كانت مؤمنة مسلمة لقوله تعالى في سورة الأحزاب .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ (سورة الأحزاب ٥٠) .

وهو ما منع زواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأم هانى بعد أن خطبها بعد أن أنزل الله تعالى هذه الآية إذ لم تهاجر معه وكانت من الطلقاء . . إلا أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأن يجوز له التزوج من نساء الأنصار ، ومن غير المهاجرات فالمقصود بالنهى فقط في هذه الآيات ، من وجبت عليها الهجرة ولم تهاجر وقد تزوج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير المهاجرات صفية وجويرية ، لأن تخصيص الشىء بالذكر لا ينفى ما عداه .

* * * * *

خصوصية نساء النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب ٣٢) .

بعد أن اختار نساء النبى رضوان الله عليهن الله ورسوله والدار الآخرة أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيهن المنهج ويوضح لهن المبادئ التى سيعشن عليها فقال جل وعلا: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ (سورة الأحزاب ٣٠) .

وهنا انتقل الخطاب من كلام النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه إلى كلام الله لهن مباشرة لأنهن اخترن الله ورسوله فارتفعن إلى مستوى أن يخاطبهن الله تعالى لأنهن أصبحن أهل لذلك .

هنا قدم القرآن الكريم الحديث عن الفاحشة ؛ لأن في عادته التقنين والإصلاح وأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة . . . (فلو أن هناك اثنين أحدهما رمانى بحجر والآخر ألقى إلى تفاحة في وقت واحد فهل آخذ التفاحة أم الحجر؟ بالطبع أتقى الحجر ؛ لأن المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

فكان لابد أن يأتى المنهج أو الكلام عما يلوث ويدنس حتى نترفع عنه ، فمثلا الثوب المتسخ ، هل ينفع أن تكويه قبل أن تغسله ؟ لا بل لابد أن تغسله وتنظفه أولا ثم تكويه بعد ذلك .

فكان الله جل وعلا يقول: يا نساء النبى إياكن أن يدور بخلدكن أنكن مجرد زوجات للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنكن أخذتن هذه المنزلة وانتهى الأمر . . لا . . بل لابد أن تتقين الله وتكن قدوة لغيركن . . ولأنهن قدوة

يحذرهن من مضاعفة العذاب لأن لو فعلت إحداهن سيئة فإن فعلتها وهي فساد في ذاتها وإفساد لأنها أصبحت قدوة في بيت نبى - كذلك إن فعلت حسنة تأخذ أجرها مرتين . . لماذا؟ لأنها فعلت صالحا في ذاتها مثل غيرها ولأنها صارت أسوة حسنة لغيرها .

فهنا الله تبارك وتعالى في القرآن يخاطب نساء النبى مبينا خصوصيتهن فغيرهن لسن مثلهن لأنهن أسوة لكل ما عداهن من المؤمنات ، ولذلك ضاعف لهن ثواب الطاعات كما ضاعف عقاب المعصية .

وقوله عز وجل: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ .

أى: إن اضطررتن للتكلم مع رجال ، فتكلمن بصوت لا ليونة فيه ولا تكسر ولا ميوعة ، لأنكن عرضة للكلام مع بعض ضعاف الإيمان ، أو من في قلوبهم مرض ، فلا تعطوا لهم هذه الفرصة ، وهذا ليس معناه الكلام مع الناس بغلظة أو بخشونة ، ولكن المطلوب منكن **كما قال تبارك وتعالى:** **﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾** (سورة الأحزاب ٣٢) .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: (فلما أمرهن بالتقوى التى من شأنها التواضع ، ولين الكلام نهاهن عن الخضوع بالقول ، لئلا يطمع فيهن ذو المرض ثم أمرهن بعد ذلك بالقول المعروف ، رفعا لتوهم الإذن في الكلام لما نهين عن الخضوع بالقول) .

وقال رحمه الله: (أمرهن أن لا يلن في كلامهن ، كما تلين المرأة المعطية الليان في منطقها فيطمع الذى في قلبه مرض الشهوة ، ومع ذلك فلا يخضعن في القول بحيث يلتحق بالفحش بل يقلن قولا معروفا) بدائع التفسير: ٣/ ٤٢٤ - ٤٢٥ .

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ (سورة الأحزاب ٥٩) .

لأن الرجل حين يجد المرأة تستر مفاتنها ، يعرف أنها ليست ممن يعرضن جمال أجسامهن على الرجال ، فلا يتجرأ على أن يكلمها أو يغازلها ويعرف أنها ملتزمة . . فإن المرأة التى تظهر محاسنها لغير محارمها والحاحها في كشفها ، ففى رأينا أن هذا الإلحاح هو إلحاح في عرضها على غير محارمها من الرجال .

إذن قول الله جل وعلا (ذلك أدنى) أى أقرب إلى أن يعرفن بأنهن قانتات لايعرضن مفاتنهن ، فلا يتعرضن لمعاكسة أو نظرات البذىء المستهتر . . وهذا ليس طعنا في نساء النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو نساء المؤمنين معاذ الله . . ولكن من يراهن من الناس لا نضمن إيمانه أو تقواه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (سورة الأحزاب ٣٣) .

أى استقروا في البيوت لماذا ؟ لأن الزوجة لو أدت مطلوبها ورسالتها في تربية أولادها والعناية بهم وتنشئتهم النشأة السليمة السوية لما اتسع النهار كله لها . بل تجدها دائما مشغولة دائما بمصالح بيتها وأسرتها التى هى أساس المجتمع القوى السوى السليم .

ومعنى (ولا تبرجن) البرج هو الحصن وتبرج من الحصن اى: برز منه فمعنى (ولاتبرجن) هو: لا تخرجن من حصن التستر .

ومعنى (تبرج الجاهلية الأولى) هو ظهور العورة دون أن يجد الناس في ذلك غضاضة ؛ خاصة إذا كان هؤلاء النساء عبيدا أو إماء أو جوارى . . ويقصد بالجاهلية الاولى الفترة التى سبقت الإسلام ويبدو أن تسمية فترة ما قبل الإسلام في الآية الكريمة بالجاهلية الأولى يشير إلى أن هناك جاهلية ثانية بعد انتشار الإسلام تظهر فيها العورات ، وتنكشف دون أن يجد الناس في

ذلك غضاضة . . وأليس هذا ما نراه جهارا في هذا الزمن . .

ولذلك في بيعة النساء أخذ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العهد على المؤمنات بألا يزنين ولايسرقن ولايقتلن أولادهم ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصين أزواجهن في معروف .

وذهب جمهور العلماء في دخول أمهات المؤمنين في أهل بيت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبه قالت السيدة أم المؤمنين عائشة وابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة وعروة وابن عطية وابن تيمية وغيرهم .

ويستدل على ذلك بما رواه الخلال بإسناده عن ابى مليكة أن خالد بن سعيد بن العاص بعث إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها سفرة من الصدقة فردتها وقالت: «**إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة**» أخرجه البخارى (٤١٩) ومسلم ١٠٦٩ / ١٦١ .

وكان عكرمة ينادى في السوق: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ نزلت في نساء النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة .

وهذا القول هو الذى يدل عليه سياق الآية لأن ما قبلها وما بعدها خطاب لأمهات المؤمنين إذ قال جل وعلا في سورة الأحزاب: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْـجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا**﴾ (سورة الأحزاب ٣٣ - ٣٤) .

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ**﴾ (سورة الأحزاب ٣٣) .

وهذه عمدة التكاليف، ولذلك لا تجد صلاة إلا مقرونة بالزكاة.. لماذا؟ لأن الزكاة ببعض المال والمال فرع العمل والعمل فرعه الزمن والزمن تأخذه الصلاة فأنت ضحيت بكل الزمن بالسبعة وتسعين والنصف في المائة مع الاثنى ونصف في المائة التى تخرجها الزكاة.

وأيضا يفهم منها أن للمرأة المسلمة ذمة مالية مفصولة عن ذمة الغير سواء كان أبا أو زوجا بدليل أن الله تعالى أمرهن بإيتاء الزكاة ما يدل على أنهن يملكن أموالا بلغت حد النصاب، وحال عليها الحول، وهذا يدل على أن للمرأة في الإسلام ذمة مستقلة مع أن الحضارة الحديثة يكون المال فيها للأب حينما تكون البنت عنده وبعد أن تتزوج يصير المال إلى زوجها وأهم من هذا كله أن هذه الحضارة التى يتشدق بها البعض تلغى اسم أبيها بعد زواجها، وتنسبها إلى زوجها فتقطع صلتها بأبيها لكن الإسلام حافظ على كرامة المرأة واسمها وذمتها المالية فنحن عندنا عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما، فلا ننسبها إلى زوجها، وإن كان هو رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن إلى أبيها.

والمسألة ليست في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاه فحسب بل تأتى طاعة الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المقدمة لأن هناك مسائل كثيرة أيضا غير الصلاة والزكاة.

هذا ولقد كانت بيوت أمهات المؤمنين معاهد لذكر وتلاوة القرآن الكريم وحفظه وتحفيظه وشرحه لنساء المؤمنين وكذلك السنة النبوية الشريفة والأمر صريح وواضح من الله تبارك وتعالى لهن بذلك ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله وَالْحِكْمَةِ**﴾ بل لقد كان بعض كبار الصحابة والفقهاء بعد وفاة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستغيثون ويستشيرون السيدة أم المؤمنين عائشة فيما عز عليهم إدراكه من المسائل الفقهية.

لذا فإن من حق أمهات المؤمنين أن يحترمن ويعظمن ويصن عن

الأعين والألسن ، وذلك واجب على المسلمين نحوهن فإذا تطاول من لا خلاق له على تناولهن بالقذف أو السب ، ففى القذف يفرق جمهور الفقهاء بين قذف عائشة رضى الله عنها وقذف غيرها من أمهات المؤمنين فمن قذف السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها بما برأها الله منه ، فقد كفر ، وجزاؤه القتل وقد حكى القاضى أبو يعلى وغيره الإجماع على ذلك ؛ لأن من أتى شيئا من ذلك ، فقد كذب القرآن ، ومن كذب القرآن قتل ، أما من قذف واحدة من أمهات المؤمنين غير عائشة ، فقد اختلف العلماء في عقوبته .

فقال بعضهم ومنهم ابن تيمية أن حكم قذف واحدة منهن كحكم قذف عائشة رضى الله عنها اى يقتل لأن فيه عارا وغضاضة ، وأذى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل في ذلك قدح بدين رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وقال بعضهم: أن قذف واحدة من أمهات المؤمنين غير عائشة كقذف واحد من الصحابة رضى الله تعالى عنهم أو واحدا من المسلمين أى يحد القاذف حد واحدا .

لعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْـمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (سورة النور ٤) .

لأنه لا يقتضي شرفهن زيادة في حد من قذفهن ؛ لأن شرف المنزلة لا يؤثر في الحدود .

وقال بعضهم ومنهم مسروق بن الأجدع وسعيد بن جبير: من قذف أمهات المؤمنين غير عائشة يحد حدين للقذف أى يجلد مائة وستين جلدة .

أما سب واحدة من أمهات المؤمنين بغير الزنى فهو فسق وحكمه حكم سب واحد من الصحابة رضوان الله عليهم يعذر فاعله .

(الموسوعة الفقهية - أمهات المؤمنين - والعقيدة في أهل البيت بين

التفريط والافراط) ولاخلاف بين أهل السير والعلم بالأثر أن أزواجه عليه الصلاة والسلام اللاتى دخل بهن اثنتى عشرة امرأة: ست من قريش وأربع عربيات وواحدة من بنى إسرائيل من سبط النبى هارون بن عمران، وهى أم المؤمنين صفية بنت حيى بن أخطب وآخر زوجاته من أمهات المؤمنين هى ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية رضى الله تعالى عنها .

وكونهن أمهات المؤمنين انما هو تحريم نكاحهن ووجوب احترامهن كما تقدم ذكره ولايقال بناتهن أخوات المؤمنين ولا آباؤهن ولا أمهاتهن أجداد وجدات المؤمنين ولا أخواتهن وأخواتهن أخوال وخالات المؤمنين .

قال البغوى: (هن أمهات المؤمنين من الرجال دون النساء): روى ذلك عن عائشة رضى الله تعالى عنها إنها قالت عن قضية أنا أم رجالكم لا أم نسائكم) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٦/ ٥٦٧ .

وهو جار على الصحيح عند أصحابنا وغيرهم من أهل الأصول أن النساء لا يدخلن في خطاب الرجال .

وقال: (كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا للرجال والنساء، ويجوز أن يقال أبو المؤمنين في الحرمة، وفضلت زوجاته عليه الصلاة والسلام على النساء وثوابهن وعقابهن مضاعف ولا يحل سؤالهن إلا من وراء الحجاب وأفضلهن خديجة وعائشة) .

ولنذكر بعضا من السيرة الذاتية لكل منهن على ترتيب تزوجه بهن صلوات الله وسلامه عليه .

* * * * *

أم المؤمنين خديجة رضى الله تعالى عنها
(صاحبة بيت في الجنة لاصخب فيه ولا نصب)

هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى وكانت تدعى في الجاهلية (الطاهرة)

قال الذهبى:

(سيدة نساء العالمين في زمانها أم القاسم ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب القرشية الأسدية أم أولاد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأول من آمن به وصدقه قبل كل أحد وثبتت جأشه ومضت به إلى ابن عمها ورقة ومناقبها جمة وهى ممن كمل من النساء كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة من أهل الجنة ، وكان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثنى عليها ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين ، ويبالغ في تعظيمها بحيث أن عائشة:

كانت تقول: ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة من كثرة ذكر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها (ومن كرامتها عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لم يتزوج امرآة قبلها وجاءه منها عدة أولاد ولم يتزوج عليها قط إلى أن قضت نحبها ، فوجد لفقدها فإنها كانت نعم القرين ، وكانت تنفق عليه من مالها ويتجر هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها ، وقد أمره الله أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب) .

وتروى كتب السيرة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بلغ خمس وعشرين سنة **قال له عمه أبو طالب:**

(أنا رجل معيل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في

تجارتها ، فلو ذهبت إليها وقلت لها في ذلك لعلها تقبل ، وبلغ خديجة ذلك فأرسلت إلى النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك وقالت: أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك) .

وفى رواية أتى إليها أبو طالب فقال لها:

هل لك أن تستأجرى محمدا؟ فقد بلغنا إنك استاجرت ببكرين ولسنا نرضى لمحمد دون أربع بكرات .

فقالت خديجة:

لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا فكيف وقد سألت لحبيب قريب .

فقال أبو طالب للنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

هذا رزق ساقه الله إليك .

فخرج عليه الصلاة والسلام مع غلامها ميسرة ووقعت له القصة مع نسطور الراهب إلى آخر ما هو مذكور في محله من كتب السيرة المفردة لذلك .

ولما رجع عليه الصلاة والسلام بالتجارة من الشام وربحت التجارة الدرهم أربعة دراهم ، وحكى لها غلامها ميسرة أخبار الرحلة وما رأى من خلق كريم وكرامات للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . إلخ .

قالت نفيسة بنت منبه:

أرسلتنى خديجة دسيسا إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فقلت (يا محمد ما يمنعك أن تتزوج) ؟

فقال: ما بيدى ما أتزوج به

قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟

قال عليه الصلاة والسلام: فمن هى ؟

قلت: خديجة

قال: وكيف لى بذلك ؟

قلت: على فأنا أفعل .

فذهبت إلى خديجة فأخبرتها فأرسلت إلى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ائت ساعة كذا وكذا وصنعت طعاما وشرابا ودعت عمها ونفرا من قريش فطعموا وشربوا **فقالت خديجة**:

إن محمد بن عبد الله يخطبنى ، فزوجها منه عليه الصلاة والسلام فحلقته وألبسته حلة ، وكذلك كانوا يصنعون إذا زوجوا نساءهم والضمير في حلقته ورديفه إلى عمها المزوج لها عمرو بن خويلد المذكور لا إليه عليه الصلاة والسلام .

وجاء في السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين (ص٣٥) .

(وحضر أبو طالب ورؤساء مضر فخطب أبو طالب) **فقال**: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ (أصل أو معدن) معد وعنصر مضر وجعلنا سدنة بيته وسواس حرمه وجعله لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس ثم إن ابن أخى هذا: محمد بن عبد الله من لا يوزن به رجل إلا رجح به ، فإن كان في المال قلا ، فإن المال ظل مائل وأمر حائل ومحمد قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من آجله وعاجله من مالى كذا ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم) .

فلما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل فقال:

(الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم، ولايرد أحد من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا على معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار).

ثم سكت ورقة فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها.

قال عمها عمرو بن خويلد:

(اشهدوا على يا معشر قريش، إنى قد أنكحت محمدا بن عبد الله خديجة بنت خويلد وشهد على ذلك صناديد قريش).

وذكر الملا في سيرته:

لما تزوج عليه الصلاة والسلام خديجة ذهب ليخرج فقالت له خديجة: إلى أين يا محمد ؟

فأجاب:

اذهب فانحر جذورا أو جذورين وأطعم الناس ففعل ذلك رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهى أول وليمة أولمها رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفى رواية:

أمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف.

وقالت:

يا محمد مر عمك أبا طالب أن ينحر بكرا من بكارك وأطعم الناس على الباب وهل فقل مع أهلك فأطعم الناس ودخل فقال مع أهله خديجة.

فأقرالله عينه وفرح أبو طالب بذلك فرحا شديدا .

وقال:

الحمد الله أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهموم .

وكانت مدة إقامتها معه عليه الصلاة والسلام أربع وعشرين سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام خمس عشرة سنة منها قبل الوحى والباقيات بعده إلى أن توفيت وهى ابنة خمسة وستين سنة .

ولا خلاف في أنها أول امرأة تزوج بها عليه الصلاة والسلام ولم يتزوج قبلها ولا عليها وكانت وفاتها قبل الهجرة بثلاث سنين ودفنت بالحجون وولدت له عليه الصلاة والسلام أولاده كلهم ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية .

وفى المواهب اللدنية (١/ ٤٠٣)، وكانت خديجة أول من آمنت من الناس .

وروى ابن السنى بسند له عن خديجة رضى الله تعالى عنها أنها خرجت تلتمس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأعلى مكة ومعها غذاؤه فلقيها جبريل في صورة رجل، فسألها عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهابته وخشيت أن يكون بعض من يريد أن يغتاله فلما ذكرت للنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها:

هو جبريل وقد أمرنى أن أقرأ عليك السلام وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيها ولا نصب . . . رواه ابن السنى في عمل اليوم والليلة (٢٤٠) من حديث عمرو بن ملعب رضى الله تعالى عنه .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه:

«أن جبريل قال للنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن خديجة قد أتتك بإناء فيه

طعام أو إدام أو شراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» والمراد بالقصب اللؤلؤ المجوف .

وقال الحافظ ابن حجر:

قوله «**فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى**» زاد الطبرانى في الرواية المذكورة فقالت: «**هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام**» .

وللنسائى من حديث أنس قال:

قال جبريل للنبى ﷺ: «**أن الله يقرئ خديجة السلام**» يعنى فأخبرها فقالت: إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك يا رسول الله السلام ورحمه الله وبركاته .

وزاد السنى من وجه آخر وعلى من سمع السلام إلا الشيطان .

قال ابن إسحاق:

«كان عليه الصلاة والسلام لا يسمع شيئا من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بخديجة إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت» . رواه النسائى في الكبرى والحاكم في المستدرك .

وخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه ﷺ قال:

«أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون» رواه أحمد من المسند (١/ ٢٩٣ ، ٣١٦)

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى في شرح بهجة الحاوى المسمى بالغرر البهية في شرح البهجة الوردية أفضلهن خديجة وعائشة وفى

أفضليتهما خلاف وقد صحح ابن العماد تفضيل خديجة لما ثبت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعائشة حين قالت له:

«لا تزال تلهج بذكر خديجة إن هى إلا عجوز من عجائز قريش كأنى أنظر إلى حمرة شدقيها ودردرها وقد رزقك الله خيرا منها» متفق عليه أخرجه البخارى (٣٨٢١) ومسلم (٧٨/٢٤٣٧).

فقال عليه الصلاة والسلام:

«لا والله ما رزقنى خيرا منها آمنت بى حين كفر بى الناس وصدقتنى حين كذبنى الناس وأعطتنى مالها حين حرمنى الناس». رواه أحمد في المسند (٦/ ١١٨).

وسئل ابن داود: أيهما أفضل ؟

فقال: عائشة أقرأها النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السلام من جبريل: وخديجة أقرئها السلام جبريل من ربها على لسان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهى أفضل.

وقال ابن النقاش:

إن سبق خديجة وتأثيرها في أول الإسلام ومؤازرتها ونصرتها وقيامها في الدين بمالها ونفسها لم يشركها فيها أحد لا عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين وتأثير عائشة في آخر الإسلام في حمل الدين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من الأمر ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميز به عن غيرها» رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٦٠).

وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال:

كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أتى بالشيء يقول: **«اذهبوا به إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة»**.

رواه ابن حيان والدولابى - وفى رواية: **«فإنها كانت تحب خديجة»**

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها قالت:

كانت عجوز تأتى النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيبش لها ويكرمها وفى لفظ: كانت تأتى النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأة فقلت: يا رسول الله من هذه ؟. وفى لفظ: بأبى أنت وأمى إنك لتصنع لهذه العجوز ما لم تصنع بأحد وفى لفظ فلما خرجت **قلت**: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة وأن حسن العهد من الإيمان» وفى لفظ: **«فإن كرم العهد من الإيمان»** رواه الحاكم في المسند ووافقه الذهبى والطبرانى في الكبير.

وعن الحكمة من زواج النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخديجة رضى الله تعالى عنها.

قال الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى:

(لقد اختار الله سبحانه وتعالى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتزوج خديجة رضى الله تعالى عنها وهو في سن الخامسة والعشرين وهى في سنِّ الأربعين مع أن المألوف أن الإنسان يحب أن يتزوج بمن هى أصغر منه.

ولكن هدف الزواج لم يكن مجرد متعة فلم يكن زواجا عاديا بل كان زواجا أعده الله ليكون سكنة لرسوله عليه الصلاة والسلام في الفترة الانتقالية التى سيمر بها من بشرية عادية إلى بشرية تتلقى الوحى من الله.... هذا التغيير الهائل كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محتاجا فيه إلى قلب ووعى ممن تعالج المواقف بحكمة السنوات والنضوج العقلى الذى كان لازما خلال هذه المرحلة.

ولو كانت خديجة فتاة صغيرة طائشة لهربت من أول يوم عاد فيه رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغار وهو يرتجف أو اتهمته اتهامات شتى ذلك أن عقلها لم يكن في هذه الحالة يمكن أن يستوعب تلك التجربة الهائلة التى يمر بها أشرف خلق الله من البشرية العادية إلى البشرية التى تختلط بالملائكة وتتلقى عن الله بواسطة الملك ولذلك عندما قال لها الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن رأى جبريل في الغار: «**إنى أخاف أن يكون الذى يأتينى رئيسا من الجن. قالت: إنك لتصل الرحم وتكسب المعدم، وتعين على نوائب الحق، والله لا يخزيك الله أبدا**» .

كان لابد لكى تقول خديجة هذا الكلام وتكون حنونا لرسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تكون ناضجة العقل والفكر قد صقلتها السنون . . . تملك العقل الواعى الذى يستطيع أن يميز وأن يختار لا يكون فيها طيش ولا رعونة . . . لا فتاة صغيرة قد تهزها الأحداث فتجعلها تنهار تماما في هذه الفترة الحرجة من حياة الرسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (السيرة . . النبوية للشعراوى ١/ ١٠١) .

*****

أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله تعالى عنها

هى سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية: أمها الشموس بنت قيس بن زيد بن لبيد ابن أخى سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد أم عبد المطلب .

أسلمت قديما وبايعت وكانت متزوجة من ابن عم لها يقال له السكران ابن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن عامر وأسلم السكران زوجها معها قديما وهاجرا معا إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فلما قدما مكة مات زوجها وقيل: إنه مات بالحبشة وولدت له ابنا اسمه عبد الرحمن قتل في حرب جلولا اسم قرية من قرى فارس وقعت تلك الحرب فيها» .

وتزوجها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة بعد موت السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها في السنة العاشرة من النبوة - قبل أن يعقد على السيدة عائشة وهذا قول قتادة وأبى عبيدة ولم يذكر ابن قتيبة غيره .

قال الذهبى:

«هى أول من تزوج بها النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد خديجة وانفردت به نحوا من ثلاث سنوات أو اكثر حتى دخل بعائشة وكانت سيدة جليلة نبيلة يروى لها خمسة أحاديث منها فى الصحيحين حديث واحد عند البخارى»

وفى رواية أن البخارى روى لها حديثين وروى لها أبو داود والنسائى (أعلام النساء - ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٩)

قال العلامة محمد الشامي:

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال:

«كانت سودة بنت زمعة تحت السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو العمارى فرأت فى المنام كان النبى ﷺ أقبل يمشى حتى وضع رجله على رقبتها فأخبرت زوجها» .

فقال:

«لئن صدقت رؤياك لأموتن وليتزوجنك محمد ﷺ» .

ثم رأت في المنام ليلة أخرى أن قمرا انقضَّ عليها وهى مضطجعة فأخبرت زوجها فقال:

«لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيرا حتى أموت وتتزوجين من بعدى» فاشتكى السكران من يومه فلم يلبث إلا قليلا حتى مات وتزوجها النبى عليه الصلاة والسلام .

(رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى) ٨/ ٥٤

وفى إعلام النساء: عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ خطب سودة وكان لها **خمسة صبية أو ستة فقالت:**

«والله ما يمنعنى منك وأنت أحب البرية إلى ولكنى أكرمك أن يصخبوا هؤلاء الصبية عند رأسك بكحة أو بمشية» .

فقال لها رسول الله ﷺ:

«يرحمك الله إن خير نساء يركبن على أعجاز الإبل. صالح نساء قريش أحناه على ولد فى صغره وأرعاه لبعل فى ذات يده» .

وصح عن عائشة ابن سعد بسند صحيح عن محمد بن سيرين أن عمر

رضى الله تعالى عنه بعث إلى سودة بغرارة من دراهم فقالت ما هذه ؟

قالوا: دراهم .

قالت: في غرارة مثل التمر . . . . ففرقتها .

وروى ابن المبارك في الزهد من مرسل أبى الأسود يتيم عروة أن سودة قالت: «**يا رسول الله إذا متنا صلى لنا عثمان بن مظعون حتى تأتينا أنت**» .

فقال لها: «يا بنت زمعة، لو تعلمين علم الموت لعلمت أنه أشد مما تظنين» .

وقال الشنقيطى:

فقد كانت معه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حجة الوداع وكان يعرف ما بها من ضعف حيث أنها بطيئة جسيمة فرفق بها ورحم منعتها فائذن لها بالسير ليلا من المشعر الحرام إلى منى ، وذلك لتصل قبل حطمة الناس فلا تتورط في زحامهم ، وفى هذه الحجة بالخصوص بسط رسول الله يد الرحمة لأمته فكان لا يسأله من الحجاج عما قدم أو ما أخَّر من حجة إلا قال: «**افعل ولا حرج**» .

في البخارى عن ابن عباس قال: سئل النبى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عمن حلق قبل أن يذبح قال: «**لا حرج لا حرج**» .

وأخرج أيضا عن ابن عمر أنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقف في حجة الوداع فجعلوا يسألونه فما سئل يومئذ عن شىء قدم أو أخر إلا وقال: «**افعل ولا حرج**» أخرجه البخارى (١٦٨٠) وسلم (١٢٩٠ / ٢٩٣) .

فكل هذه الرحمة وهذا التوسيع وصل إلى الأمة من بركة سودة فهى التى كانت من استأذنه أن تتقدم قبل الحجاج وألا تدفع من المشعر الحرام

بدفع الجميع فاذن لها ورحم بوحى من الله جل وعلا من سأله بعدها وقال له: «افعل ولاحرج» .

وماتت أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله تعالى عنها في المدينة في خلافة عمر رضى الله تعالى عنه وهذا هو المشهور في وفاتها . . . أخرجه البخارى ١٦٨٠ ومسلم (١٢٩٠/ ٢٩٣) . . . . ونقل ابن سعد الواقدى أنها توفيت سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية .

ومن الحكمة في زواج النبى ﷺ بالسيدة أم المؤمنين سودة بنت زمعة أنها من المؤمنات المهاجرات الهاجرات لأهليهن خشية الفتنة ولوعادت إلى أهلها بعد وفاة زوجها - وكان ابن عمها - لعذبوها وفتنوها هى وأولادها الخمسة فكفلها ﷺ هى أولادها، وكافأها بهذه المنة العظيمة، وأن يكون ما قام به ﷺ درسا لأمته بألا تترك المؤمنة الملتزمة بدينها المتمسكة بعقيدتها، سواء كانت وحدها، أو مع صغارها في مواجهة قسوة الحياة وفتنها؛ بل يجب أن تكون في كنف رجل مؤمن يكفلها هى وصغارها حماية لهم من الفتنة والانحراف إذا كان في وسعه هذا . .



أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها

هى عائشة بنت أبى بكر الصديق القرشية التيمية أمها أم رومان بنت عويمر وقد روى أبو بكر بن أبى خيثمة عن على بن زيد عن القاسم بن محمد أن أم رومان زوج أبى بكر أم عائشة لما وليت في قبرها .

قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان» ، رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى .

وقال الذهبى يصف عائشة رضى الله تعالى عنها:

«كانت امرأة بيضاء جميلة ومن ثم يقال لها: الحميراء ولم يتزوج النبى ﷺ بكرا غيرها. ولا أحب امرأة حبها ولا أعلم فى أمة محمد ﷺ بل ولا فى النساء مطلقا امرأة أعلم منها وذهب بعض العلماء إلى أنها أفضل فى العلم من أبيها وهذا مردود وقد جعل الله لكل شيء قدرا بل نشهد أنها زوجة نبينا ﷺ فى الدنيا والآخرة فهل فوق ذلك منفر... وإن كانت للصديقة خديجة شأن لا يلحق... وأنا واقف فى أيتهما أفضل... نعم جزمت بأفضلية خديجة عليها لأمور ليس هذا موضعها» (سير أعلام النبلاء ٢/ ١٤٠) .

وروى الإمام أحمد والشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت:

قال لى رسول الله ﷺ: «أريتك فى المنام قبل أن أتزوجك مرتين» .

وفى لفظ: ثلاث ليال (جاءنى بك الملك في سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك فاكشف عن وجهك فإذا هى أنت فأقول: إن يكن من عند الله يمضه»

أخرجه البخارى (٣٨٩٥) ومسلم ٢٤٣٨ / ٧٩ وأحمد في المسند ٦/ ٤١ .

وروى الترمذى وحسنه ابن عساكر عنها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(جاءنى بك جبريل في خرقة خضراء فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة) رواه الترمذى (٣٨٨٠) .

وقال الألبانى في صحيح الترمذى ٣٠٤١ صحيح .

وروى ابن عساكر بسنده: لما ماتت خديجة حزن عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزنا شديدا فبعث الله جبريل فأتاه بعائشة في مهد فقال: (يا رسول الله هذه تذهب ببعض حزنك وإن في هذه خلفا من خديجة ثم ردها) فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختلف إلى بيت أبى بكر ، ويقول: (يا أم رومان استوصي بعائشة خيرا واحفظيني فيها فكان لعائشة بذلك منزلة عند أهلها ولا يشعرون بأمر الله فيها) .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت: (كنت صاحبة عائشة رضى الله تعالى عنها التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعى نسوة فوالله ما وجدنا عندها قرى إلا قدحا من لبن) . قالت: فشرب منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلم ثم ناوله عائشة فاستحيت الجارية .

فقلت: (لا تردن يد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاخذتها على حياء فشربت منه) .

ثم قال: «ناولى صواحبك» فقلن: لا نشتهي .

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تجمعين جوعا وكذبا»** .

فقلت: يا رسول الله إنا إذا قلنا لشيء نشتهيه لا نشتهيه يعد ذلك كذبا؟

قال: (إن الكذب يكتب كذبا حتى تكتب الكذبة كذبة) رواه أحمد في المسند (٦/ ٤٣٨) (بلفظ: ولا تجمعن . . حتى تكتب الكذيبة كذيبة) .

وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عنها قالت:

(تزوجنى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شوال وبنى بى في شوال فأى نسائه كان أحظى عنده منى) .

ومن المعروف أن العرب كانت تستحب أن يبنى بنسائها في شوال

وروى الترمذى وصححه عن عبد الله بن زياد الأسدى .

قال: سمعت عمارا يقول: (هى زوجته في الدنيا والآخرة) .

رواه الترمذى (٣٨٨٩) وحسنه وصححه الألبانى في صحيح الترمذى (٣٠٤٨) .

وروى أبو عمرة بن السماك أن عائشة رضى الله عنها قالت:

(إنى لأفخر على أزواج النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربع: ابتكرنى ولم يبتكر امراة غيرى ولم ينزل عليه القرآن منذ دخل على إلا في بيتى ونزل في عذرى قرآن يتلى وأتاه جبريل بصورتى مرتين قبل أن يملك عقدى) .

(السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ٧٣)

وروى الطبرانى والبزار برجال ثقات وابن حبان عنها قالت: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طيب النفس .

فقلت: يا رسول الله ادع لى .

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر وما أسرت وما أعلنت فضحكت عائشة حتى سقط رأسها فى حجرها من الضحك» .

فقال رسول الله أسرك دعائى ؟

فقالت: ما لى لا يسرنى دعاؤك ؟

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فوالله إنها لدعوتى لأمتى في كل صلاة).

وروى ابن أبى شيبة عن قيس بن وهب قال:

قلت لعائشة أخبرينى عن خلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قالت: أو ما تقرأ القرآن: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (٧٤٦ / ١٣٩).

وروى مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها: أن الله عز وجل أنزل الخيار فبدأ بعائشة وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى يأتي أبو بكر.

قالت: ما هو ؟

فتلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا**﴾ إلى آخر الآية:

فقالت: «أفيك أستامر أبى ؟ بل أختار الله ورسوله» (أخرجه مسلم ١٤٧٥ / ٢٢).

وروى ابن سعد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت:

«فضلت على نساء النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخصال عشر. قيل: وما هن يا أم المؤمنين ؟ قالت: لم ينكح بكرا غيرى ولم ينكح امرأة أبوها مهاجر غيرى وأنزل الله براءتى من السماء، وجاءه جبريل بصورتى من السماء في حريرة وقال: تزوجها فإنها امرأتك وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه وكان يصلى وأنا بين يديه وكان

ينزل عليه الوحى وهو معى، ولم يكن ينزل عليه وهو مع أحد من نسائه وقبضه الله وهو بين سحرى ونحرى ودفن فى بيتى ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه» . (رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٦٣) .

وروى الترمذى وصححه الألبانى في صحيح الترمذى وابن أبى خيثمة عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال: (ما أشكل أمر علينا - أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما) .

وروى الطبرانى عن الزهرى أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لو جمع نساء هذه الأمة فيهن أزواج النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان علم عائشة أكبر من علمهن) .

وروى الحاكم بسند حسن عن مسروق أنه كان يحلف بالله لقد رأيت الأكابر من أصحاب رسول الله يسألون عائشة عن الفرائض .

وروى الطبرانى عن موسى بن طلحة: (ما رأيت أحدا كان أفصح من عائشة) .

وروى أبو عمرو وابن عساكر عن عمرو بن الزبير قال: (ما رأيت أحدا أعرف بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا بحرام ولا بفقه ولا بطب ولا بحديث العرب ولا بنسب من عائشة) (رواه الطبرانى في الكبير ٢٣/ ٢٩٤) .

وروى عن عروة وقد قيل له: ما أرواك - وكان أروى الناس للشعر .

فقال:(ما روايتى في رواية عائشة: ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرا) وروى الإمام أحمد عن عروة أيضا أنه كان يقول لعائشة: **«يا أماه لا أعجب من فقهك أقول زوجة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابنة أبى بكر ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول ابنة أبي بكر، وكان من**

أعلم الناس بأيام العرب وأنسابها ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو وأين هو ؟ فضربت على منكبه . وقالت: أي عربية (تصغير عروة) أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسقم وفي لفظ كثرت أسقامه آخر عمره - فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فكانت تنعت له الإلعاق وكنت أعالجها فمن ثمة» (رواه أحمد في المسند ٦/ ٦٧) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٩٥) .

روى الحاكم وأبو عمرو وابن الجوزى عن الزهرى قال: (لو جمع علم الناس كلهم ثم علم أزواج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكانت عائشة أوسعهم علما) - (رواه الحاكم في المستدرك)

وروى الإمام أحمد في الزهد والحاكم عن الأحنف بن قيس قال: «سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء وهلم جرا فما سمعت لكلام مخلوق منهم افخم ولا أحسن من عائشة» - (رواه الحاكم في المستدرك) .

وروى ابن أبي خيثمة عن سفيأن بن عيينة قال:

قال معاوية بن أبي سفيان: يا زياد أى الناس أعلم ؟

قال: أنت يا أمير المؤمنين .

قال: أعزم عليك: قال إما إذا عزمت على فعائشة .

وروى البلاذرى عن القاسم بن محمد قال:

«كانت عائشة قد استقلت بالفتوى زمن أبي بكر وعمر وعثمان وهلم جرا إلى أن ماتت وعنها رضى الله تعالى عنها قالت: كنت أدخل البيت الذى دفن فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضعة ثوبي عنى وأقول: إنما هما زوجي وأبي فلما دفن عمر والله ما دخلته إلا مشدودة على ثيابي

حياء من عمر» .

حديث الإفك:

لم تسلم الصديقة بنت الصديق رضى الله تعالى عنها في عهد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كيد المنافقين والحساد وعلى رأسهم عبد الله بن أبى ابن سلول المشهور بين أصحابه وخصومه بالكذب والنفاق والبغض لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوته ، ولذلك كان يخلو بأعداء الإسلام ويؤلبهم على المسلمين ويسول لهم قتل النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويوغر صدورهم على الدين الجديد والمنتسبين إليه وكان كل هذا والله أعلم لأنه ضاع منه الملك والتاج بظهور الإسلام ، فلا عجب أن يكون له غرض في ترويج حديث الإفك واتخاذه مطعنا في الإسلام من وراء الطعن في كرامة نبى الإسلام وزوجته الطاهرة أم المؤمنين .

ولنسمع حديث أم المؤمنين عائشة نفسها وهى تقص علينا ماحدث إذ قالت رضى الله عنها: «كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فايتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه فأقرع بيننا فى غزوة غزاها، فخرج سهمى فخرجت مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ما نزل الحجاب، فانا أحمل فى هودجى، وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوته تلك» .

قال الذهبى:(كان في غزوة المريسيع سنة خمس من الهجرة)

وقفل ودنونا من المدينة قافلين أذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين أذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فالتمست عقدى وحبسنى ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى

الذى كنت ركبت وهم يحسبون أنى فيه .

وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم؛ إنما تأكل العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدى بعدما سار الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فأممت منزلى الذى كنت به وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلى .

فبينما أنا جالسة في منزلى غلبتنى عينى فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم؛ فأتانى فعرفنى حين رآني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى؛ فخمرت وجهى بجلبابي . والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة .

فهلك من هلك وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول فقدمنا المدينة فأشتكيت حين قدمت شهرا، والناس يغيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك، وهو يربينى في وجعى أنى لا أعرف من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى إنما يدخل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يقول: كيف تيكم ثم ينصرف فذاك الذى يربينى ولا أشعر بالبشر حتى خرجت بعدما نقهت؛ فخرجت معى أم مسطح قبل المناصع؛ وهو متبرزنا، وكنا لانخرج إلا ليلا إلى ليل؛ وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهى ابنه أبى رهم بن عبد مناف؛ وأمها بنت صخر بن عامر

خاله أبى بكر الصديق ؛ وابنها مسطح بن أثاثة فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى وقد فرغنا من شأننا فتعثرت أم مسطح في مرطها ؛

فقالت: تعس مسطح .

فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا ؟

قالت: أى هنتاه أو لم تسمعى ما قال؟

قالت: وما قال ؟

قالت السيدة عائشة أم المؤمنين:

فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرض ، فلما رجعت إلى بيتى ودخل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعنى سلم ثم . . قال: كيف تيكم ؟

فقلت: أتاذن لى أن آتى أبوى ؟ وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما .

فقالت: فأذن لى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجئت أبوى فقلت لأمى: يا أماه ما يتحدث الناس ؟

قالت أمي: يا بنية ، هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .

قالت السيدة عائشة:

فقلت سبحان الله ، ولقد تحدث الناس بهذا ؟ وبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي .

فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما حيث استلبث الوحى يستأمرهما في فراق أهله فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالذى يعلم من براءة

أهله، وبالذى يعلم لهم في نفسه من الود **فقال**: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما على بن أبى طالب رضى الله عنه **فقال**: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك.

وقالت السيدة عائشة:

فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أى بريرة هل رأيت شيئا يريبك» ؟

قالت بريرة:

والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتى الداجن فتأكله - فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبى ابن سلول.

فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: (يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل، قد بلغنى أذاه في أهل بيتى؟ فوالله ما علمت من أهلى إلا خيرا.

ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلى إلا معى **فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال**: يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة هو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لا تقتله. فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

وقالت أم المؤمنين: فمكثت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم .

وقالت: فأصبح أبواى عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لى دمع يظنان أن البكاء فالق كبدى ، فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكي فاستأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم جلس ولم يجلس عندى منذ ما قيل قبلها .

وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأنى .

قالت السيدة عائشة أم المؤمنين:

فتشهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال:

أم بعد يا عائشة ، فإنه وقد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله ، وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه .

وقالت:

فلما قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي أجب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما قال:

قال: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فقلت:

إنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حين استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة ، والله يعلم إنى بريئة لا تصدقون بذلك ، ولئن اعترفت أنفسكم لكم بأمر ، والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، والله ما أجد لكم مثلا إلا قول أبى يوسف: **قال:** ﴿ فَصَبْرٌ

جَمِيلٌ وَاللهُ الْـمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (سورة يوسف ١٨) .

وقالت: ثم تحولت فاضجعت على فراشى وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة وأن الله يبرئنى ببرائتى ، ولكن والله ما كنت أظن الله منزلا في شأنى وحيا يتلى ولشأنى في نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم رؤيا يبرئنى الله بها .

وقالت: فوالله ما دام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه من البرحاء ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق ، وهو في يوم شات من ثقل القول الذى ينزل عليه فلما سرى عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرى عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك**».

وأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ (سورة النور ١١) العشر الآيات كلها .

فلما أنزل الله هذا في براءتى قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره .

والله لا أنفق على مسطح شيئا بعد الذى قال لعائشة ما قال:

فأنزل الله جل وعلا: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْـمَسَاكِينَ وَالْـمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة النور ٢٢) .

قال أبو بكر:

بلى أحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال: والله ما أنزعها منه أبدا .

وقالت أم المؤمنين عائشة:

وكان رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يسأل زينب بنت جحش عن أمرى

فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟

فقالت: يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى ما علمت إلا خيرا .

قالت: وهى التى كانت تساميني في أزواج رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك) البخارى ٤٧٥٠ .

وهكذا أراد الله عز وجل أن يمر رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وزوجته أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها بأصعب ، وأقسى تجربة إنسانية يمكن أن تمر بها أسرة أو يمر بها إنسان ، ليشكلا بها معا للإنسانية جمعاء قدوة في السلوك الإنسانى وكيفية التصرف ولكى تستشف منها الأمة الإسلامية من بعدها الكثير من الحكم والمواعظ والسلوكيات المشروعة .

قال الحافظ ابن حجر فتح البارى ٩/ ٤٢١ - ٤٢٤ :

وفى هذا الحديث مشروعية القرعة حتى بين النساء وفى المسافرة بهن والسفر بالنساء حتى في الغزو وجواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل ولو كان فيد مدح ناس وذم ناس إذا تضمن ذلك إزالة توهم النقص عن الحاكى إذا كان بريئا عند قصد نصح من يبلغه ذلك لئلا يقع فيما وقع فيه من سبق وأن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير في الإثم أولى من تركه يقع في الإثم وتحصيل الأجر للموقوع فيه وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام وأن الهودج يقوم مقام البيت في حجب المرأة وجواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير ، ولو كان ذلك مما يشق عليها حيث يكون مطيقا لذلك .

وفية خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب وجواز تستر المرأة بالشيء المنفصل عن البدن وتوجه المرأة لقضاء حاجتها وحدها وبغير إذن خاص من زوجها، بل اعتمادا على الإذن العام المستند إلى العرف العام وجواز تحلى المرأة في السفر بالقلادة ونحوها وصيانة المال ولو قل للنهى عن إضاعة المال، فإن عقد السيدة عائشة لم يكن من ذهب ولا جوهر.

وفيه شؤم الحرص على المال؛ لأنها لو لم تطل في التفتيش لرجعت بسرعة فلما زاد على قدر الحاجة أثر ما جرى؛ وقريب منه قصة المتخاصمين حيث رفع علم ليلة القدر بسببهما فإنهما لم يقتصرا على ما لا بد منه، بل زادا في الخصام حتى ارتفعت أصواتهما، فأثر ذلك بالرفع المذكور؛ وتوقف رحيل العسكر على إذن الأمير واستعمال بعض الجيش ساقة يكون أمينا ليحمل الضعيف ويحمل ما يسقط وغير ذلك من المصالح والاسترجاع عند المصيبة؛ وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأحباب وإطلاق الظن على العلم؛ كذا قيل وفيه نظر قدمته وإغاثة الملهوف وعون المنقطع؛ وإنقاذ الضائع؛ وإكرام ذوى القدر وإيثارهم بالركوب وتجشم المشقة لأجل ذلك وحسن الأدب مع الأجانب خصوصا النساء لاسيما في الخلوة؛ والمشى أما المرأة ليستقر خاطرها وتأمن مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشى.

وفيه ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضى النقص وإن لم يتحقق وفائدة ذلك أن تتفطن لتغيير الحال فتعتذر أو تعترف وأنه لا ينبغى لأهل المريض أن يعلموه بما يؤذى باطنه لئلا يزيد ذلك في مرضه.

وفيه السؤال عن المريض وإشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة؛ فإذا كان السبب محققا فيترك أصلا وإن كان مظنونا فيخفف وإن كان مشكوكا فيه أو محتملا فيحسن التقليل منه لا للعمل بما قبل بل لئلا

يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل في حقه لأن ذلك من خلال خوارم المرؤة .

وفيه أن المرأة إذا خرجت لحاجة تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن عليها ، وفيه ذبُّ المسلم عن المسلم خصوصا من كان من أهل الفضل وردع من يؤذيهم ولو كان منهم بسبيل وبيان مزيد فضيلة أهل بدر وإطلاق السب على لفظ الدعاء بالسوء على الشخص .

وفيه البحث عن الأمر القبيح إذا أشيع وتعرف صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه واستصحاب حال من أتاهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفا بالخير إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك ، وفيه فضيلة قوية لأم مسطح ، لأنها لم تحاب ولدها في وقوعه في حق عائشة ، بل تعمدت سبه على ذلك .

وفيه تقوية لأحد الاحتمالين في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أهل بدر: «**أن الله قال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» أخرجه البخارى ٣٠٨١ ومسلم ٢٤٩٤/ ١٦١ .

وأن الراجح أن المراد بذلك أن الذنوب تقع منهم لكنها مقرونة بالمغفرة تفضيلا لهم على غيرهم بسبب ذلك المشهد العظيم .

وفيه مشروعية التسبيح عند سماع ما يعتقد السامع أنه كذب وتوجيهه هنا أنه سبحانه وتعالى ينزه أن يحصل لقرابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تدنيس . فيشرع شكره بالتنزيه في مثل هذا .

وفيه توقف خروج المرأة من بيتها على اذن زوجها ولو كانت إلى بيت أبويها . وفيه البحث عن الأمر المقول ممن يدل عليه المقول فيه والتوقف في خبر الواحد ولو كان صادقا وطلب الارتقاء من مرتبة الظن إلى مرتبة اليقين . . . . وأن خبر الواحد إذا جاء شيئا بعد شيء أفاد القطع لقول السيدة عائشة:

(لأستيقن الخبر من قبلهما) وأن ذلك لا يتوقف على عدد معين .

وفيه استشارة المرء أهل بطانته ممن يلوذ به بقرابة وغيرها وتخصيص من جربت صحة رأيه منهم بذلك ولو كان غيره أقرب والبحث عن حال من أتهم بشيء وحكاية ذلك للكشف عن أمره ولا يعد ذلك غيبة وفيه استعمال (لا نعلم إلا خيرا) في التزكية وأن ذلك كان في حق من سبقت عدالته ممن يطلع على خفى أمره وفيه التثبت في الشهادة وفطنة الإمام عند الحادث المهم والاستنصار بالأخصاء على الأجانب وتوطئة العذر لمن يراد إيقاع العقاب به والعتاب له واستشارة الأعلى لمن هو دونه واستخدام من ليس في الرق وأن من استفسر عن حال شخص، فأراد بيان ما فيه من عيب فليقدم ذكر عذره في ذلك إن كان يعلمه كما قالت بريرة في عائشة حيث عابتها بالنوم عن العجين فقدمت قبل ذلك أنها جارية حديثة السن .

وفيه أن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحى لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحى (نبه عليه الشيخ أو محمد بن أبى جمرة نفع الله به) وأن الحمية لله ورسوله لا تذم .

وفيه أن التعصب لأهل الباطل يخرج عن اسم الصلاح وجواز من يتعرض للباطل ونسبته إلى ما يسوءه وإن لم يكن ذلك في الحقيقة فيه لكن إذا وقع منه ما يشبه ذلك جاز ذلك عليه تغليظا له وإطلاق الكذب على الخطأ والقسم بلفظ لعمر الله وفيد الندب إلى قطع الخصوم وتسكين ثائرة الفتنة وسد ذريعة ذلك واحتمال أخف الضررين بزوال أغلظهما وفضل احتمال الأذى .

وفيه مباعدة من خالف الرسول ولو كان قريبا حميما وفيه أن من أدى النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقول أو فعل يقتل لأن سعد بن معاذ أطلق ذلك ولم ينكره النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وفيه مساعدة من نزلت فيه بلية بالتوجع والبكاء والحزن . وفيه تثبت أبى بكر الصديق في الأمور لأنه لم ينقل عنه في هذه القصة مع تمادى الحال فيها شهرا كلمة فما فوقها إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال:

(والله ما قبل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام وقع ذلك في حديث ابن عمر عند الطبرانى) .

وقيد ابتدأ الكلام في الأمر المهم بالتشهد والحمد والثناء وقول: أما بعد وتوقيف من نقل عنه ذنب على ما قبل فيه بعد البحث عنه ، وأن قول كذا وكذا يكنى بها عن الأحوال كما يكنى بها عن الأعداد ولا تختص بالأعداد .

وفيه مشروعية التوبة وإنها تقبل من المعترف المقلع المخلص وأن مجرد الاعتراف لا يجزئ فيها وأن الاعتراف بما لم يقع لا يجوز ولو عرف انه يصدق في ذلك ولا يؤاخذ على ما يترتب على اعترافه بل عليه أن يقول الحق أو يسكت .

وأن الصبر تحمد عاقبته ويغبط صاحبه .

وفيه تقديم الكبير في الكلام وتوقف من اشتبه عليه الأمر في الكلام

وفيه تبشير من تجددت له نعمه أو اندفعت عنه نقمة

وفيه الضحك والفرح والاستبشار عند ذلك ومعذرة من انزعج عند وقوع الشدة لصغر سن ونحوه وإدلال المرأة عن زوجها وأبويها وقد ربح من وقع في مصيبة فزالت عنه لئلا يهجم على قلبه الفرح في أول وهلة فيهلكه يؤخذ ذلك من ابتداء النبى صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد نزول الوحى ببراءة عائشة بالضحك ثم تبشيرها ثم إعلامها ببراءتها مجملة ثم تلاوته الآيات على وجهها وقد نص الحكماء على أن من اشتد عليه العطش لا يمكن من المبالغة في الرى من الماء لئلا يقضى به ذلك إلى الهلكة بل يجرع قليلا قليلا .

وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج وفضل من يفوض الأمر لربه وأن من قوى على ذلك خف عنه الهم والغم كما وقع في حالتى أم المؤمنين عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها بقوله: (والله المستعان) .

وفيه الحث على الإنفاق في سبيل الخير خصوصا في صلة الرحم ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه أو صفح عنه وأن من حلف أن لايفعل شيئا من الخير استحب له الحنث وجواز الاستشهاد بآى القرآن في النوازل والتأسى بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم .

وفيه التسبيح عند التعجب واستعظام الأمر وذم الغيبة وذم سماعها وزجر من يتعاطاها لاسيما أن تضمنت تهمة المؤمن بمن لم يقع منه .

وذم إشاعة الفاحشة وتحريم الشك في براءة السيدة عائشة وفيه تأخير الحد عمن يخشى من إيقاعه به الفتنة .

فتح البارى (٩/ ٤٢١ - ٤٢٤) .

وانتصرت السيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها في حديث الإفك وبرأها الله عز وجل سبحانه وتعالى مما قالوا بآيات تتلى في القرآن الكريم إلى يوم البعث .

وقدرت عائشة رضى الله تعالى عنها هذا الانتصار حق قدره وأبت إلى بيتها أوبة الظافر المتين ولا ريب في أن انتصرت مع السيدة أم المؤمنين عائشة كل مؤمنة طاهرة نقية تتعرض لمثل هذه التجربة القاسية وتواصت بالحق والصبر إلى أن ينفذ الله أمره فإن العلى القدير جل وعلا يدافع عن الذين أمنوا ولا يتخلى عنهم أبدا .

وظلت السيدة أم المؤمنين عائشة أعواما مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نعمه وسعادة وسرور يتنزل الوحى من الله جل وعلا في بيتها ويقرئها

جبريل عليه السلام ويحبها رسول الله ﷺ ويعظمها المسلمون.

وقعة الجمل:

ولبثت السيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بعد وفاة النبى ﷺ نحوا من خمسين سنة كانت فيها كعبة أهل المدينة ومقصد جميع المسلمين والمسلمات والكل يقدر مكانتها من رسول الله ﷺ ويستنير أهل العلم والفقه بما لها من فقه وحديث ويتقوى أهل الرأى بمشورتها ويحرص ذو الحكم على تأييدها وعلى اكتساب قوة نفوذها فكانت حقا زعيمة أمهات المؤمنين آنذاك. وكانت رضى الله تعالى عنه تأبى أن لا تعطى لمنصبها مدلولة في كل ميدان، وخاصة في القضايا العامة، وهذا ما يفسر لنا تدخلها في خلاف المسلمين حول مقتل الخليفة عثمان رضى الله تعالى عنه.

وقد قيل أنها ترددت كثيرا قبل أن تذهب إلى البصرة وأن ابن أختها عبد الله بن الزبير لم يزل بها يفتل في الذروة والغارب حتى ذهب بها.

قال الذهبى:

لما قتل عثمان صبرا سقط في أيدى أصحاب النبى ﷺ وبايعوا عليا ثم أن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأم المؤمنين عائشة ومن تبعهم رأوا أنهم لا يخلصهم مما وقعوا فيه من توانيهم في نصرة عثمان إلا أن يقوموا في الطلب بدمه والأخذ بثأره من قتلته فساروا من المدينة بغير مشورة من أمير المؤمنين وطلبوا البصرة.

وقال خليفة تاريخ خليفة بن خياط:

قدم طلحة والزبير وعائشة البصرة وبها عثمان بن حنيف الأنصارى واليا لعلى فخاف وخرج عنها ثم سار على من المدينة بعد أن استعمل عليها

سهل بن حنيف أخا عثمان وبعث ابنه الحسن وعمار بن ياسر إلى الكوفة بين يديه يستنفران الناس ثم إنه وصل إلى البصرة .

وكان قد خرج منها قبل قدومه إليها حكيم بن جبلة العبدى في سبع مائة وهو أحد الرؤوس الذين خرجوا على عثمان كما سلف فالتقى هو وجيش طليحة والزبير فقتل الله حكيما في طائفة من قومه . وقتل مقدم جيش الآخرين أيضا مجاشع بن مسعود السامى ثم اصطلحت الفئتان ، وكفوا عن القتال على أن يكون لعثمان بن حنيف دار الإمارة والصلاة وأن ينزل طلحة والزبير حيث شاء من البصرة حتى يقدم على رضى الله تعالى عنه .

وقال عمار لأهل الكوفة:

(أما أنا والله إنى لا علم أنها - يعنى عائشة - زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم بها لينظر أتتبعونه أوإياها) تاريخ خليفة بن خياط ١١٠ .

قال سعد بن جبير: «تاريخ خليفة بن خياط» .

كان مع على يوم وقعة الجمل ثمانمائة من الأنصار وأربعمائة ممن شهد بيعة الرضوان . رواه جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد .

وقال المطلب بن زياد عن السدى:

(شهد مع على يوم الجمل مائة وثلاثون بدريا وسبع مائة من أصحاب النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقتل بينهما ثلاثون ألفا لم تكن مقتلة أعظم منها) - تاريخ خليفة بن خياط -

وقال سلمة بن كهيل:

فخرج من الكوفة ستة آلاف فقدموا على على بذى قار فسار في نحو

عشرة آلاف حتى أتى البصرة . تاريخ خليفة بن خياط ١١٠ .

وقال أبو عبيدة:

كان على خيل على يوم الجمل عمار ، وعلى الرجالة محمد بن أبى بكر الصديق .

(شقيق السيدة أم المؤمنين عائشة) ، وعلى الميمنة علياء بن الهيثم السدوسى ، ويقال: عبد الله بن جعفر ويقال: الحسن بن على وعلى الميسرة الحسين بن على وعلى المقدمة عبد الله بن عباس ودفع اللواء إلى ابنه محمد ابن الحنفية .

وكان لواء طلحة والزبير مع عبد الله بن حكيم بن حزام وعلى الخيل طلحة وعلى الرجالة عبد الله بن الزبير وعلى الميمنة عبد الله بن عامر بن كريز وعلى الميسرة مروان بن الحكم

وكانت الوقعة يوم الجمعة خارج البصرة عند قصر عبيد الله بن زياد (نساء النبى - الإمام محمد متولى الشعراوى ص ١٧٤) .

وقال أبو اليقظان (تاريخ خليفة بن خياط ١١١):

خرج يومئذ كعب بن سور الأزرى في عنقه المصحف ومعه ترس فأخذ بخطام جمل عائشة فجاءه سهم عرب فقتله .

وقال محمد بن سعد:

وكان كعب قد طين عليه بيتا ، وجعل فيه كوة يتناول منها طعامه وشرابه اعتزالا للفتنة فقيل للسيدة عائشة: إن خرج معك لم يتخلف من الأزد أحد فركبت إليه فنادته وكلمته فلم يجبها فقالت:

ألست أمك ؟ ولى عليك حق فكلمها .

فقالت: إنما أريد أن أصلح بين الناس، فذلك حين خرج ونشر المصحف ومضى بين الصفين يدعوهم إلى ما فيه فجاءه سهم فقتله (رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٧/ ٩٣٠٩٢)

وقال حصين بن عبد الرحمن: «قام كعب بن سور فنشر مصحفا بين الفريقين، ونشدهم الله والإسلام في دمائهم فمازال حتى قتل» . المصدر السابق

وقال غيره:

اصطف الفريقان وليس لطلحة ولا لعلى رأسى الفريقين قصد في القتال بل ليتكلموا في اجتماع الكلمة فترامى أوباش الطائفتين بالنبل وشبت نار الحرب وثارت النفوس **وظل طلحة يقول:**

(يا أيها الناس أنصتوا) والفتنة تغلى فقال: (أف فراش الناس وذئاب طمع) وقال (اللهم خذ لعثمان منى اليوم حتى ترضى. إنا داهنا في أمر عثمان. كنا أمس يدا على من سوانا وأصبحنا اليوم جبلين من حديد يزحف أحدنا إلى صاحبه، ولكنه كان منى في أمر عثمان مالا أى كفارته إلا بسفك دمى وبطلب دمه).

وروى قتادة عن الجارود بن أبى سبرة الهذلى وقال: (نظر مروان بن الحكم إلى طلحة يوم الجمل، فقال: لا أطلب ثأرى بعد اليوم فرمى طلحة بسهم فقتله) .... تاريخ خليفة بن خياط ١١١ .

وقال قيس بن أبى حازم:

(رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذ بسهم. فوقع في ركبة. فمازال يسح حتى مات).

وفى بعض طرقة: رماه بسهم - **وقال:**(هذا ممن على عثمان) .

(رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى- ٣/ ٣٢٣) .

وعن يحيى بن سعيد الأنصارى: .

عن عمه . إن مروان رمى طلحة . والتفت إلى أبان بن عثمان . وقال (قد كفيناك بعض قتلة أبيك) (تاريخ خليفة بن خياط ١١١) .

وروى زيد بن أبى أنيسة عن محمد الأنصارى عن أبيه أن عليا قال:

(بشروا قاتل طلحة بالنار)

حدثنا روح بن عبادة:

قال: حدثنا أبو نعامة العدوى قال: حدثنا حميد بن هلال عن حجير ابن الربيع أن عمران بن حصين أرسله إلى بنى عدى أن اتهم فأتاهم فقال:

«يقرأ عليكم السلام ويقول: إنى لكم ناصح ويحلف بالله لأن يكون عبدا مجدعا يرعى فى رأس جبل حتى يموت أحب إليه من أن يرمى فى واحد من الفريقين بسهم فأمسكوا فداكم أبى وأمى» .

فقالوا: دعنا عنك فإنا والله لاندع ثقل رسول الله ﷺ فغزوا يوم الجمل فقتل خلق حول عائشة يومئذ سبعون كلهم قد جمعوا القرآن ، ومن لم يجمع القرآن أكثر .

وعن يحيى بن سعيد الأنصارى عن عم له قال:

لما كان يوم الجمل نادى على في الناس:

(لا ترموا أحدا بسهم وكلموا القوم فإن هذا مقام من فلح يوم القيامة) .

قال: (فتوافينا حتى أتانا حر الحديد ثم إن القوم نادوا بأجمعهم بالثأر لعثمان) .

قال: وابن الحنفية أمامنا رتوه (خطوة) معه اللواء فمد على يديه وقال: «**اللهم أكب قتلة عثمان على وجوههم**» .

ثم إن الزبير قال لأساورة معه:

«**ارموهم ولا تبغلوا وكأنه إنما أراد أن ينشب القتال فلما نظر أصحابنا إلى النشاب لم ينتظروا أن يقع إلى الأرض وحملوا عليهم فهزمهم الله ورمى مروان طلحة بسهم فشك ساقه بجنب فرسه**» .

وعن أبى جرو المازنى قال: شهدت عليا والزبير حين تواقفا فقال له على: «**يا زبير انشدك الله**» . . أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنك تقاتلنى وأنت ظالم لى ؟**» .

قال الزبير: (نعم ولم أذكر إلا في موقفى هذا) ثم انصرف وقال شريك عن الأسود بن قيس:

حدثنى من رأى الزبير يوم الجمل وناداه على «**يا أبا عبد الله فاقبل حتى التقت أعناق دوابهما**» .

فقال: (أنشدك بالله أتذكر يوم كنت أناجيك فأتانا الرسول الله ﷺ)

فقال «تناجيه فوالله ليقاتلنك وهو لك ظالم» .

قال: فلم يعد أن سمع الحديث فضرب وجه دابته وانصرف

وقال هلال بن خباب فيما رواه عنه أبو شهاب الحناط وغيره عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال يوم الجمل للزبير:

يا ابن صفية هذه عائشة تملك طلحة فأنت على ماذا تقاتل قريبك عليا؟ فرجع الزبير فلقيه ابن جرموز فقتله .

وقال الحسن البصرى عن قيس بن عباد قال: قال على عن يوم الجمل:

«يا حسن ليت أباك مات منذ عشرين سنة فقال له: يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا قال: يا بنى لم أر أن الأمر يبلغ هذا» .

وقال ابن سعد:

أن محمد بن طلحة تقدم فأخذ بخطام الجمل فحمل عليه رجل فقال محمد: أذكركم «حم» فطعنه فقتله ثم قال في محمد بن طلحة:

وأشعث قوام بآيات ربه ::: قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

هتكت له بالرمح جيب قميصه ::: فخر صريعا لليدين وللفم

يذكرنى «حم» والرمح شاجرا فهل تلا «حم» قبل التقدم.

على غير شىء غير أن ليس تابعا عليا ومن لا يتبع الحق يندم

فسار على ليلته في القتلى معه النيران فمر بمحمد بن طلحة قتيلا فقال يا حسن محمد السجاد ورب الكعبة ثم قال: أبوه صرعه هذا المصرع ولولا بره بأبيه ما صرع .

فقال الحسن:

ما كان أغناك عن هذا .

فقال: مالى ومالك يا حسن .

رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٥٥-٥٤ / ٥ .

وقيل: «إن أول قتيل كان يومئذ مسلم الجهنى أمره على فحمل مصحفا فطاف به على القوم يدعوهم إلى كتاب الله» .

فقيل: «وقطعت يومئذ سبعون يدا من بنى ضبة بالسيوف.... صار كلما أخذ رجل بخطام الجمل الذى لعائشة قطعت يده فيقوم آخر كأنه ويرتجز إلى أن صرخ صارخ أعقروا الجمل فعقره رجل مختلف فى اسمه وبقى الجمل والهودج الذى عليه كإنه قنفذ من النبل، وكان الهودج ملتبسا بالمدروع وداخله أم المؤمنين، وهى تشجع الذين حول الجمل فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ثم إنها رضى الله تعالى عنها ندمت وندم على رضى الله تعالى عنه لأجل ما وقع» سيرة الخلفاء الراشدين من سير أعلام النبلاء الذهبى .

وأورد الذهبى أن عائشة جعلت تقول:

(أن عثمان قتل مظلوما ، وأنا أدعوكم إلى الطلب بدمه وإعادة الأمر شورى) .

* * * * *

كلمة السيدة عائشة يوم وقعة الجمل

في هذا الموقف الحرج ألقت أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها كلمة قالت فيها:

(إن لى عليكم حق الأمومة وحرمة الموعظة لا يتهمنى إلا من عصى ربه ومات رسول الله ﷺ بين حاقنى ودافنتى وأنا إحدى نسائه في الجنة له ادخرنى ربى وسلمنى من كل بضع . . .

وبى ميز بين منافقكم ومؤمنكم وبى رخص لكم في صعيد الإيواء ثم أبى ثالث ثلاثة من المؤمنين وثانى اثنين إذ هما في الغار، وأول من سمى صديقا مضى رسول الله ﷺ راضيا عنه وطوقه الأمانة ثم اضطرب حبل الدين فمسك بطرفيه وزين له أفياءه فوقم التفاق، وغاض نبع المودة وأطفأ ماحش اليهود. وأنتم يومئذ جحظ العيون تنظرون الغدرة، وتسمعون الصيحة؛ فرأب الثانى وأودم العطلة وانتاش من المهواة؛ واجتحى دفين الداء حتى أعطى الوارد؛ وأورد الصادر؛ وعلى الناهل؛ فقبضه الله واطئا على هامات النفاق مذكيا نار الحرب للمشركين؛ وانتظمت بضاعتكم بحبله . .).

ثم ذكرت تولية عمر بن الخطاب وأثنت عليه خيرا وقالت:

(أنها ما جاءت تلتمس إثما ولا لتدلس فتنة).

وذكرت أن قولها كان صدقا وعدلا وإعذارا . . . ثم سألت الله أن يصلى على محمد، وأن يخلفه في المسلمين بأفضل خلافة المرسلين.

قال الذهبي:

إن عليا رضى الله عليه عنه وقف على خباء عائشة يلومها على مسيرها فقالت:

«يا ابن أبى طالب ملكت فاسجح» «أى قدرت فسهلا وأحسن العفو» فجهزها إلى المدينة وأعطاها اثنى عشر ألفا فرضى الله تعالى عنه وعنها) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٧٨ .

هذا التزاما منه رضى الله تعالى عنه بوصية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد روت أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت:

(ذكـر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خروج بعض أمهات المؤمنين وضحكت عائشة)

فقال لها:

(انظرى يا حميراء ألا تكوني أنت ثم التفت إلى على وقال: يا على إن وليت من أمرها فارفق بها) . رواه البيهقى دلائل النبوة ٦/ ٤١١ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«أيتكن صاحبة الجمل الأديب (الكثير دبر الشعر) يقتل حواليها قتلى كثيرون وتنجو بعد ما كادت» رواه البزار في مجمع الزوائد .

وكان عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه وهو ممن كانوا مع على رضى الله تعالى عنه **يقول على المنبر**:(أنها لزوجة النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا والآخرة) أخرجه البخارى (٣٧٧٢) والترمذى (٣٨٨٩) .

وفى الصحيح أن رجلا نال من عائشة رضى الله تعالى عنها عند عمار فقال: (أغـرب مقبوحـا أتـؤذى حبيبـة رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟) رواه

الترمذى ٣٨٨٨ .

ثم رجعت السيدة أم المؤمنين عائشة وتقول بعض الروايات:

إنها أسفت على ذهابها نحو البصرة وتلقت بعد رجوعها إلى المدينة النصيحة والعتاب ومعارضة قوية فلم تفارقها ثقتها بنفسها ولا بمكانتها الخالدة وكانت تجيب بالنثر إذا وجهوا إليها النثر، وبالشعر إذا سمعت أنهم قالوا فيها شعرا ، وقد بلغها أن الأحنف بن قيس خاطبها بأبيات:

قال فيها:

فلو كانت الأكنان دونك لم يجد ::: عليك مقالا ذو أذاه يقولها

فقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: (إلى الله أشكو عقوق أبنائى) ثم أجابته .

بقولها:

بنى أتعظ أن المواعظ سهلة ::: ويوشك أن تكتان وعرا سبيلها
ولا تنسين في الله حق أمومتى ::: فإنك أولى الناس أن لا تقيلها
ولا تنطقن في أمة لى في الخنا ::: حنيفية قد كان بعلى رسولها

وقد يلاحظ في تصرفاتها وفى كلامها وشعرها تأكيدها لمنزلتها من الأمة فهى أم المؤمنين ولها عليهم جميعا حق الأمومة ألا وهى البر والإكرام .

اعتزلت أم المؤمنين الفتنة وقرت في بيتها .

وعن ابن مليكة قال:

جاء بعلي بن أمية إلى عائشة وهى في الحج .

فقال: «قد قتل خليفتك الذى كنت تحرضين عليه» .

قالت: (برئت إلى الله من قاتله) .

وتمثلت بقول المعفر الباقلى:

فألقت عصاها واستقر بها النوى ::: كما قر عينا بالآيات المسافر

رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٤٠٨ .

وهى تعنى أن عليا رضى الله تعالى عنه استراح من متاعب الناس وقدم إلى البر بالعمل المبرور .

وفى عهد معاوية تقدمت بأم المؤمنين عائشة السن وحنكتها التجارب وأسعفها علمها وذكاؤها فعاشت حياة مطمئنة سعيدة في بيتها ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معها في البيت إلى أن التحقت به .

وروى أن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما جاء يستأذن على عائشة وهى في مرض الموت قال:

فجئت وعند رأسها عبد الله ابن أخيها عبد الرحمن فقال هذا ابن عباس يستأذن .

قالت: دعنى من ابن عباس لاحاجة لى به ولا بتزكيته فقال عبد الله: يا أمه . . إن ابن عباس من صالحى بنيك يودعك ويسلم عليك .

قالت: فائذن له إن شئت قال: فجاء ابن عباس فلما قعد قال: أبشرى فوالله ما بينك وبين أن تفارقى كل نصب وتلقى محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن تفارق روحك جسدك .

قالت: أيها يا ابن عباس .

قال: كنت أحب نساء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يكن يحب إلا طيبا ؛ سقطت قلادتك يوم الأبواء وأصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ليلقطها فأصبح الناس ليس معهم ماء فأنزل الله: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ (النساء ٤٣) .

فكان ذلك من سببك وما أنزل الله بهذه الأمة من الرخصة ثم أنزل الله تعالى براءتك من فوق سبع سماوات ، فأصبح ليس مسجد من مساجد يذكر فيها الله إلا براءتك تتلى فيه آناء الليل والنهار .

قالت: (دعني عنك يا بن عباس فوالله لوددت أني كنت نسيا منسيا) .

رواه أحمد في المسند والبخاري مختصرا والحاكم وابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٥٧ .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة قال:

حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة الله المبرأة من فوق سبع سموات فلم أكذبها الحلية ٢/ ٤٤ .

وسئل هل كانت عائشة تحسن الفرائض ؟

قال: والله لقد رأيت أصحاب محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأكابر يسألونها عن الفرائض .

وقال عطاء بن أبي رباح:

كانت عائشة أفقه الناس وأحسن الناس رأيا في العامة .

وقال الزهري:

لو جمع علم عائشة على علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل (رواه الطبراني في المعجم الكبير والحاكم في المستدرك) .

وقد روى لها عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألف ومائتا حديث وعشرة أحاديث .

اتفق البخارى ومسلم منها على مائة وأربعة وسبعين حديثا وانفرد الأول بأربعة وخمسين حديثا والثانى بمائة وسبعين .

وروى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

وقال عنها أبو موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه:

ما أشكل على أصحاب محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث قط وسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما . . . رواه الترمذى ٣٨٨٣ .

قال ابن حجر في الإصابة:

روت عائشة عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكثير الطيب وروت أيضا عن أبيها وعن عمر وفاطمة وسعد بن أبى وقاص وأسيد بن حضير وجذامة بنت وهب وحمزة بن عمرو .

وروى عنها من الصحابة:

عمرو وابنه عبد الله وأبو هريرة وأبو موسى وزيد بن خالد وابن عباس وربيعة بن عمرو الجرشى والسائب بن زيد وصفية بنت شيبة وعبد الله بن عامر بن ربيعة وعبد الله بن الحارث بن نوفل وغيرهم .

وروى عنها آل بيتها:

أختها أم كلثوم وأخوها من الرضاعة عوف بن الحارث وابن أخيها القاسم وعبد الله بن محمد بن أبى بكر وبنت أخيها حفصة وأسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر وحفيدة عبد الله بن أبى عتيق محمد بن عبد الرحمن وابنا أختها عبد الله وعروة ابنا الزبير بن العوام من أسماء عبادا وحبيبا ولدا عبد الله بن الزبير وحفيظ عبد الله عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير وبنت

أختها عائشة بنت طلحة من أم كلثوم بنت أبى بكر ومواليها أبو عمر وذكوان وأبو يونس وابن فروخ .

ومن كبار التابعين سعيد بن المسيب وعمرو بن ميمون وعلقمة بن قيس ومسروق وعبد الله بن حكيم والأسود بن يزيد وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو وائل وآخرون كثيرون .

وقال الذهبي:

(مسند عائشة يبلغ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث) .

اتفق لها البخارى ومسلم على . مائة وأربعة وسبعين حديثًا وانفرد البخارى بأربعة وخمسين وانفرد مسلم بتسعة وستين (سير النبلاء ٢/ ١٣٩) .

روى ابن أبى خيثمة عن عروة بن الزبير أن أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها قالت له: (إذا أنا مت فادفنى مع صواحبى بالبقبع) .

رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٧٧٥٧٤ .

وكانت وفاتها في رمضان ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت منه على الصحيح عند الأكثرين سنة ثمان وخمسين من الهجرة وصلى عليها أبو هريرة خليفة مروان بالمدينة .

يتضح من سياق ما تقدم أن الله عز وجل هو سبحانه وتعالى الذى أمر وحيا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحكمة أرادها جل وعلا بالزواج من أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها - فقد روى ابن عساكر بسنده:

(لما ماتت خديجة حزن عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزنا شديدا **فبعث الله جبريل فأتاه بعائشة في مهد فقال:** يا رسول الله هذه تذهب ببعض حزنك وأن في هذه خلفا من خديجة ثم ردها) .

فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختلف إلى بيت أبي بكر ويقول: «**يا أم رومان استوصى بعائشة خيرا واحفظيني فيها**» إلى آخر الحديث .

وروى الإمام أحمد والشيخان عن أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها قالت

قال لى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أريتك في المنام قبل أن أتزوجك مرتين) .

وفى لفظ (ثلاث ليال) جاءنى بك الملك في سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك فاكشف عن وجهك ، فإذا هى أنت فأقول أن يكن من عند الله يمضه .

وروى الترمذي عن أم المؤمنين عائشة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

جاءنى بك جبريل في خرقة خضراء .

فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة فلقد أراد الله عز وجل أن يمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزوجته أم المؤمنين عائشة في حديث الإفك بأقسى تجربة إنسانية يمكن أن يمر بها إنسان أو أسرة أو عائلة أو مجتمع من المجتمعات ليشكلا هما ومن حولهما من أهل وأقارب وأصحاب وأتباع للإنسانية جميعا قدوة في السلوك الإنسانى ، وكيفية التصرف خلال الأزمات والشدائد ، ولكى تستشف منها الأمة الإسلامية من بعدهما على مر العصور والأجيال الكثير من الحكم والمواعظ والعبر والسلوكيات المشروعة وغير المشروعة وقد أورد الحافظ ابن حجر . . . .

- فتح البارى ٩/ ٤٢١ - ٤٢٤- وغيره الكثير منها كما قدمنا من قبل .

كما قد نرى أن من حكمة زواج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأم المؤمنين عائشة بأمر من الله عز وجل ليظل بيت النبوة مفتوحا بعد وفاة الرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حوالى خمسين عاما مقصدا لجميع المسلمين ومنارة يستنير بها أهل العلم والفقه بما كانت تتميز به رضى الله تعالى عنها من سعة كبيرة في العلم والحفظ والفقه والحديث فهى كما قال عطاء بن أبى رباح:

(كانت أفقه الناس وأحسن الناس رأيا في العامة وكما أكد الزهرى بأنه لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل) .

وقال عنها أبو موسى الأشعرى:

(ما أشكل على أصحاب محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث قط وسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما وغيرهم كثيرون فلقد من الله سبحانه وتعالى عليها بسعة في العلم والحفظ ليس في الفقه والحديث فقط بل أيضا في الأدب وبلاغة الخطاب - وكانت شاعرة كبيرة تحفظ عشرات الآلاف من أبيات الشعر وحسبها أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقدرفيها كل ذلك حتى أنه قال: خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء) .

ورغم أن تجربة وقعة الجمل كانت تجربة قاسية أسفت عليها لخروج الأمر والأحداث عما كانت تتوقعه . . إلا أن هذه التجربة أعطت مشروعية مشاركة المرأة المسلمة العالمة الفقيهة بالرأى فيما يجرى حولها من أحداث بل ومشاركتها في سريان الأحداث ذاتها هذا في الوقت التى كانت تغط فيه المرأة غير المسلمة آنذاك في سبات الجهالة والتعصب .

* * * * *

أم المؤمنين حفصة رضى الله تعالى عنها
الستر الرفيع الصوامة القوامة

هى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما وأمها زينب بنت مظعون أسلمت حفصة، وهاجرت مع زوجها خميس بن حذافة وقد مات زوجها خميس بالمدينة بعد شهوده بدرا مع الرسول ﷺ وعلى أثر جراحات أصابته يوم بدر فلما تأيمت ذكرها عمر لعلى وأبى بكر وعثمان فلم يجبه أحد منهم فشكا إلى **رسول الله** ﷺ **فقال**: يا رسول الله عرضت على عثمان حفصة فأعرض عنى فقال رسول الله ﷺ

هل لك في خير من ذلك؟ أتزوج أنا حفصة وأزوج عثمان أم كلثوم. أخرجه في الإصابة ٥٧٨ .

وتزوج عثمان أم كلثوم بعد رقية وتزوج عليه الصلاة والسلام حفصة ثم إنه عليه الصلاة والسلام طلقها تطليقة واحدة فأتاها خالاها قدامة بن مظعون وعثمان بن مظعون فبكت **وقالت**:

والله ما طلقنى رسول الله ﷺ عن شبع .

رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٤٨ .

والشبع هو البغض أو النقص ثم رجعها رسول الله ﷺ إذ نزل عليه الوحى راجع حفصة فإنها صوامة قوامة وزوجتك في الجنة .

أخرجه البخارى ٤٩١٣ من حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما

وروى إنه لما بلغ خبر طلاقها أباها عمر حثا على رأسه التراب .

وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعد هذا .

فنزل جبريل من الغد وقال للنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إن الله يأمرك أن ترجع حفصة رحمة لعمر . رواه الطبرانى في الكبير ٢٣/٧ .

قال الذهبى:

الستر الرفيع بنت أميرالمؤمنين أبى حفصة عمر بن الخطاب تزوجها النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد انقضاء عدتها من خنيس بن حذافة السهمى أحد المهاجرين في سنة ثلاث من الهجرة .

وقال الشنقيطي:

إنها من خيرة أمهات المؤمنين عرفت بكثرة الصوم والصلاة والأمانة .

الإصابة ٧/ ٥٨٢

وعدت السيدة حفصة مع السيدة عائشة من حفظة القرآن الكريم وعندها كان المصحف الذى كتبه- بأمر من أبى بكر وعمر- زيد بن ثابت الأنصارى الذى يقول فيه **حسان بن ثابت:**

فمن للقوافى بعد حسان وابنه ::: ومن للمثانى بعد زيد بن ثابت

وكانت حفصة أيضا من اللواتى روين عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الإصابة (٧ / ٥٨٢) ولها مع رسول الله قصة مشهورة نزل فيها القرآن:

فلقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصا على إرضائها وأسر إليها حديثا قيل عنه إنه في تحريم امرأته مارية ورضيت حفصة بالحديث، وأخبرت به صديقتها عائشة رواه الطبرانى في الأوسط ١٦٤ .

ولكن الله كان لهما بالمرصاد فأمره ألا يحرم ما أحل الله له وأخبره

العليم الخبير بما كانت تتحدث حفصة وعائشة وأمرهما بالتوبة النصوح وحذرهما إن عادتا إلى التظاهر على النبى في شأن زينب بنت جحش والعسل الذى شرب عندها بالخروج من بيوت النبى وهو أشد العقاب .

وتقول بعض الروايات كما تقدم ذكره أن طلقها وأمره جبريل وحيا من الله عز وجل أن يراجعها مرضاة لعمر وتقدير لعبادتها . الاستيعاب (١٨١٢) الإصابة (٧/ ٥٨٢).

وسمع عمر رضى الله تعالى عنه قصة حفصة وأقسم لو أمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضرب عنق حفصة لفعل غير أن الأمر لم يصل إلى هذا الحد فحفصة ثابت توبة نصوحا ورضيت بالله ورسوله .

ويقص عمر بن الخطاب رضى الله عنه كيف كان يحاول أن يعرف ماذا جرى في بيوت النبى مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقول: إنه كان يسكن قرب المدينة وله صديق من الأنصار وكل منهما يبيت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة ويأتى لصاحبه بأخباره وما شعر عمر حتى أتى صاحبه يدق عليه دقا عنيفا فسأله مذعورا ماذا حدث هل غزا المدينة الغسانيون الذين كان المسلمون يتخوفون منهم آنذاك ، فقال له صاحبه: لا ، الأمر أشد من ذلك رسول الله طلق نساءه .

فتراجع عمر وقال:

(خسرت حفصة) ثم ذهب من توه إلى المدينة وصلى الصبح مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد الصلاة انفرد النبى في حجرته واستأذن عمر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يجبه غلام رسول الله فرجع إلى المسجد ، ولكنه لم يستطع الجلوس فرجع واستأذن من جديد ولكنه لم يجد جوابا فرجع إلى المسجد ثم ما لبث أن أتاه غلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤذنا له

بالدخول ودخل عمر على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ووجده مضطجعا على الأرض ولم يستطع عمر أن يجلس فبقى واقفا **وقال**: أطلقت نساءك يا رسول الله فأجابه: بلى ، فهدأ روع عمر ثم بقى واقفا مكانه وبعد ذلك **قال**:

لقد كنا يا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مكة ونحن نغلب نساءنا ولما جئنا المدينة وجدنا الأنصار نساءهم تغلبهم فأفسدوا علينا نساءنا .

فتبسم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ واستطاع عمر أن يدنو منه قليلا وقال: «**يا رسول الله قلت: لحفصة أن لا تغتر بما تفعله عائشة، لأن عائشة أجمل منها وأضوأ**» فابتسم النبى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أيضا ، واستطاع أن يجلس وأن يتناول أطراف الحديث مع رسول الله وعرف أن حفصة لم تخسر بل ستظل في بيت النبى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلقد كانت رضى الله تعالى عنها من القانتات لله ورسوله اللواتى سيجدن أجورهن مرتين فهى أم المؤمنين وبنت عمر بن الخطاب .

وتوفيت أم المؤمنين حفصة في شعبان سنة خمس وأربعين بالمدينة في خلافة معاوية وبكى عليها مروان بن الحكم أميرالمدينة وحمل سريرها بعض الطريق ثم حمله أبوهريرة إلى قبرها ، فنزل في قبرها عبد الله وعاصم أبناء عمر رضى الله تعالى عنهم وسالم وعبد الله وحمزة أبناء عبد الله بن عمر وقد بلغت ستين سنة وأوصت إلى عبد الله أخيها بما أوصى إليها أبوها عمر وتصدقت بمال لها وقفته بالغابة .

ومروياتها رضى الله عنها سبعون حديثا اتفق البخارى ومسلم منها على أربعة وانفرد مسلم بستة والباقية في سائر الكتب .

وروى عنها أخوها ابن عمر وحارثة بن وهب وشتير بن شكل والمطلب بن أبى وداعة ، وعبد الله بن صفوان الجمحى وآخرون .

ويتضح من سياق ما تقدم بعض من ملامح حكمة إلهام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للزواج من أم المؤمنين حفصة رضى الله تعالى عنها فلقد أمره عز وجل عند حدوث أول طلاق بينهما أن يراجعها لسببين رئيسين هما:

- كونها مؤمنة تقية صوامة قوامة.

- رحمة بأبيها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فلقد كان من خيرة صحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤمنين المهاجرين المجاهدين في نشر ودعم الإسلام والرسالة المحمدية في أرجاء المعمورة.

هذا ولقد كان إلهام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالزواج من أم المؤمنين بعد تأيمها يحوى درسا كبيرا وأسوة للمؤمنين في أمته يتأسون بها من مفادها:

١- ألا تترك المؤمنة المتعبدة بعد تأيمها خاصة إذا كانت في ريعان شبابها دون زواج وأن يكون اختيارها للزواج مقدمًا ومفضلاً على غيرها من النساء وخاصة إذا كانت من أسرة طيبة صالحة.

٢- مسارعة أهل المؤمنة المتعبدة بعد تأيمها إلى محاولة تزويجها من رجل طيب صالح لتكون في كنفه يعينها على استمرارية تعبدها والثبات على قيمها ومبادئها وتقواها لله جل وعلا.

كما يتضح من سياق ما تقدم من قصة أم المؤمنين حفصة مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتى أدت إلى غضب الرسول من أم المؤمنين حفصة والسيدة أم المؤمنين عائشة بل وآمر المولى عز وجل لهما بالتوبة النصوح وتحذيرهما إن عادتا إلى التظاهر على النبى في شأن أم المؤمينن زينب بنت جحش بالخروج من بيت النبى وهو أشد العقاب ملامح درس كبير للمجتمعات الإسلامية وللزوجة المسلمة المؤمنة على وجه الخصوص مفاده:

١- وجوب أن تكون الزوجة دائما أمينة على أسرار بيتها وما يسره

إليها زوجها وألا تفشى بذلك لأى إنسان آخر حتى ولو كان من أقرب الناس إليها .

٢- لا ينبغى لأى إنسان مهما كان ورعه وتقواه وصلاحه وقوة إيمانه أن يحرم على نفسه ما أحله الله له إمعانا في الورع والتقوى .

٣- إنه مهما حدث خلاف داخل الأسرة المسلمة فإنه لا ينبغى أن يتجاوز ذلك حدود الحوار الهادئ العاقل المتوازن والاحترام المتبادل وما أتى به الإسلام من أخلاقيات وفضائل وسلوكيات في إطار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٤- وأن تكون كلمة الله وأمره هى العليا في حسم أى خلاف ، وأن تكون سلوكيات الرسول فيما مر به من تجارب إنسانية وابتلاءات أسوة حسنة للمؤمنين من أمته .

٥- أن يكون لاختيار الزوجة رغبة الاستمرار في الحياة الزوجية عن طواعية كاملة أو التسريح بإحسان الاعتبار الكامل مهما كان قدر زوجها وعلو منزلته وسموها .

* * * * *

أم المؤمنين زينب بنت خزيمة رضى الله تعالى عنها
أم المساكين

هى زينب بنت خزيمة بن الحارث تزوجها عليه الصلاة والسلام في رمضان من السنة الثالثة من الهجرة تكنى أم المساكين لكثرة إطعامها إياهم . . .

ولم تلبث عند الرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا شهرين أو ثلاثة أشهر وتوفيت في حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل: مكثت عنده ثمانية أشهر في الإصابة ٧/ ٦٧٢) .

فكانت هى وخديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنهما اللتين توفيتا في حياة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين أزواجه أمهات المؤمنين

قال الشنقيطى:

هى زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف ابن هلال بن عامر بن عبد المطلب كانت عند ابن عمها جهم بن عمرو بن الحارث ثم استشهد عندها عبيدة بن الحارث يوم بدر، وذلك في مبارزة مشهورة لا تزال تتغنى بأمرها الولائد إلى اليوم .

وبعد عبيدة دخلت زينب في بيوت النبى فأجرها الله في مصيبتها ورزقها خيرا من عبيدة وقد قيل: أنها هى التى وهبت نفسها للنبى وأنزل فيها القرآن كما قبل أنها ابنة عم (ميمونة) وبعض المفسرين يقول: إن الواهبة هى أم شريك الأنصارية . تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٠ .

ومن الجائز أن يكن كلهن وهبن أنفسهن كما أن التنكير في لفظ الآية قد يدل على التعدد؛ مع أن الذى شهده العلماء أنها خولة بنت حكيم (ابن

كثير ٣/ ٤٨٠) وما لبثت زينب بنت خزيمة أن أجابت داعي ربها فكانت هي وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد اللتين توفيتا في حياة الرسول ﷺ من بين أزواجه أمهات المؤمنين فكان لهما حسن الحظ أن كان الرسول ﷺ شهيدا على حياتهما الإسلامية؛ ولقيت زينب الله وهو عنها راض ورضي الله عنها وصلى عليها رسول الله ﷺ.

قال ابن الكلبي:

كانت عند الطفيل بن الحارث، فطلقها، فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فقتل عنها يوم بدر شهيدا، ثم خلف عليها رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج أختها لأمها ميمونة.

وقال ابن أبي خيثمة:

كانت تسمى أم المساكين في الجاهلية وفي الإسلام وأرادت أن تعتق جارية لها سوداء فقال لها رسول الله ﷺ: إلا تفدين أخاك أو أختك من رعاية الغنم..... رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى.

وتتضح ملامح حكمة إلهام الرسول ﷺ بالزواج من أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بعد تأيمها باستشهاد زوجها هو تكريم الله عز وجل لها لكونها مؤمنة صابرة متعبدة عطوفة على المساكين تبذل كل ما في وسعها رغم عدم ثرائها في إطعامها إياهم عملا.

بقول الله جل وعلا في سورة البلد: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (سورة البلد ١١ - ١٦).

وليكون زواج الرسول ﷺ بها أسوة لأمته بأولوية اختيار هذا النوع من النساء كزوجات للمؤمنين وألا يتركن بعد تأيمهن وحدهن في

مواجهة مصاعب الحياة، بل ينبغى أن يتم الإسراع بتزويجهن وأن يكن في كنف رجال مؤمنين يعينوهن على تكملة أداء رسالتهن وتعبدهن حبا في الله وأسوة برسوله، فلقد كانت أم المؤمنين زينب من فضليات النساء في الجاهلية وفى الإسلام حتى كانوا يدعونها كما تقدم ذكره بأم المساكين لبرها بهم وعنايتها بشأنهم، فلم يرعها المولى عز وجل أرملة بعد استشهاد زوجها تقاسى الذل الذى كانت تجير منه الناس، فكأفاها بأن ألهم رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالزواج منها ولتتأسى بذلك أمته.

*****

أم المؤمنين أم سلمة رضى الله تعالى عنها
(لو لم يكن من فضلها إلا مشورتها على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحلق يوم الحديبية لكفاها)

هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى وكانت متزوجة قبل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أبى سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، وكانت هى وزوجها المذكور أول من هاجر إلى أرض الحبشة فولدت له بها زينب، وولدت له بعد ذلك سلمة وعمر ودرة وقيل: هى أول ظعينة (المرأة في الهودج) دخلت المدينة مهاجرة.

قال الشنقيطى:

اشتهر بنو مخزوم بالرأى والشجاعة وشاركتهم أم سلمة في رأيهم وشجاعتهم وفازت عليهم بدخولها في بيوت النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونرى شجاعتها في كونها أرادت أن تهاجر وحدها من مكة إلى المدينة ليس معها إلا ابنها سلمة بن أبى سلمة وهو يومئذ صبى، وذلك إنه لما أزمع أبو سلمة الخروج مهاجرا إلى الله ورسوله حملها على جمل هى وابنها، ولكن لما رآه بنو المغيرة منعوه، وحين غلبهم على أمره تركوه يذهب وحده وأخذوا منه زوجه أم سلمة وذهب أبو سلمة وأتى بأهله من بنى عبد الأسد بن هلال بن عبد الله وتزعوا من بنى المغيرة سلمة ابن أخيهم وحبست أم سلمة عند أهلها بنى المغيرة وفرق بينها وبين أبنها وزوجها فمكثت قريبا من سنة تخرج كل غداة إلى الأبطح فما تزال تبكى حتى المساء.

ثم رق لها بعض أهلها وأذنوا لها بالهجرة وذهبت تقصد المدينة وحدها

وتتوسل أن تبلغ بمن تلقى في الطريق وتصادف في سبيلها عثمان بن طلحة أخا بنى عبد الدار .

فسألها عن أمرها ولما عرف أبت له مروءته أن يتركها تضيع فرافقها وسار بها إلى المدينة مرافقة الكريم الأمين .

قيل في السيرة الشامية:

مات زوجها أبو سلمة سنة أربع شهد بدرا وأحدا ورمى به بسهم في عضده ، فمكث شهرا يداويه ، ثم برىء الجرح ، وبعثه عليه الصلاة والسلام هلال المحرم وبعث معه مائة وخمسين رجلا إلى قطن - جبل - نجد - فغاب تسعا وعشرين ليلة ؛ ثم رجع إلى المدينة فانتفض جرحه فمات منه لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع ، فاعتدت أم سلمة وحلت لعشر بقين من شوال من السنة المذكورة .

وكانت أم سلمة سمعت منه عليه الصلاة والسلام يقول: «ما من **مسلم تصيبة مصيبة فيقول: اللهم أجرنى في مصيبتى وأخلف لى خيرا منها. إلا أخلف الله له خيرا منها»** . فلما مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خير من أبى سلمة ، ثم أنى قلتها فأخلف الله لى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخرجة مسلم ٨١٩ / ٣ .

وروى أن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت لأبى سلمة رضى الله تعالى عنه ، بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها . وهو في أهل الجنة ثم لم تتزوج . ألا جمع الله بينهما في الجنة فتعال أعاهدك ألا تزوج بعدى ولا أتزوج بعدك . . .

قال: أتطيعينى ؟ **قالت:** نعم .

قال: إذا مت تزوجى . (اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلا خيرا

منى) . لا يحزنها ولا يؤذيها . فلما مات . قلت: من خير من أبى سلمة؟

فما لبثت . وجاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها . أو ابنها - فقالت أرد على رسول الله . أو أتقدم عليه بعيالى . ثم جاء الغد وخطب .

قيل: لما مات زوجها أبو سلمة خطبها عمر رضى الله تعالى عنة فأبت فأرسل إليها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فقالت مرحبا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . إن في خلالا ثلاثا: أنا امرأة شديدة الغيرة . وامرأة مصبية (ذات صبيان) وأنا امرأة ليس هنا أحد من أوليائى فيزوجنى .

فأتاها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «أما ما ذكرت في غيرتك فإنى أدعو الله أن يذهبها عنك. وأما ما ذكرت من صبيتك فإن الله سيكفيهم. وأما ما ذكرت من أوليائك فما أحد منهم يكرهنى» .

فقالت لابنها عمر: زوجنى عليه . (رواه أحمد في المسند ٤ / ٢٨ والنسائى في المجتبى ٣٢٥٤) .

وقيل: أنه بعدما دعا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عز وجل بإذهاب غيرتها أصبحت أم سلمة في النساء كأنها لم تكن منهن . ولا تجد ما يجدن من الغيرة .

قال أنس: إن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوج أم سلمة على متاع قيمته عشرة دراهم . (رواه الطبرانى في الكبير٣٢) .

وروى أنه: لما تزوجها نقلها إلى بيت زينب بنت خزيمة بعد موتها . فدخلت فرأت جرة فيها شعير ورحى وبرمه ، فطحنته ثم عجنته ثم عصرته في البرمة فأدمته بإهالة . (رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٩٢) .

وروى عمر الملا عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت:

كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر دخل على نسائه واحدة واحدة يبدأ بأم مسلمة لأنها أكبرهن يختم بعائشة .

وروى أبو الحسن الحليمى عن عمرو بن شبيب أنه دخل على زينب بنت أبى سلمة فحدثته أن رسول الله ﷺ كان عند أم سلمة فجعل حسنا في شق وحسينا في شق وفاطمة في حجره .

وقال: ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (سورة هود ٧٣) .

وأنا وأمى أم سلمة جالسان فبكت أم سلمة .

فقال رسول الله ﷺ إنك من أهل البيت .

وروى الإمام أحمد عن موسى بن عقبة عن أمه عن أم كلثوم .

قالت: «لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة» .

قال: «يا أم سلمة قد أهديت إلى النجاشى حلة وأواقى مسك ولا أرى النجاشى إلا قد مات ولا أرى هديتى إلا مردودة فهى لك» .

فكان كما قال رسول الله ﷺ: وردت إليه هديته فأعطى كل واحدة منهن أوقية وأعطى أم سلمة المسك والحلة ورواه أحمد في المسند ٦/ ٤٠٤ .

وروى عنها أنها قالت:

«يا رسول الله ﷺ إنى امرأة أشد ضفر رأسى أفأنفضه لفض الجنابة» ؟

فقال رسول الله ﷺ:

«لا.. إنما يكفيك أن تحثى على رأسك ثلاث حثيات ثم تفيضى الماء فتطهرى» أخرجه مسلم (٣٣٠/ ٥٨).

قال الشنقيطى:

وبعد وفاة أبى سلمة كان لها من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل خلف فكانت من أهل مشورته. (أخرجه البخارى ٣/ ١٦٤).

وكانت ممن حمل عنه العلم والحديث كما كانت ممن ثبت معه في المواقف الحرجة أتاه جبريل في بيتها ورأته وظنته دحية الكلبى - الإصابة ٢/ ٣٨٥-

فلقد مرت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوقات صعبة في جهاد المشركين، وكان من أصعبها صلح الحديبية، وثقل هذا الصلح على المسلمين وقبل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقد الهدنة مع قريش وقبل أن يرجع عن مكة، وقبل أن يرد عليهم من جاءه من مسلمى مكة ونفرت نفوس كثير من المسلمين من هذا الصلح، ولم يثبت مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الساعة إلا القليل، وكان ممن ثبت معه زوجه أم سلمة بنت أبى أمية ولما انتهى أمر الصلح أمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس أن ينحروا وأن يحلقوا.

أمرهم بذلك ثلاث مرات ولم يقم منهم أحد فدخل على أم سلمة وقص عليها ما لقى من أصحابه قالت له أم سلمة: **«أرى يا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تخرج اليهم ولا تكلم أحد منهم ثم تنحر وتدعو حالقك فتحلق»** وخرج عنها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفعل ما أشارت عليه به فنحر وحلق وبادر أصحابه إلى اتباع ما فعل فكان الرأى في هذه المرة ما أشارت به أم سلمة (البخارى ٣/ ٦٤).

وعاشت أم سلمة برهة من الزمن مع النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيوت النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانت تتزعم قسما كبيرا منهن وتتوسط إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمورهن، وكانت تسأله عن الفرائض، وتعلم سائليها وبقيت بعده نصف قرن تهدى بهدية وتحدث بحديثه ولم تتدخل في سياسة الحكم فكانت تقول أن جياد النساء غض الأطراف وضم الذيول وأنها لا تهتك حجابا ضربه عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (العقد الفريد ٥/ ٦٢)

وكان من مواليها علماء من أئمة الأمة فمنهم شيبة بن نصاح وأبو ميمونة وهما من قراء المدينة الأعلام وكانا من أشياخ نافع بن أبى نعيم المدنى المقرئ المشهور، الإصابة ٨/ ٤٢٤.

وقد كان الحسن البصرى ابن مولاة لها وتقول الروايات: (إنه كان عندها صغيرا وإذا خرجت أمه وبكى أخذته وأعطته ثديها فيدر عليه ويرضع منها اللبن يقول الناس: إن فصاحة الحسن البصرى وعلمه الواسع وورعه الشديد كل ذلك كان من بركة لبن أم سلمة، وليس هذا بغريب فطعام الطيبين بطيب وكذلك طعام الطيبات.

وفى رواية يونس بن بكير وغيره عنه: (الإصابة ٨/ ٢٢٢ - ٢٢٥)

(كانت أم سلمة موصوفة بالجمال والعقل البالغ والرأى الصائب وإشارتها على النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية، تدل على وفور عقلها وصواب رأيها روى عنها ابناها عمر وزينب وأخوها عامر وابن أخيها مصعب بن عبد الله ومكاتبها نبهان.

مواليها:

عبد الله بن رافع ونافع وسفينة وابنه وأبو كثير وخبرة والدة الحسن البصرى.

وممن يعد من الصحابة: صفية بنت شيبة وهند بنت الحارث الفراسية وقبصة بن ذؤيب وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

ومن كبار التابعين:

أبو عثمان النهرى ؛ وأبو وائل ؛ وسعيد بن المسيب ؛ وأبو سلمة ؛ وحميد ولدا عبد الرحمن بن عوف ؛ وعروة وأبو بكر بن عبد الرحمن ؛ وسليمان بن يسار ؛ وآخرون .

وكان لأم سلمة رضى الله تعالى عنها ثلاثة أولاد: سلمة أكبرهم وعمر وزينب أصغرهم وقد ربوا جميعا في حجر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقد زوج النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلمة لفاطمة ابنة حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه .

وعاش سلمة إلى خلافة عبد الملك بن مروان ولم تحفظ له رواية .

أما أخوه عمر بن أبى سلمة فله رواية: وقد توفى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وله تسع سنين ومولده كان بالحبشة واستعمله على رضى الله تعالى عنه على فارس والبحرين وتوفى بالمدينة سنة ثلاث وثمانين هجرية في خلافة عبد الملك .

وأما زينب بنت أبى سلمة فولدت بارض الحبشة وكان اسمها برة فسماها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب ، وقد تزوجها عبد الله بن زمعة الأسود الأسدى وولدت له ، وكانت من أفقه أهل زمانها رضى الله تعالى عنها .

وتوفيت أم سلمة في خلافة يزيد بن معاوية سنة إحدى وستين من الهجرة على الصحيح ، واستخلف يزيد سنة ستين- بعد ما جاءها الخبر

باستشهاد الحسين بن على رضى الله تعالى عنه لها من العمر أربع وثمانون سنة على الصواب، وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين رضى الله تعالى عنهن.

وقد أخرج مسلم ٢٨٨٢ من طريق عبيد الله بن القبطية قال:

(دخل الحارث بن أبى ربيعة وعبد الله بن صفوان، وأنا معهما على أم سلمة أم المؤمين، وكان ذلك في خلافة يزيد بن معاوية وابن الزبير فسألاها عن الجيش الذى يخسف به وكان ذلك في أيام ابن الزبير).

فقالت. قال: (رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم).

فقلت: يا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكيف بمن كان كارها.

قال: (يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته).

وتقول بعض الروايات:

(أنها توفيت عام تسع وخمسين وذلك في عهد معاوية والبعض يرى أنها أدركت خلافة يزيد بن معاوية. وهو الأرجح الذى يزيده حديث الترمذى أنها رأت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام وهو متأثر بقتل الحسين ابن على رضوان الله عليهما) في موكب السيرة من ٤٦: ٤٩.

وقال الذهبى:

(عاشت نحوا من تسعين سنة وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين عمرت حتى بلغها مقتل الحسين الشهيد فوجمت لذلك وغشى عليها وحزنت عليه كثيرا ولم تلبث بعده إلا يسيرا وانتقلت إلى رحمة الله).. سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٠٢.

ومعلوم أن الحسين رضى الله تعالى عنه استشهد لعشر خلون من المحرم سنة إحدى وستين على ما جاء في تاريخ خليفة بن خياط .

وروى الحاكم في المستدرك:

إن أم سلمة رضى الله تعالى عنها أوصت أن يصلى عليها سعيد بن زيد خشية أن يصلى عليها مروان بن الحكم وسعيد هو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

ولما ماتت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله تعالى عنها دفنت بالبقيع وصلى عليها سعيد بن زيد رضى الله تعالى عنه وقيل أيضا أبوهريرة رضى الله تعالى عنه وكان عمرها أربعًا وثمانين سنة على الأرجح . (الإصابة لابن حجر)

هذا ويتضح في سياق ما تقدم أن إلهام الله جل وعلا للرسول ﷺ بالزواج من أم المؤمنين أم سلمة بعد تأيمها باستشهاد زوجها على إثر جرح إصابة يوم أحد يحوى درسا كبيرا وأسوة للمؤمنين في الأمة الإسلامية يتأسون بها من مفادها:

١- ألا تترك المؤمنة بعد تأيمها خاصة إذا كانت على قدر من الجمال وفى ريعان شبابها مع صغارها يواجهون ظروف الحياة وفتنتها وقسوتها دون عائل أو راع مؤمن يعيشون في كنفه ، حتى ولو أن هذه المؤمنة كانت تحب زوجها المتوفى وتجله ، فإن تجنيبها مرارة قسوة الحياة وفتنتها وزينتها وإحتفاظها بإيمانها مقدم على ما سواه .

٢- ألا تترك صغار المؤمن بعد وفاته أو استشهاده عرضة لمواجهة قسوة الحياة والتشريد والضياع ، بل يجب أن يكونوا في كنف عائل مؤمن حفاظا على استمرار تنشئتهم التنشئة الإيمانية الصالحة - فلقد رأينا من سياق

ما تقدم أن صغار أبى سلمة رضى الله تعالى عنه تربوا في حجر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكفل الرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتزويج سلمة وكان من خيرة شباب المؤمنين بفاطمة ابنة حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه وأستعمل على رضى الله تعالى عنه عمرو بن أبى سلمة على فارس والبحرين لفقهه وتقواه وصلاحه كما تزوجت زينب بنت أبى سلمة من رجل صالح من خيرة التابعين هو عبد الله بن زمعة الأسدي وكانت رضى الله تعالى عنها من أفقه أهل زمانها .

٣- أن يسارع المؤمنون القادرون في عرض الزواج على المؤمنة بعد تأيمها حفاظا عليها وعلى صغارها اقتداء برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فلقد رأينا عرض أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما وهما من خيرة الصحابة المقربين والمؤمنين عرضا الخطبة على أم سلمة رضى الله تعالى عنها بعد وفاة زوجها ، ولم تقبل مما يؤكد أيضا على الحرية التامة للمؤمنة أو المسلمة في إختيارمن تتزوجه دون أى مساس بحرية الاختيار .

٤- إن من الدعاء المستجاب للمؤمن أو المؤمنة عندما تواجهه مصيبة ما قاله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول: أللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها**» .

فلقد روى عن أم سلمة أنها سمعت هذا الحديث من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما مات أبو سلمة قالت: أى المسلمين خير من أبى سلمة؟

فلم يكن يدور بخلدها أبدا أن الرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيعرض عليها الزواج منه ولكنها في ذات الوقت كانت تردد الدعاء بأن يأجرها الله في مصيبتها ويخلف لها خيرا منه فأخلف الله عز وجل لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما قد ترى من ملامح حكمة إلهام العليم الخبير سبحانه وتعالى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالزواج من أم المؤمنين أم سلمة ما يلى أيضا:

٥- إن المتأمل فيما قدمنا من السيرة الذاتية لأم سلمة رضى الله تعالى عنها يبدو له جليا أنها كانت امرأة على قدر كبير من الإيمان والثبات على المبدأ وتتمتع بقوة الشخصية والعقل الراجح وذات فضل ومشورة ولقد رأينا من سياق ما تقدم أنها كانت رضى الله تعالى عنها من أهل مشورة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وممن حمل عنه العلم والحديث - وكانت ممن تثبت معه في المواقف الحرجة - فلقد مرت على الرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوقات صعبة في جهاد المشركين وكان من أصعبها صلح الحديبية - كما تقدم ذكره - إذ ثقل هذا الصلح على المسلمين ونفرت نفوس كثير من المسلمين منه - فلم يكونوا قد تبينوا حكمته بعد - ولم يثبت مع رسول الله إلا القليل وكان ممن ثبت معه زوجة أم سلمة رضى الله تعالى عنها بل أشارت عليه عندما شكا إليها ما لقى من أصحابه من أنه أمرهم أن ينحروا وأن يحلقوا ولم يقم منهم أحد بأن يخرج إليهم ولا يكلم أحدا منهم ثم ينحر ويدعو حالقه فيحلق - وفعل ما أشارت عليه به فبادر أصحابه إلى أتباع ما فعل - فكان الرأى في هذه الأزمة ما أشارت به أم سلمة ، فلو لم يكن من فضلها إلا مشورتها على الرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحلق يوم الحديبية لكفأها .

٦- أن تظل بيوت النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته مفتوحة لفترة من الزمن لتظل مقصدا لجميع المسلمين ومزارات يستنير بها أهل العلم والفقه والحديث ونساء المؤمنين إذ أن ترك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بعده تسع أمهات للمؤمنين يعلمنهم يعلمن نساءهم من الأحكام ما يليق بهن وما ينبغى أن يتعلمنه من النساء دون الرجال أفضل بكثير من ترك واحدة فقط أو اثنتين فما كان ذلك ليغنى في الأمة غناء التسع .

ولقد كانت رضى الله تعالى عنها تعد من فقهاء الصحابيات ، ويبلغ مسندها كما قال الذهبى ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثا .

واتفق البخارى ومسلم لها على ثلاثة عشر وانفرد البخارى بثلاثة ومسلم بثلاثة عشر فقد عاشت فترة من الزمن في بيوت النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانت تتزعم قسما كبيرا منهن ، وتتوسط إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمورهن وأمور المسلمين وكانت تسأله عن الفرائض وتعلم سائليها كما تقدم ذكره وبقيت بعده نصف قرن تهدى بهديه وتحدث بحديثه .

وروى عنها أبناؤها:

عمر وزينب وأخوها عامر وابن أخيها مصعب بن عبد الله ومكاتبها نبهان وكان من مواليها علماء من أئمة الأمة منهم شيبة بن نصاح وأبو ميمونة وعبد الله بن رافع ونافع وسفينة وابنه وأبو كثير وخيرة والدة الحسن البصرى .

وممن يعد في الصحابة صفية بنت شيبة وهند بنت الحارث الفراسية وقبيصة بنت ذؤيب وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومن كبار التابعين أبو عثمان النهدى وأبو وائل وسعيد بن المسيب وولدا عبد الرحمن بن عوف أبو سلمة وحميد وعروة وأبو بكر بن عبد الرحمن وسليمان بن سبأ وآخرون . الإصابة ٥/ ٢٢٢ -٢٢٥ .

* * * * *

أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها
(زوجها الله تعالى برسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنص بلا ولى ولا شاهد)

هى زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبيرة بن مرة بن كثير ابن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة أمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (الاستيعاب ٤/ ١٨٤٩).

كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجها من زيد بن حارثة فمكثت عنده مدة ثم طلقها فلما انقضت عدتها منه. **أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾** (سورة الأحزاب ٣٧).

فجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل عليها بغير إذن ولى ولا شاهده.

وكانت أم المؤمنين زينب تفتخر بذلك وتقول: (زوجنى الله من فوق سبع سماوات) أخرجه البخارى.

وقال المنافقون: (حرم محمد نساء الولد وقد تزوح امرأة ابنه) وكان زيد بن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آنذاك بالتبنى.

فأنزل الله جل وعلا: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب ٤٠).

وغير خاف أن في هذه الآية إشارة خفيفة إلى أنه لن يعيش ابنا من الأبناء الذكور لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يصل لسن الرجولة وهو ما قد كان فعلا فلقد مات كل أبنائه الذكور أطفالا.

وروى ابن أبى شيبة وابن منيع بسند صحيح عن أنس قال: «أولم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على زينب فأشبع المسلمين خبزا ولحما ثم

خرج فصنع كما كان يصنع إذا تزوج فأتى أمهات المؤمنين فسلم عليهن وسلمن عليه ودعا لهن ثم رجع وأنا معه» .

وعن أنس قال:

لما تزوج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام . . . وقام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت، فأخبرت النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم انطلقوا فجاء حتى دخل .

فذهبت لأدخل فالقى الحجاب بينى وبينه **فأنزل الله تعالى:**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب ٥٣) .

وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت:

(كانت زينب هى التى تسامينى من أزواج النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنزلة عنده عليه الصلاة والسلام وما رأيت امرأة قط خيرا من زينب وأتقى لله وأصدق حديثا أو صلة للرحم وأعظم صدقة) أخرجه مسلم ٢٤٢٢ / ٨٣ .

وفى مختصر سيرة البرماوى:

أن الرسول صلى الله عليه وسلم تزوجها هلال ذى القعدة سنة أربع من الهجرة وهى بنت خمس وثلاثين سنة يومئذ .

قال الشنقيطى: قبل هذا الزواج تحرج النبى صلى الله عليه وسلم من زينب ؛ فأمر زيدا أن يمسكها عليه ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى زوجها له: ﴿**لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا**﴾ (سورة الأحزاب ٣٧) .

وقد أنعم الله على زيد بهذا الذكر، وأنعم عليه رسوله بالحرية وبالهداية إلى الإسلام، فرضى ألا يتمسك بزينب، ورضى أن يختار لها ما اختاره الله سبحانه وتعالى .

ثم أبدى الله ما كان أخفاه النبى صلى الله عليه وسلم خشية أن يقول الناس أنه تزوج زوجة ابنه، وكان في الآيات التى نزلت عليه في أمرها نوع من العتاب حتى إن **عائشة كانت تقول:**

(ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما آية لكتم هذه الآية التى نزلت في أمر زينب) . رواه الترمذى ٢٠٨ .

لكن الله يعلم ما في قلب رسوله ويعلم عصمته وأنه لا يخشى غيره وكفى به حسيبا .

وقد أقر الله تعالى هذا الزواج، ورضى به لرسوله، وأراد أن يطمئن إليه نبيه صلى الله عليه وسلم . ونهى الناس أن ينسبوا إليه من ليس بابنه وألا يؤذوه وألا يغشوا بيوته من غير إذن فإذا كان الرسول يدعوهم إلى بيته ومأدبه ويستحى من إخراجهم عنه، فإن الله لا يستحي من الحق، وينهاهم عن الدخول على الرسول بلا إذن، ويأمرهم ألا يستأنسوا بالحديث في بيته

وألاَّ يسألوا نساءه متاعا إلا من وراء حجاب .

كل هذه الأوامر والنواهى قد نزلت في شأن أم المؤمنين زينب بنت جحش التى أراد الله لها أن تطمئن في بيت نبيه، وأن تعيش أياما ملؤها السعادة والسرور .

وكانت أم المؤمنين زينب بنت جحش أهلا لهذا الامتنان، قال النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّها كانت أوَّاهة . .

وقالت أم سلمة: أنها كانت متعبدة تتصدق بعملها . (الإصابة ٧/ ٦٦٨)

وقالت عائشة: أنها قد عصمها التقى والورع . . (البخارى ٤١٤١)

ونعرف من عائلتها أخويها عبيد الله الذى هاجر إلى الحبشة وعبد الله

وروى أبو يعلى بسند حسن عن أبى برزة رضى الله تعالى عنه قال: (كان لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسع من النساء فقال يوما: خيركن أطولكن يدا فقامت كل واحدة تضع يدها على الجرار .

فقال: لا لست أعنى هذا أصنعكن يدين) .

وروى أبو يعلى (٧٤٣٠) بلفظ لست أعنى هذا، ولكن أصنعكن يدين (وذكره الهيثمى في مجمع الزوائد ٩/ ٢٥١)

وأخرجه مسلم ٢٤٥١/ ١٠١ بلفظ: (أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا) ورواية البخارى ١٤٢٠ بلفظ فكانت سودة اطولهن يدا .

وروى الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أولكن لحاقا بى أطولكن يدا .

قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا

قالت: وكانت أطولنا يدا زينب ؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق .

وقالت: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا في وفاته عليه الصلاة والسلام نمد أيدينا في الجوار نتطاول؛ فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش وكانت امرأة قصيرة ولم تكن بأطولنا فعرفنا حينئذ أن النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما أراد طول اليد بالصدقة. (رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٥).

وروى الطبرانى عن راشد بن سعد قال: دخل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزله ومعه عمر بن الخطاب، فإذا هو بزينب وهى تدعو في صلاتها.

فقال النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنها لأواهة».

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: «لقد ذهبت زينب حميدة فقيدة مفزعا لليتامى والأرامل».

وروى ابن الجوزى عن عبد الله بن رافع عن برزة بنت رافع قالت:

لما جاءنا العطاء بعث عمر إلى زينب بنت جحش بالذى لها فلما أدخل عليها قالت:

"غفر الله لعمر غيرى من أخواتى أقدرمنى على قسم هذا".

قالوا: هذا كله لك فاقبضى منه قبضة فاذهبى بها إلى بنى فلان وبنى فلان من أهل رحمها وائتيناهم فغرفته حتى ما بقى منه بقية تحت الثوب.

فقالت لها برزة بنت رافع:

غفر الله لك يا أم المؤمنين والله لقد كان لنا في هذا حق.

قالت: لكم ما تحت الثوب.

فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهما، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: (اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا) فماتت قبله رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٠٩.

قال الذهبي:

وكانت من سادة النساء دينا وورعا وجودا ومعروفا رضى الله تعالى عنها وحديثها في الكتب والسنة.

روى عنها:

ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش وأم المؤمنين أم حبيبة وزينب بنت أبى سلمة وأرسل عنها القاسم بن محمد.

ولما ماتت رضى الله تعالى عنها أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مناديا: «**ألا يخرج معها إلا ذو محرم**» فقالت بنت عميس: يا أمير المؤمنين ألا أريك شيئا رأيت الحبشة تصنعه بنسائهم ؟ فجعلت نعشا وغشته ثوبا.

فقال: ما أحسن هذا وأستره وأمر مناديا فنادى: «**أن أخرجوا على أمكم**» رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١١١

وقد توفيت أم المؤمنين زينب بنت جحش لعشرين سنة خلت من الهجرة.

(الإصابة ٧/ ٦٦٨)، وكانت أول نساء النبى لحوقا به وأطولهن يدا بالصدقة والإحسان ولما رأى. **الخليفة عمر بن الخطاب نعشها محمولا قال:** (نعم خباء الظعينة) وقد أثنت أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر على دينها الذى عصمها من كل مكروه وكيف لا؟ وهى التى اختارها الله لنبيه وأنزل في شأنها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة.

ومن سياق ما تقدم تتبين لنا بعض ملامح الحكم من تزويج الله عز وجل رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأم المؤمنين زينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد الذى تبناه **الرسول** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فترة من الزمن ومن هذه الملامح:**

١- إبطال تلك البدع الجاهلية التى كانت لاحقة ببدعة التبنى كتحريم التزوج بزوجة المتبنى بعده وغير ذلك .

٢- عدم نسبة الأبناء لغير آبائهم .

٣- أن يكون قول الحق مقدمًا على الاستحياء من الناس ؛ لأن خشية الحق سبحانه وتعالى أولى وأحق من خشية الناس .

٤- إن من آداب الزيارة حياء المسلم الضيف بألا يدخل على مضيفه في بيته دون أن يؤذن له ، وألا يطيل في الزيارة أو في الحديث دون طائل ، وإذا أحس برغبة مضيفيه في انتهاء الحديث ، أو الزيارة ، فعليه أن يبادر فورا في الاستئذان والخروج .

٥- لا ريب في نزول الآية ٣٧ من سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَـمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْـمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ (سورة الأحزاب ٣٧) .

فيه نوع من العتاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه في ذات الحين يؤكد بدلالة قاطعة على صدقه وأمانته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نقل ما يوحى به الله جل وعلا إليه فلو كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاتما آية لكتم هذه الآية التى نزلت في أمر أم المؤمنين زينب . كما تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

* * * * *

أم المؤمنين جويرية رضى الله عنها
(أعظم امرأة على قومها بركة)

هى جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار المصطلقية كانت قد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى في غزوة بنى المصطلق سنة خمس وكاتبت ثابتا على نفسها .

ثم جاءت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت:

يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث، وكان من أمرى ما لا يخفى عليك ووقعت في سهم ثابت بن قيس، وإنى كاتبت على نفسى فجئت أسألك في كتابتى .

فقال لها: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل لك فيما هو خير لك .

قالت: وماهو يا رسول الله .

قال: أوفى عنك كتابك وأتزوجك .

قالت: قد فعلت .

وتسامع الناس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوج جويرية ، فأرسلوا ما بأيديهم من السبى ، فأعتقوهم وقالوا: أصهار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(نساء النبى لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى) .

وقد أورد ابن هشام رواية ثانية مفادها أن:

برة بنت الحارث جويرية فيما بعد سبيت أثناء غزوة بنى المصطلق فلما قدم النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغزو أقبل الحارث بن ضرار بفدائها ، ولما وصل العقيق رغب في بعيرين من الإبل التى ساقها للفداء فغيبهما في

شعب من شعاب العقيق ثم **أتى النبى** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وقال:**

يا محمد لقد أصبتم ابنتى وهذا فداؤها .

فقال له النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أين البعيران اللذان غيبت بالعقيق؟

فقال الحارث:

«أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله» فأسلم الحارث وقومه وخطب عنده النبى جويرية فزوجها منه .

وقال ابن هشام ومقاتل:

اشتراها عليه الصلاة والسلام من ثابت ، وأعتقها وتزوجها وأصدقها أربعمائة درهم وروى أن سعدًا عن أبى قلابة قال: جاء أبو جويرية فقال: **(لا يسبى مثلها فخل سبيلها)** .

فقال عليه الصلاة والسلام: «بل أخيرها» .

قال: قد أحسنت .

فأتى أبوها إليها فقال: أن هذا الرجل قد خيرك فلا تفضحينا .

قالت: «إنى أختار الله ورسوله» .

وروى الطبرانى برجال الصحيح عن الشعبى قال:

كانت جويرية ملك النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعتقها وجعل عتقها صداقها وأعتق كل أسير من بنى المصطلق .

قالت أم المؤمنين عائشة:

فما رأيت امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها أعتق بسببها مائة أهل بيت من بنى المصطلق .

أخرجه أبو داود من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها

وروى الطبراني في الكبير ٢٤/ ١٥٥ برجال الصحيح عن مجاهد قال: قالت جويرية لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن أزواجك يفخرن على ويقلن: **لم يتزوجك رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فقال: ألم أعظم صداقك ألم أعتق أربعين من قومك ؟

قال الذهبى:

جاء لها سبعة أحاديث منها عند البخارى حديث وعند مسلم حديثان

وحدث عنها: ابن عباس وعبيد بن السباق وكريب ومجاهد وأبو أيوب يحيى بن مالك الأزرى وآخرون .

وقد توفيت أم المؤمنين جويرية رضى الله تعالى في ربيع الأول سنة خمسين وقبل ست وخمسين ، وصلى عليها مروان بن الحكم وهو أمير المدينة وقد بلغت من العمر سبعين عاما .

ومن ملامح الحكمة في إلهام العليم الخبير سبحانه وتعالى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الزواج من جويرية بنت الحارث سيد قومه بنى المصطلق ما يلى:

١- ادخال بنى المصطلق في الإسلام بعد أن كانوا من ألدِّ خصومه وأعدائه بدعوتهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولفت نظرهم وسائر العرب والناس إلى أخلاقيات الإسلام من العفو عند المقدرة والحلم والتسامح والحياء والإيثار ، وأن الدعوة إلى دين الله الواحد الأحد الصمد رب العالمين والاقتداء بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقدم على أى اعتبار .

فلقد أسر المسلمون من بنى المصطلق مائتي بيت بالنساء والذرارى

فأراد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعتق المسلمون هؤلاء الأسرى ليدخلوا جميعا عن طواعية في دين الله ، فألهمه المولى جل وعلا ، بالزواج من سيدتهم فقال الصحابة عليهم رضوان الله: أصهار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاينبغى أسرهم وأعتقوهم حبًا في الله ورسوله فأسلم بنو المصطلق لذلك أجمعون وصاروا عونا للمسلمين بعد أن كانوا محاربين لهم وعونًا عليهم .

٢- أن تكون لأخلاقيات الإسلام الاعتبار الأول عند التعامل مع خصوم الإسلام ، وما يقع في أيديهم من أسرى الكفار والمشركين ، لأن الأصل في الدعوة إلى دين الله الحكمة والموعظة الحسنة ، وإبداء فضائل الإسلام ودلائل عظمة رسالته ، وما ينفرد به عن سائر الديانات .

٣- إنه ينبغى على المسلم مراعاة أقدار الناس عند التعامل معهم حتى ولو كانوا من غير المسملين أو خصوم دينه ، وخاصة عند وقوعهم أسرى لديه وأن يتعامل معهم بسمو أخلاقيات الإسلام .

*****

أم المؤمنين حبيبة بنت أبى سفيان
أقرب نسائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسبا وأكثرهم صداقا

هى أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس وأمها صفية بنت أبى العاص، وكانت متزوجة من عبيد الله بن جحش وقد هاجر معها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فرارا من طغيان وبطش مشركى وكفار قريش، وكان أبوها أبو سفيان بن حرب آنذاك من رؤوسهم.

وفى أرض الحبشة تنصر زوجها عبيد الله وارتدَّ عن الإسلام والعياذ بالله أما هى رضى الله تعالى عنها فقد ثبتت على الإسلام.

وروى عنها رضى تعالى عنها أنها رأت في المنام عبيد الله زوجها بأسوأ صورة وأشوهها ففزعت.

وقالت تغيرت والله حاله:

فإذا هو يقول حيث أصبح: (إنى نظرت في الدين، فلم أر دينا خيرا من النصرانية، وكنت قد دنت بها، ثم دخلت في دين محمد، وقد رجعت فأخبرته بالرؤيا فلم يحفل بها وأكب على الخمر).

قالت فرأيت قائلا يقول:

يا أم المؤمنين ففزعت فأولتها أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتزوجني

(والقصة بطولها في طبقات ابن سعد/ ٩٧ والمستدرك - ٤/ ٢٠/ ٢٢)

ولقد صدقت رؤيا أم المؤمنين أم حبيبة، فقد عقد عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأرض الحبشة سنة ست (الاستيعاب).

فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ليخطبها عليه فزوجه إياها ، وأصدقها النجاشى عنه عليه الصلاة والسلام أربعمائة دينار . (رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى - ٨/ ٩٨ والحاكم في المستدرك ٤-٢٢) .

وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة .

كما روى أن النجاشى أرسل إليها جارية أبرهة فقالت لها:

(إن الملك يقول لك: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إلى أن أزوجك منه) فإرسلت أم حبيبة إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته (ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٩٩) .

وأعطت جارية أبرهة سوارين وخواتم من فضة سرورا بما بشرتها به فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا فخطب النجاشى فقال: «**الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزير الجبار، أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**» .

أما بعد فقد أوجبت ما دعا إليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد أصدقتها أربعمائة دينار ذهبا ثم سكب الدنانير بين يدى القوم .

ثم قام خالد بن سعيد بن العاص رضى الله عنه فقال:

(. . . . الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون) أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان فبارك الله

لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ودفعت الدنانير إلى خالد فقبضها ؛ ثم أرادوا أن يقوموا ؛ فقال النجاشى اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا - رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨- ٩٨ والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٢ - .

وكان ذلك في المحرم سنة ست من الهجرة ، وقيل سنة سبع على ما قاله الشمس البرماوى ، وكان أبوها أبو سفيان حال زواجها مشركا محاربا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وروى ابن سعد قال:

قدم أبو سفيان بالمدينة ، فأراد أن يزيد في الهدنة فدخل على ابنته أم حبيبة ، ولما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طوته ودونه

فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه؟

قالت: بل هو فراش رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنت إمرؤ نجس مشرك .

فقال: لقد أصابك بعدى شر - الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٩ الإصابة ٧ / ٦٥٣ السيرة النبوية لابن هشام ٤ ١٣ - أعلام النساء ١/ ٤٦٤ - .

قال ابن حجر في الإصابة:

روت أم حبيبة عن النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديث وعن زينب بنت جحش أم المؤمنين .

وروت عنها ابنتها حبيبة وأخواها معاوية وعتبة وابن أخيها عبد الله ابن عتبة بن أبى سفيان وسفيان بن سعيد بن المغيرة بن الأخنس الثقفى وهو ابن أختها . ومواليها:

سالم بن سوال وأبو الجراح وصفية بنت شيبة وزينب بنت أم سلمة

وعروة بن الزبير وأبو صالح السمان وآخرون .

وأخرج ابن سعد من طريق عوف بن الحارث عن عائشة فقالت:

دعتنى أم حبيبة عند موتها فقالت:

قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ؛ فتحللينى من ذلك فحللتها واستغفرت لها فقالت: «**سررتنى سرك الله**» وأرسلت إلى أم سلمة بمثل ذلك ، وماتت أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله تعالى عنها بالمدينة سنة أربع وأربعين ، في روايات ابن سعد وابن الجوزى وابن الأثير واليافعى والحاكم وابن عساكر وغيرهم .

ويتضح من سياق ما تقدم ملامح حكمة إلهام المولى عز وجل لرسول الله ﷺ بالزواج من أم المؤمنين أم حبيبة وهى لا تخفى على إنسان عرف سيرتها الذاتية ، وعرف مدى عداوة قومها في الجاهلية والإسلام لبنى هاشم بزعامة أبيها أبى سفيان بن حرب ، ومدى ما كانوا يكنون به من كراهية وعداوة لرسول الله ﷺ قبل إسلامهم ، وانتقال هذه الكراهية إليها بعد إسلامها في بدء الدعوة وهجرتها إلى الحبشة ، فرارا بدينها ، ومما زاد الأمور تعقيدا تنصر زوجها ، وارتداده عن الإسلام فكان لابد من إنقاذها من الفتنة وتكريمها في ذات الوقت وإعلاء قدرها لثباتها على دينها .

كما أنه غير خاف أن مصاهرة الرسول ﷺ لأبى سفيان بن حرب أحد زعماء قريش ، وزعيم الأمويين وكقائد رؤوس الشرك في الجاهلية المعادين للإسلام فيه تأليف للقلوب .

ولا ريب أن علم أبى سفيان وقومه بتوكيل رسول الله ﷺ للنجاشى ملك الحبشة بعد إسلامه بتزويجه أم المؤمنين بنت أبى سفيان وإشراف النجاشى ملك الحبشة بنفسه على هذا الزواج وخطابه الرائع في هذه المناسبة

وإقامة وليمة كبيرة للمسلمين المهاجرين في الحبشة وغيرها من احتفال بذلك قد أثلج صدورهم، وأعلى من قدر أم حبيبة وقدر الدين الذى ثبتت عليه وضحت وجاهدت من أجله ورسول هذا الدين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذى عقد عليها وتزوجها لإنقاذها من الفتنة وتكريمها وإعلاء قدرها لثباتها على دينها، وإن لم يفصحوا بها فهذه هى طبائع البشر، بل أقول:

إنه زاد من علو هذا القدر والمنزلة عند أبى سفيان رفضها رضى الله عنها له عندما قدم أبو سفيان للمدينة بأن يجلس على فراش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن طوته دونه باعتبار أنه مشرك والشرك نجاسة.

كما أنه غير خاف أن تكرست هذه الألفة بعد إسلام أبى سفيان وبنى أمية وتكريم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له عند فتح مكة بأن جعل من يدخل بيته في مكة فهو آمن.

يؤكد ذلك ما كان يفخر به أبو سفيان وولداه معاوية وعتبة وسائر بنى أمية بعد إسلامهم بكونهم أصهارًا للنبى خاصة بعد أن ظل أحد بيوت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، وبعد وفاته الذى تسكنه أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان مقصدا للمسلمين عامة، ولبنى أمية خاصة ومنارة من المنارات التى يستنيرون بها، فقد روت رضى الله تعالى عنها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش خمسة وستين حديثا وروت عنها ابنتها حبيبة وأخواها معاوية بن أبى سفيان، وعتبة بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما وابن أخيها عبد الله بن عتبة، وابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة ومواليها صفية بنت شيبة وعروة بن الزبير بن العوام وزينب بنت أم سلمة وأبو الجراح وأبو صالح وسالم بن سوال وآخرون.

* * * * *

أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله تعالى عنها
(أبوها هارون وعمها موسى وزوجها محمد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

هي صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية بن ثعلبة بن عبيد من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران عليه السلام وأمها ضرة ابنة السموال .

قال الذهبي:

صفية أم المؤمنين بنت حيي بن أخطب بن سعية من سبط اللاوي ابن نبي الله إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ثم من ذرية رسول الله هارون عليهم السلام . (سير أعلام النبلاء - ٢/ ٢٣١)

كانت متزوجة من كنانة بن أبي الحقيق الذي قتل يوم خيبر في المحرم سنة سبع من الهجرة .

قال أنس:

لما فتح رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر وجمع السبي جاءه دحية بن خليفة الكلبي **فقال:**

يارسول الله أعطني جارية .

فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اذهب فخذ جارية»** فأخذ صفية بنت حيي فجاء رجل إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير وما تصلح إلا لك .

قال: أدعوه بها فجاء بها فلما نظر إليها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: خذ جارية من السبي غيرها .

قال: فأعتقها وتزوجها .

فقال له ثابت: يا أبا حمزة يعني أنس بن مالك فإنه كان يكنى بأبي حمزه وهو الراوي: ما أصدقها ؟

قال: نفسها أعتقها وتزوجها ثم نادى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كان عنده شيء فليجئ به .

قال: فبسط نطعا فجعل الرجل يجيء بالأقط ، وجعل الرجل يجيء بالتمر وجعل الرجى يجيء بالسمن فحاسوا حيسا ، فكانت وليمة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وفي رواية: قال الناس: (لا ندرى أتزوجها أم اتخذها أم ولد ؟)

قالوا: إن حجبها فهي امرأته ، وإن لم يحجبها فهي أم ولد فلما أراد أن يركب حجبها ورجعنا إلى المدينة ، فرأيته عليه الصلاة والسلام يحوى لها وراءه بعباءة ثم يجلس عند بعيرها فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب ثم انطلقت حتى إذا رأينا جدر المدينة هششنا إليه فرفعنا مطايانا ورفع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مطيته (وصفية خلفه قد أردفها) .

قال: فعثرت مطيه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسترها .

قال: فدخلنا المدينة ، فخرج جواري نسائه يتراءينها ويشمتن بصرعتها .

رواه الشيخان وهذا لفظ مسلم .

وروي جابر:

إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى صفية يوم خيبر وأنه قتل أباها وأخاها ، وأن بلالا مرابها بين المقتولين وأن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرها بين أن يعتقها فترجع إلى من بقي من أهلها ، أو تسلم فيتخذها لنفسه .

فقالت: أختار الله ورسوله ، أخرجه في الصفوة .

وأخرج تمام في فوائده من حديث أنس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: هل لك في ؟

قالت: يارسول الله لقد كنت أتمنى ذلك في الشرك ، فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام .

وأخرج أبو نعيم من حديث ابن عمر:

"رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعين صفيه حضرة" .

فقال: ما هذه الخضرة ؟

فقالت: كان رأسي في حجر أبي الحقيق ، وأنا نائمة فرأيت قمرا وقع في حجري فأخبرته بذلك فلطمني . . وقال: (تمنين ملك يثرب) .

- رواه الطبراني في الكبير - ٢٤/ ١٧٧ -

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد - ٩/ ٢٥٤- صحيح .

وفي رواية قالت: ما رأيت أحسن خلقا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأيته ركب بي من خيبر على عجز ناقته ليلا ، فجعلت أنعس فيضر رأسي مؤخر الرحل .

فيقول: يا هذه مهلا يا ابنة حيي" .

حتى إذا جاء سد الصهباء قال: أما إني أعتذر يا صفية مما صنعت بقومك ، إنهم قالوا لي كذا وكذا " - رواه الهيثمي في مجمع الزوائد - ٩/ ٢٥٥-" .

ورواه أبو يعلى بلفظ: إن أباك ألب على العرب وفعل وفعل وأن قومك صنعوا كذا وكذا . أبو يعلى - ٧١٢٠ .

وبنى بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بلغ سد الصهباء فصنع حيسا في نطع وأمرني فدعوت له من حوله، فكانت تلك وليمة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وروى عن صفية رضي الله تعالى عنها قالت:

دخل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أبكي فقال:

يا ابنة حيي ما يبكيك؟

قلت: ما بلغني أن حفصة وعائشة تناولان مني وتقولان: وإنا نحن خير منها نحن بنات عم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأزواجه .

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا قلت لهن: كيف تكن خيرا مني، وأبي هارون وعمي موسى، وزوجي محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟» رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٢٧ .

وذكر ابن سعد من طريق عطاء بن يسار قال:

(لما قد مت صفية من خيبر أنزلت في بيت لحارثة بن النعمان فسمع نساء الأنصار فجئن ينظرن إلى جمالها ، وجاءت عائشة منتقبة فلما خرجت خرج النبي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إثرها فقال:

كيف رأيت يا عائشة ؟

قالت: رأيت يهودية .

فقال: لا تقولي ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها) .

- رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٢٦ .

وأخرج بسند صحيح من مرسل سعيد بن المسيب فقال:

(قدمت صفية وفي أذنها خرصة من ذهب فوهبت منه لفاطمة ولنساء

معها) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٢٧ .

وقال ابن سعد أيضا: أخبرنا عفان: حدثنا حماد، عن ثابت عن سمية، عن عائشة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في سفر فاعتل بعير لصفية، وفي إبل زينب بنت جحش فضل .

فقال لها: إن بعيرا لصفية أعتل لو أعطيتها بعيرا .

فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية فتركها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذا الحجه والمحرم شهرين أو ثلاثة لا يأتيها .

قالت زينب: حتى يئست منها . رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى - ٨/ ١٢٦، ١٢٧ .

وأخرج ابن سعد بسند حسن عن زيد بن أسلم قال:

اجتمع نساء النبي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضه الذي توفي فيه واجتمع إليه نساؤه . **فقالت صفية بنت حيي:**

(إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بى) .

فغمزت أزواجه ببصرهن . **فقال:** (مضمضن) .

قلن: من أي شيء يا رسول الله ؟

فقال: من تغامزنكن بها والله أنها لصادقة ؟

- رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٢٧ .

وقال الشنقيطي:

ولما أسلمت صفية نسيت كل شيء من أمر قومها وانمحت في بيوت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ومن الطريف أن نلاحظ إنه قد كان بينها وبين رسول الله ﷺ علاقات خاصة لم تكن بينه وبين سائر نسائه، ونراه وهو معتكف في المسجد لا يرغب أن يخالط نساءه، فكان لا يأتي لبيته إلا لحاجة وقد أراد مرة الاعتكاف في رمضان، ورأى أخبية حول المسجد وفيها عائشة - وحفصة- وزينب بنت جحش فأنكر ذلك عليهن.

وقال: (البر ترون فيهن) وترك الاعتكاف.

وكنا نراه في المسجد معتكفا وتزوره نساؤه ولما يردن الذهاب يأمر صفية بنت حيي أن تبقى معه ساعة، وحين تريد الذهاب من عنده يخرج معها يشيعها إلى باب المسجد، ويمر به رجلان من الأنصار ويسلمان عليه ويريدان الانصراف.

فقال رسول الله ﷺ لهما: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي».

ويكبر هذا الاعتذار عليهما ويقولان: (سبحان الله يا رسول الله).

غير أنه يذكرهما أن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم". أخرجه البخاري ٣٥.

ففي هذا الحادث نرى أمرين:

أحدهما:

تلك العلاقة الخاصة التي بينه وبين زوجه صفية.

والثاني:

حرصه على أن يتجنب المسلمون مظان التهم وموارد الشيطان.

ونجد هذه العلاقة فيما كان يخاطبها به رسول الله ﷺ لقد

كان يوجه إليها عبارات ظاهرها الدعاء عليها، وهي في الحقيقة خطاب المقربين، ففي حجها معه بلغه أنها لا تستطيع أن تطوف فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**حلقي عقري أو حابستنا هي؟**» . (جزء من حديث أخرجه البخاري - ٣٢٨١ -) .

وقد ورد نوع هذه العبارة لعائشة في قوله لها: (تربت يمينك) . .

جزء من حديث أخرجه البخاري - ١٣٠ - ومسلم - ٤٤٥ رواه البيهقي في الكبرى - ٩/ ٢٢٧/ ١٨٦١١ .

فهذه العبارات تدل إما على نوع من الإعجاب مثل ما يخص أبا بصير أو نوع من إظهار القرب وإسقاط التحفظ مثل ما وقع لصفية وعائشة .

وهذه هي صفية بنت حيي التي اصطفاها الله لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإصطفاها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لتقيم معه ثلاث سنين، وتحيا بعده في بيوته ستا وعشرين سنة، والتحقت به، وبقي اسمها خالدا حيا بين أسماء أمهات المؤمنين رضي الله عنها وعنهن أجمعين .

"في موكب السيرة -٢: ٦٨و ٧٠-".

وروي أبو عمرو أن جارية لصفية قالت للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: (إن صفية تحب السبت وتصل اليهود) . .

فبعث إليها عمر فسألها فقالت:

أما السبت فإني لا أحبه منذ أبدلني الله يوم الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحما فأنا أصلها .

ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت . **فقالت:** الشيطان،

قالت: اذهبي فأنت حرة .

وروت أم المؤمنين صفية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وروى عنها: ابن أخيها ومولاها كنانة ومولاها الآخر يزيد بن متعب، وزين العابدين بن على بن الحسين، وإسحاق بن عبد الله بن الحارث ومسلم بن صفوان.

وقد أخرج ابن سعد من حديث أمية بنت أبي قيس الغفارية بسند فيه الواقدي، **قالت:** أنا إحدى النسوة اللاتي زففن صفية إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فسمعتها تقول: ما بلغت سبع عشرة سنة يوم دخلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى - ٨/ ١٢٩ .

وقال: توفيت صفية سنة اثنتين وخمسين في خلافة معاوية . (الإصابة ٧/ ٧٣٩ - ٧٤٢).

ومن سياق ما تقدم يتضح بعض ملامح حكمة إلهام المولى عز وجل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاستجابة لرأي أصحابه بالزواج من صفية بنت حيي بعدما قتل أبوها مع بني قريظة وقتل زوجها يوم خيبر وأراد أن يأخذها دحيه الكلبي من سبي خيبر.

فقالوا له:

(يا رسول الله إنها سيدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلا لك).

- فاستحسن بإلهام من الله جل وعلا رأيهم حتى لا تذل هذه السيدة بأن تكون أسيرة عند من تراه دونها، فاصطفاها وأعتقها وتزوجها، ليكون في ذلك درس لكل مسلم من أمته على مر العصور والأجيال بأن يتعامل مع الناس مراعيا أقدارهم، وأن ينزلهم منازلهم حتى ولو كانوا من خصومه أو

أعدائه .

- أن إباحة الإسلام للمسلم بالزواج من كتابية انطلاقا من أن من أركان الإيمان في الإسلام هو إيمان المسلم المؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واعتراف الإسلام بما جاء من رسالات سماوية ، وإن كان قد جاء مصححا ومتمما لها ، فيه حكمة لا تخفى على عاقل أو متأمل ، فإن لم تسلم الزوجة وظلت على دينها أنجبت ذرية مسلمة ، وإن أسلمت وحسن إسلامها كانت بجانب ما تقدم دعوة طيبة لقومها ولغيرهم للدخول في الإسلام بما تتبعه من الأخلاقيات العظيمة التي أوجبها الإسلام كالبر بالوالدين ، وصلة الرحم ، وإصلاح ذات البين ، والإصلاح بين الناس ، وحسن الجوار ، والأمانة ، والوفاء والصدق ، والإخلاص ، والنصيحة والتواضع ، والتسامح والعفو ، والحلم ، والصبر ، والأخوة الإنسانية . . إلخ .

حرص الإسلام على أن يتجنب المسلمون مظان التهم ، وموارد الشيطان ، وقد اتضح هذا جليا من تصرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما خرج مع أم المؤمنين صفية يشيعها عند باب المسجد ، ومر به رجلان من الأنصار سلما عليه وأراد الانصراف فيقول لهما: على رسلكما إنها صفية بنت حيي ليخبرهما أن من معه هي من أمهات المؤمنين فكبر هذا الاعتذار من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فقالا:** سبحان الله يا رسول الله غير أنه ذكرهما أن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم .

- أنه ينبغي على المسلم الذي يتزوج من كتابية أن يزيد من الاحتفاء بها وحسن التعامل معها بسمو أخلاقيات الإسلام ، وأن يعرفها على دلائل عظمة الرسالة المحمدية ، وأن يعينها على البر ومواصلة صلة الرحم مع أهلها و قومها . .

أسوة بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعامله مع أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله تعالى عنها التي أسلمت وحسن إسلامها وأصبح بيتها بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستا وعشرين سنة إلى أن التحقت به أحد بيوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المفتوحة مقصدًا لكل المسلمين ونسائهم لينهلوا منها ما شاؤوا من فقه وعلم وحديث ومنارات يستنيرون بها ولم يك بيتها رضي الله تعالى عنها مقصدا للمسلمين فحسب بل أيضا لقومها وأهلها الذين رأوا ما رأوا من دلائل عظمة الإسلام والرسالة المحمدية فدخل الكثيرون منهم في دين الله أفواجا ، وحسن إسلامهم حتى إن كنانة ابن أخيها ومولاها كان أحد الرواة عنها .

* * * * *

أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله تعالى عنها

آخر امرأة تزوجها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

هي ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث تزوجها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان بمكه معتمرا سنة سبع بعد غزوة خيبر .

وكانت أختها الثانية أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث متزوجة من العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه وأختها لأمها الثالثة سلمى بنت عميس متزوجة من حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه .

وكانت ميمونة قبله عليه الصلاة والسلام متزوجة من أبي رهم بن عبد العزى فلما تأيمت كانت قد جعلت أمرها إلى العباس رضي الله تعالى عنه زوج أختها فزوجها للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو محرم ، فلما رجع بني بها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسرف "موضع على بعد عشرة أميال من مكة".

ويقال: إنها وهبت نفسها للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذلك أن خطبته عليه الصلاة والسلام جاءتها وهي على بعيرها فقالت: (البعير وما عليه لله ورسوله) .

وقيل: الواهبة نفسها غيرها .

وكان اسمها برة فسماها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ميمونة) ، وهي خاله ابن عباس وخالد بن الوليد وأخواتها أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب وأم ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولبابة الصغرى بنت الحارث كانت متزوجة من أبي بن خلف الجمحي فولدت له على بن أبي وعزة بنت الحارث التي كانت متزوجة من زياد بن عبد الله بن

مالك الهلالي .

فهؤلاء أخواتها لأبيها وأمها ، ولها أخوات من أمها:

الأولى: أسماء بنت عميس كانت متزوجة من جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فولدت له عبد الله ومحمدا وعونًا ، ثم لما استشهد في غزوة مؤتة خلف عليها أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فولدت له يحيى .

الثانية: سلمى بنت عميس وكانت متزوجة من سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه فولدت له أمة الله بنت حمزة وقيل: إمامة بنت حمزة ، ثم خلف عليها شداد بن أسامة بن الهادي الليثي ، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن .

الثالثة: سلامة بنت عميس كانت متزوجة من عبد الله بن كعب بن منبه الخثعي .

الرابعة: أم المؤمنين زينب بنت خزيمة المسماة " أم المساكين " التي تزوجها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما تقدم ذكره .

وكان يقال في أوساط العرب:

إن أكرم أصهار عجوز في الأرض هم أصهار هند بنت عوف بن زهير ابن الحارث أم ميمونة بنت الحارث وأم أخواتها . .

فقد كان من أصهارها: العباس وحمزة رضي الله تعالى عنهما أبناء عبد المطلب .

الأول: على لبابة الكبرى بنت الحارث منها .

والثاني: على سلمى بنت عميس منها .

وجعفر وعلي ابنا أبي طالب رضي الله تعالى عنهما كلاهما على أسماء بنت عميس الأول قبل أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه والثاني بعد أبي بكر وشداد بن أسامة بن الهادي الليثي على سلمي بنت عميس عنها بعد وفاة حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، ورسول الله ﷺ على بنتها زينب بنت خزيمة. (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين - ٢: ١٩٢).

زوج النبي ﷺ ميمونة عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه كما تقدم ذكره وأصدقها عنه أربعمائة درهم.

قال ابن إسحاق: كان صداق نسائه عليه الصلاة والسلام أربعمائة درهم. (السيرة النبوية لابن هشام - ٤/ ٣٥٠).

وروى مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت.

كان صداق رسول الله ﷺ لأكثر نسائه عشرة أوقية ونشا قالت: أتدرى ما النش ؟

قلت: لا

قالت: نصف أوقية، فذلك خمسمائة درهم صداق رسول الله ﷺ (أخرجه مسلم ١٤٢٦/ ٧٨).

وقال ابن شهاب:

هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وكذلك قال قتادة.

وقال: وفيها نزلت ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ (سورة الأحزاب ٥٠).

وقال ابن عبد البر: وقول ابن شهاب الصواب.

وروت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله تعالى عنها عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستة وسبعين حديثا.

أخرج لها منها في الصحيحين ثلاثة عشر حديثا والمتفق عليه منها سبعه وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بخمسة وروى لها الجماعة . (المجتبى لابن الجوزي) .

وفي مجموعة رقم ٣٢ في مخطوطات دار الكتب الظاهرية: أنها روت تسعة وتسعين حديثا .

وقد روى عنها:

ابن أختها عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما وابن أختها الصغرى يزيد بن الأصم، وربيبها عبيد الله الخولاني ومولاتها ندبة ومولاها عطاء بن يسار ومولاها سليمان بن يسار وإبراهيم بن عبد الله بن معبد بن عباس وكريب مولي ابن عباس وعبيد بن السباق وعبيد الله بن عتبة والعالية بنت سبع وغيرهم .

وماتت رضي الله تعالى عنها بسرف أيضا وهو الموضع الذي بني بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه ودفنت في موضع قبتها التي ضربها لها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين البناء بها، وذلك سنة إحدى وستين من الهجرة .

رواه الطبراني في الكبير ٢٣/ ١٠٢١ - والهيثمي في مجمع الزوائد - ٩/ ٢٥٢ .

وروي الطبراني برجال ثقات عن محمد بن اسحاق قال:

ماتت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام الحرة سنه ثلاث وستين وصلى عليها ابن عباس، ودخل في قبرها رضي الله

تعالى عنهما وعنهن أجمعين .

وفي السير: عن يزيد بن الأصم قال:

دفنا ميمونة بسرف في الظلة التي بني بها فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد كانت حلقت في الحج ، نزلت في قبرها أنا وابن عباس .

أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى -٨/ ٣٩ والحاكم في المستدرك - ٤/ ٣٢ .

وقيل توفيت بمكة فحملت على الأعناق بأمر ابن عباس إلى سرف وقال: (ارفقوا بها فإنها أمكم) .

أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٤٠ من طريق الواقدي .

وعن عطاء توفيت ميمونة بسرف فخرجت مع ابن عباس اليها فقال: (إذا رفعتم نعشها فلا تزلزلوها ولا تزعزعوها) . أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٤٠ ومن طريق الواقدي وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٣ .

وقال الواقدي:

ماتت في خلافة يزيد سنة إحدى وستين ولها ثمانون سنة .

ويتضح لنا مما يتقدم أن الذي أشار على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالزواج من أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث هو عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه وكان رجلا حكيما يتميز ببعد النظر ورجاحة العقل ورقي الإيمان وسعة العلم والفقه وسمو الخلق ، كما كان أكثر الناس معرفة بأم المؤمنين ميمونة فقد كان زوج أختها فلابد أنه رأى فيها من سمو الإيمان وحب الإيمان لله ورسوله وحميد الخصال ، ومن الفقه والعلم وحسن

الاستماع والإدراك ما يؤهلها لتكون زوجة للرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما للمؤمنين وقد يتضح جليا مدى حبها وطاعتها لله ورسوله، عندما جاءتها خطبته عليه الصلاة والسلام وهي على بعيرها فقالت: (البعير وما عليه لله ولرسوله).

كما أنها بعد وفاة الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يناهز خمسين عاما أوصت قبيل وفاتها بأن تدفن بسرف في الظلة التي بنى بها فيها رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حتى إن بعض الأئمة والفقهاء والعلماء كابن شهاب وابن عبد البر وقتادة وغيرهم أشاروا إلى أنها هي التي وهبت نفسها للنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزلت فيها الآية الكريمة ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ (سورة الأحزاب ٥٠).

وقد نرى أيضا أن العباس رضي الله تعالى عنه كان بعيد النظر فيما أشار به على الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للزواج من أم المؤمنين ميمونة وقد نرى في بعد نظره هذا ما يلي:

١- جذب كبار القبائل المؤثرة إلى بني هاشم بمصاهرتهم ولقد كان لأم المؤمنين ميمونة وعائلتها تشعب كبير في بني مخزوم وبني هاشم وغيرها من القبائل، ومن المعروف أن بني مخزوم كانوا قبل عدة سنوات قليلة من إسلامهم من أشد خصوم بني هاشم والرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأكثرهم عداء لدعوته، فقد كانوا يرون في بعثه وإتيانه للرسالة سحبا لبساط السيادة من تحت أقدامهم.

٢- أن تقدم سن الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آنئذ مع ما كان يبذله من جهد جسماني يفوق أضعاف أضعاف الآخرين سواء في العبادة أوالقيادة قد

يكون أيضا من الدوافع التي أدت بعمه العباس بأن يرشح أم المؤمنين ميمونة خير عون لأمهات المؤمنين للعناية بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظرا لحبها الجمّ له .

٣- زيادة عدد بيوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببيت تسكنه مؤمنة جليلة فقيهة تتميز بجم حبها لله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سواء في حياته أو بعد وفاته يكون مقصدا للمسلمين ونسائهم وخاصة القبائل التي تتشعب فيهم قرابتها رضي الله تعالى عنها لتوطيد أواصر المحبة والمودة بينهم ومنارة يستنيرون بها ويتزودون فيها بما يتشوقون إليه من فقه وعلم وحديث ، ومما يؤكد ذلك أن روى عنها على سبيل المثال ابن أختها عبد الله بن عباس وابن أختها الأخرى يزيد بن شداد وابن أختها عبد الرحمن بن السائب الهلالي وابن أختها الأخرى يزيد بن الأصم . . إلخ .

وهم قبائل مختلفة . .

ورغم أنها ظلت مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث سنوات فقط في حياته إلا أنها روت عنه أكثر من ستة وسبعين حديثا وقيل: تسعة وتسعين حديثا - أخرج لها في الصحيحين ثلاثة عشر حديثا وروى لها الجماعة .

وقد نخلص من ذلك أن العليم الخبير ، قد جعل العباس بن عبد المطلب سببا لزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث وسبحان مسبب الأسباب ، وألهم سبحانه وتعالى العلي القدير رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقبول عرض عمه العباس ومبادرته بخطبة أم المؤمنين لما فيه خير له وللمسلمين كما تقدم شرحه .

* * * * *

الفصل الثاني:
سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معاشرة زوجاته

كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المثل الكامل والأسوة الحسنة للرجال في حسن معاشرته أزواجه بالمعروف والقسمة بينهم بالعدل في كل من المبيت والنفقة واللطف والتكريم، وفي احتمال غضبهن وغيرتهن وتنازعهن بالأناة والرفق والموعظة الحسنة، وكان يزورهن صباحا للوعظ والتعليم، ومساء للمجاملة والمؤانسة، وكن يجتمعن معه في بيت كل منهن وكان يخدم في بيته ويقضي حوائجه بيده.

قالت السيدة أم المؤمنين عائشة:

"ما ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده امرأة له ولا خادما قط"..

رواه ابن ماجه "١٩٨٤" وصححه الألباني.

وسئلت: (ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصنع في أهله ؟)

قالت: (كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة)

"أخرجه البخاري ٦٠٣٩".

ولها رضي الله تعالى عنها أحاديث أخرى مفصلة في خدمته في بيوته وقيامه بحاجه نفسه وفي وصفها له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

" كان ألين الناس وأكرم الناس وكان رجلا من رجالكم إلا أنه كان بسام".

رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد السفر ضرب القرعة بينهن. إذ لا يمكن

السفر بهن كلهن وترجيح إحداهن يسخط سائرهن وإن كان فيها من المرجحات ما يقتضي الترجيح إذ لا يتساوى النساء في استعدادهن للسفر ومشقته . . .

ولكنه لما حجّ أخذهن كلهن معه ، ولما مرض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرضه الأخير شق عليه أن يتنقل بين بيوتهن كل يوم كما كان يفعل حال صحته فكان يسأل: أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟

فأذن له أزواجه كلهن ، أن يكون حيث شاء فاختار بيت عائشة وفيه توفي .

أخرجه البخاري - ٥٢١٧- عن أم المؤمنين عائشة .

وقد كان للسيدة عائشة بنت الصديق رضي الله تعالى عنهما من قلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم يكن لأحد من نسائه بعد خديجة رضي الله تعالى عنها فكانت الحبيبة بنت الحبيب .

وكان هذا الحب الطبيعي الذي تعددت أسبابه أعظم دليل على عدله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أزواجه .

فهو لم يكن يفضلها على أقلهن مزايا في الخلق والذكاء والنسب بشيء من النفقة أو المبيت أو حسن المعاشرة .

ولذلك كان يقول في قسمه بينهن بالعدل: **«اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»** . "رواه أبو داود ٢٦٧".

وقد تتبين الأسوة الحسنة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل مع أزواجه من خلال التجارب المتنوعة التي أراد المولى عز وجل أن يمر رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها مع أزواجه لتكون دروسا بليغة للإنسانية كلها وقادتها عبر العصور

والأجيال ومن هذه التجارب:

أولا: صبره على غيرة نسائه وتظاهرهن عليه:

لما كان من طباع البشر أن العدل بينهم يغريهم بالمطالبة بأكثر من حقوقهم، والظلم يسكنهم على ما دونها ولا سيما النساء، حتى ولو كن فضليات النساء في العالم، ورأى نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يفضل أحداهن على غيرها بشيء ما إلا أن الناس يتحرون بهداياهم له يوم عائشة، فرأت زوجات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن في هذا هضما لحقوقهن وكرامتهن.

ورغم أن هذا الهضم من وجهة نظرهن ليس من فعله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل كان ينالهن من تلك الهدايا كلهن بالتساوي إلا أنهن كن يطالبنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنصافهن وأغلظن في المطالبة والحفن حتى أسكتهن فيما بعد بما يكرهن.

قالت السيدة عائشة:

إن نساء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كن حزبين:

فحزب فيه: عائشة وحفصة وصفية وسودة.

والحزب الآخر: أم سلمة وسائر نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة فإذا كانت عند أحدهم هديه يريد يهديها إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخرها حتى إذا كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت عائشة فكلم حزب أم سلمة أم سلمة فقلن لها:

كلمي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكلم الناس فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فليهديها له حيث كان من بيوت نسائه".

فكلمته أم سلمة بما قلن، فلم يقل لها شيئا.

فسألنها، فقالت: "ما قال لي شيئا".

فقلن لها: "فكلمته حتى دار إليها أيضا فلم يقل لها شيئا.

فسألنها فقالت: ما قال لي شيئا.

فقلن لها: كلميه حتى يكلمك فدار إليها فكلمته".

فقال لها: (لا تؤذيني في عائشة فإن الوحي لم يأتنى وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة).

قالت: فقلت أتوب إلى الله من أذاك يارسول الله.

فأرسلن زينب بنت جحش فأتته فأغلظت وقالت: أن نساءك ينشدنك العدل في بنت أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسبتها حتى أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لينظر إلى عائشة هل تكلم؟ فتكلمت عائشة ترد علي زينب حتى أسكتتها قالت: فنظر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عائشة وقال: إنها بنت أبي بكر. "أخرجه البخاري ٢٥١٨".

يعني أنها مثل أبيها في الذكاء والعقل والحجة وفي ذلك قالت السيدة عائشة: " فأرسل أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت جحش وهي التي كانت تساميني منهن في المنزله عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم أر قط امرأة خيرا في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم، وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي تتصدق به وتتقرب إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدة فيها كانت تسرع منها الفيئة أي الرجوع إلى الحلم....

إلخ" أخرجه مسلم (٢٤٤٢/ ٨٣) .

وللسيدة عائشة مع السيدة زينب وقعة أخرى فقد أخرج مسلم (١٤٦٢/ ٢٦) من حديث أنس رضي الله تعالى عنه قال:

كان النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له تسع نسوة فكان إذا قسم بينهم لا ينتهى إلى المرأة الأولى إلا في تسع ، فكن يجتمعن كل ليلة في بيت التى يأتيها فكان في بيت عائشة فجاءت زينب فمد يده إليها فقالت:

(هذه زينب فكف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده ، فتقاولتا حتي استخبتا)

(السخب: الصخب والصياح) وأقيمت الصلاة فمر أبو بكر على ذلك فسمع أصواتهما **فقال:**

"أخرج يارسول الله إلى الصلاة وأحث في أفواههن التراب".

فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فقالت عائشة:

الآن يقضي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاته فيجيء أبو بكر فيفعل بي ويفعل فلما قضى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاته أتاها أبو بكر فقال لها قولا شديدا وقال: أتصنعين هذا ؟

ولا ريب أن الغيرة الزوجية غريزة أو عاطفة في الرجال والنساء وهي فيهن أشد ولا سيما إذا تعددن عند الرجل .

وكان أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهن يغرن من عائشة لعلمهن أنها أحب إليه وكانت هي أشدهن غيرة عليه حتى أنها كان تغار من خديجة رضي الله تعالى عنها وهي لم تعاشرها كما تقدم ذكره . . . فكانت على شدة ما ترى من عدله ومساواته بين نسائه تطيع ما يوسوس إليها الشيطان إذا

خرج من عندها في ليلتها أنه يذهب إلى غيرها . . . . حتى تبعته من حيث لا يشعر ، فإذا هو قد ذهب إلى البقيع - مقبرة المدينة - يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء ، فقام وأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ، قالت: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا) .

فانصرفت فدخلت حجرتي ، ولي نفس عال ، ولحقني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ما هذا النفس يا عائشة**» .

فقالت: " بأبي وأمي أتيتني فوضعت ثوبيك ثم لم تستنم ، إن قمت فلبستهما ، فأخذتني غيرة شديدة ، ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع .

فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عائشة أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟**» (راجع ما أخرجه مسلم ١٠٢/ ١٩٧٤ من حديث مخرمة بن المطلب) .

وقالت السيدة عائشة .

"وخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة فغرت عليه أن يكون أتى بعض نسائه فجاء فرأى ما أصنع فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أغرت ؟

فقلت: «**وهل مثلي لا يغار على مثلك؟**» .

فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد جاءك شيطانك**» .

قلت: «**أو معي شيطان؟**» .

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم**» .

فقلت: «**ومع كل إنسان؟**» .

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**» .

(أخرجه مسلم - ٢٨١٥/ ٧٠) .

وقالت السيدة عائشة مرة تعيب صفية لتغيرها منها: " يا رسول الله حسبك من صفية قصرها ".

فقال لها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»** . رواه أبو داود - ٤٨٧٥".

أي أن كلماتها في قبحها لو ألقيت في البحر لأثرت فيه وخبث بها .

وكان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد شرب ذات مرة عسلا عند أم المؤمنين زينب كان أهدى إليها فأحبه ، فأغرت عائشة به جميع نسائه فتظاهرن على الكيد له حتى لا يعود إلى شرب العسل عندها بأن تواطأن على أن ينكرن رائحته مما شرب ففعلن .

وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شديد الكراهة للرائحة الخبيثة فامتنع عن شرب ذلك العسل عندها وحرمه على نفسه، فلما علم بكيدهن وكذبهن عليه غضب عليهن كلهن . (أخرجه البخاري - ٥٢٦٧- ومسلم ١٤٧٤- عن عائشة رضي الله تعالى عنها) .

كما تواطأت عائشة مع حفصة في حادثة تحريم مارية القبطية وكان سببه غضب حفصة لاجتماعه بها في بيتها فاسترضاها بتحريمها عليه ، وأمرها أن تكتم الخبر فأفشته لعائشة ، وقد روى أيضا إنه أسر إليها حديثا آخر في مسألة الخلافة تظاهرتا - أي تعاونتا - عليه في ذلك وفيهما نزل قوله تعالى معاتبا له ومنذرا لهن:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ

وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾

(سورة التحريم ١ – ٥) .

وحاصل معنى الآيات:

أنه لا ينبغي لك أيها النبي أن تبالغ في مرضاة أزواجك فتبلغ منها أن تحرم لأجلهن ما أحل الله لك ، والله غفور رحيم ، غفر لك هذه فلا تعودن إلى مثلها وأن الله قد شرع لكم كفارة إيمانكم ومنها يمين تحريم المرأة أو الأمة - فهو كاليمين بالله تعالى - أي يكفره إطعام عشرة مساكين مرة واحدة أو كسوة كل منهم ثوبا ، أو عتق رقبة ، فمن لم يستطع إحدى هذه الثلاث وهو مخير فيها فصيام ثلاثة أيام .

والله **(العليم)** بأفعالكم ونياتكم فيها " الحكيم" بما يشرعه لكم فيما يعرض لكم من مقتضى الطباع البشرية فيربيكم به ويزكيكم .

ثم ذكر ذنب التي أفشت سره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي حفصة بما هو ظاهر المعني في الجملة وأرشدها هي والتي أفشت لها السر ، وهي عائشة إلى التوبة من ذنبهما وما صاغت أي مالت إليه قلوبهما ووافق أهواءهما من تلك الواقعة وأنذرهما إن أصرتا على التظاهر أي التعاون والتمالؤ على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الله هو مولاه الذي ينصره ويتولاه في كل أمر ، وكذلك جبريل وصالح المؤمنين ، والمراد بهم هنا أبوهما أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما والملائكة بعد ذلك كلهم يظاهرونه ويؤيدونه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم هددها بأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا طلقهما هما وسائر أزواجه المتحزبات عليه فإن الله يبدله خيرا منهن في كل ما يتفاضل به النساء عنده من صفات الكمال، ولو كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهمه التمتع الجسدي لو صف الله البدل بصفات الحسن والجمال، ولكنه لم يكن يحفل به ولو لم يكن نقصا في نفسه.

ثانيا: مطالبة أزواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياه بسعة النفقة:

كان من اليسير على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعيش مع أزواجه معيشة الترف والنعمة وأن يمتعهن، بما أحببن من اللباس، والطعام، والحلي، والزينة، بما كان له من الحق في خمس الغنيمة، ومنها على سبيل المثال غنائم بني النضير، وبما كان له من الأرض في خيبر، ولكن كانت غاية توسعته عليهن إعطاؤهن مئونة سنة كاملة من التمر والشعيرالذي كان يتخذ منه الخبز في الغالب.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتصدق ببعض ما أتاهن أو به كله إذا وجد من هو أحوج إليه من الفقراء، بل ذبح مرة شاة فتصدق بها كلها فقالت له عائشة: هلا أبقيت لنا قطعه منها نفطر عليها ؟ فقال: «**لو ذكرتني لفعلت**» (الترمذي ٢٤٧٠).

وقد وقع لها بعده مثل ذلك بعينه فقالت لها مولاة لها كما قالت هي للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأجابتها بما أجابها به فهذه هي التربية المحمدية لأمهات المؤمنين ولو اتبع أهواءهن في الترف والزينة والأمة في طور التأسيس لماعد ذلك من فضائل الدين ولتناقض مع ذم القرآن للمترفين المسرفين.

ولقد بشر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بفتح بلاد الشام والفرس، ومصر والاستيلاء على خزائن كسرى وقيصر والسيادة فيها وفي غيرها من

الأرض ، وحذرهم من الإسراف فيما أباح الله لهم في كتابه الكريم من الزينة والطيبات .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» أخرجه البخاري ٥٠٩٦ ومسلم ٢٤٧٠/ ٩١ .

ومن هذه الفتنة: أنهن الداعيات إلى الإسراف في الفتنة والزينة ، فلما أراد أزواجه التوسعة عليهن في النفقة وأن يمتعهن بما أحببن من تنوع اللباس والطعام والحلي ، وهن قدوة نساء المسلمين جعل الله العليم الخبير سبحانه وتعالى له مخرجا من ذلك بتخييرهن بين بقائهن على عصمته ، إيثار الحظ الآخرة وبين تمتيعه لهن بما يطالبن مع طلاقه لهن وتسريحه لهن بإحسان ، إيثار أمنهن لمتاع الحياة الدنيا وزينتها .

فلو أن زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غلب عليهن التمتع بالنعمة والزينة ، والترف لاقتدى بهن جميع النساء من ذلك العهد ، ولما استطاع الرجال صرفهن عنه ، ولما قام للأمة قائمة ، فإن الإسراف في الترف والزينة يهلك الأمم الغنية فكيف تقوى بها الأمم الفقيرة ؟ أم كيف يمكن أن تؤسس أمة عزيزة مصلحة لفساد البشر وظلهم بتنشئتها على التنافس في الشهوات والزينة ؟

*****

ثالثا: غضبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أزواجه وإيلاؤه منهن شهرا

تؤكد الروايات أنه في أول الإسلام كان قد اضطرب أمر النساء مع الرجال. إذ زادت جرأتهن عليهم، بتأثيرما أعطاهن الإسلام من الحقوق، وما أوصي بهن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التكريم حتى أنه قد اجتمع عند نسائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة سبعون امرأة كل تشكو زوجها، فلما انتهى نساؤه إلى هذا الحد، مع العدل الكامل، واللطف الشامل، غضب غضبة الحليم، وحلف ألا يقربهن شهرا واعتزلهن تربية لهن، ولا يتم ذلك إلا بوضع الحلم موضعه و الغضب في موضعه.

هذا وقد نستخلص من الصحيحين خبر غضبه وحلفه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على اعتزال أزواجه شهرا وتبيان ما كان عليه حال النساء في أول الإسلام ولنبدأ في هذا الخصوص بسياق مسلم:

فقد روى مسلم في صحيحه أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:

مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أساله هيبة له حتى خرج حاجا فخرجت معه، فلما رجع فكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، فوقفت له حتى فرغ ثم سرت معه فقلت يا أميرالمؤمنين من اللتان أظاهرتا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أزواجه؟

فقال: تلك حفصة وعائشة

قال: فقلت له:

والله إن كنت لأريد أن أسالك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك".

قال: فلا تفعل ما ظننت أن عندي من علم، فسلني عنه، فإن كنت أعلمه أخبرتك .

قال: وقال عمر:

" والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم" .

قال: فبينما أنا في أمرا أتمره إذ قالت لي امرأتي: "لو صنعت كذا وكذا"

فقلت لها: " ومالك أنت ولماهينا ؟ وما تكلفك في أمر أريده"؟

فقالت لي: " عجبا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، وأن ابنتك لتراجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يظل يومه غضبان".

قال عمر: فآخذ ردائي ثم أخرج من مكاني حتى أدخل على حفصة .

فقلت لها: " يا بنية، إنك لتراجعين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يظل يومه غضبان"؟

فقالت حفصة: " والله إنا لنراجعه .

فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . . . .

ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة، لقرابتي منها .

فكلمتها فقالت لي أم سلمة:

عجبا لك يا بن الخطاب قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأزواجه ؟

قال عمر:

" فأخذتني أخذا كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها" .

لقد كانت هذه مقدمة مسلم لحديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فلنذ كر تتمة هذا الحديث من رواية البخاري عنه:

قال: ثم استقبل عمر الحديث يسوقه قال:

كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهم من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلينزل يوما وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غير ، وإذا نزل فعل مثل ذلك وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار- إذا قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار ، فصخبت على امرأتي فراجعتني ، فأنكرت أن تراجعني .

قالت: " ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليراجعنه ، وأن أحداهن لتهجره اليوم حتى الليل ". فأفزعني ذلك .

فقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن ، ثم جمعت على ثيابي ، فنزلت فدخلت على حفصة .

فقلت لها: أي حفصة أتغاضب إحداكن النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليوم حتى الليل ؟

قالت: نعم .

فقلت: قد خبت وخسرت ، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتهلكي ، لا تستكثري النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أي لا تطلبى منه الكثير " ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه وسليني ما بدا لك . .

قال عمر:

وكنا قد تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا فنزل صاحبي الأنصاري

يوم نوبته فرجع إلينا عشاء فضرب بأبي ضرب شديدا وقال: أقم ففزعت فخرجت إليه .

فقال: (قد حدث اليوم أمر عظيم) .

قلت: (ما هو أجاء الغسان ؟) .

قال: لا . . . . بل أعظم من ذلك وأهول ، طلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نساءه" .

فقلت: " خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون ، فجمعت على ثيابي ، فصليت صلاة الفجر مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل النبي مشربة له (**غرفة**) فاعتزل فيها ، ودخلت على حفصة فإذا هي تبكي وفقلت: ما يبكيك ؟ ألم أكن حذرتك هذا ؟ أطلقكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قالت: " لا أدري ها هو ذا معتزل في المشربة ، فخرجت فجئت إلى المنبر ، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم فجلست معهم قليلا ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت لغلام له: استأذن لعمر .

فدخل الغلام ثم كلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم رجع .

فقال: قد ذكرتك له فصمت ، فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ، ثم غلبني ما أجد فجئت فقلت للغلام: استأذن لعمر .

فدخل ثم رجع فقال: قد ذكرتك له فصمت .

قال عمر:

" فلما وليت منصرفا ، وإذا الغلام يدعوني ، فقال: قد أذن لك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فدخلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئا على وسادة من آدم حشوها ليفا فسلمت عليه ثم قلت - وأنا قائم -:

" يا رسول الله أطلقت نساءك "؟

فرفع إلى بصره فقال: لا .

فقلت: الله أكبر .

ثم قلت - وأنا قائم - أستأنس: يارسول الله لورأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة إذ قوم تغلبهم نساؤهم ، فتبسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ثم قلت:

" يا رسول الله لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لها: لا يغرنك إن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يريد عائشة - فتبسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبسمة أخرى .

فجلست حين رأيته تبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت في بيته شيئا يرد البصر غير أهبة (جلود مدبوغة) .

ثم قلت: (يارسول الله ادع الله فليوسع على أمتك ، فإن فارسا والروم قد وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله) .

وفي رواية:

" فبكيت فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟

فقلت: وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أري ، وذاك قيصر وكسرى في الأنهار والثمار

وأنت رسول الله صفوة خلقه فجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وكان متكئا .

فقال: «أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب؟ أن أولئك قدم عجلوا طيباتهم في الدنيا» .

فقلت: يا رسول الله استغفر لي .

فاعتزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعا وعشرين ليلة .

وكأني قد قال: ما أنا بداخل شهرا من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى .

قالت عائشة: ثم أنزل الله تعالى آية التخيير فبدأني أول امرأة من نساءه فاخترته ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة" .

وقد اتفقت الروايات على أن تخيير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزواجه بين تطليقهن وإبقائهن على عصمته على الوجه الذي يريده منهن ، وهو أن يكن قدوة صالحة للنساء في الدين كان بعد حادثة غضبه ، و هجره لهن شهرا ، ثم رضاه عنهن ، وقد صح أنه حدث في أثناء ذلك سبب آخر للتخيير ، وهو إلحافهن بطلب التوسعة في النفقة والزينة .

* * * * *

رابعا: تخييره صلى الله عليه وسلم لأزواجه بين الدنيا والآخرة

تؤكد كافة الروايات على أنه كان لهذا التخيير سببان:

أحدهما: غضبه وموجدته عليهن فيما كان من تظاهرهن عليه - كما تقدم ذكره -

والآخر: هو مطالبتهن له بالتوسع في النفقة والزينة وهو ما دلت عليه الآية الأولى من آيتي التخيير، وقد ذكر بعض المفسرين بعض ما طلبن من ذلك.

ويروي لنا مسلم في صحيحه حديث عن جابر بن عبد الله قال: "دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال: فأذن لأبي بكر فدخل.

ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا.

قال: فقال أبو بكر: لأقولنَّ شيئا أضحك به النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

" يارسول الله لو رأيت بنت خارجة " زوجه أبي بكر" سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها " وجأت عنقها: أي لكزة بجميع يده إلواه إظهارا للإنكار لأجل " الإيلام ".

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «هن حولي كما تري يسألنني النفقة».

فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها.

كلاهما يقول: تسألن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ليس عنده؟

فقلن: والله لا نسأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئا أبدا ليس عنده.

ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين.

ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ**﴾ حتى بلغ: ﴿**لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾.

قال: فبدأ بعائشة فقال: «ياعائشة أني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك».

قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآيتين.

قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسالك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، أن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا لكن بعثني معلما ميسرا».**

ثم خيرهن كلهن فاخترن ما هو خير لهن: " اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ". وهذا نص آيتي التخيير: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (سورة الأحزاب ٢٨ - ٢٩).

ولا ريب أنه يتضح لنا جليا بعد تناولنا للسيرة الذاتية لأمهات المؤمنين زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وظروف وأسباب زواجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكل منهن وملامح الحكمة في زواجه بكل منهن وتعدد وتنوع التجارب الإنسانية والاجتماعية التي مر بها صلوات الله وسلامه عليه معهن وسمو سلوكه

وتصرفه معهن حتى في أقسى هذه التجارب ليشكلوا معا أجل وأسمى قدوة للإنسانية كلها رجالا ونساء للتأسي بها في تكوين الأسر السوية الفاضلة المؤمنة باعتبار أن الأسرة هي الأمة الصغيرة، ومنها تعلم النوع الإنساني أفضل أخلاقه الاجتماعية، وهي في الوقت نفسه أجمل أخلاقه وأنفعها فمن الأسرة تعلم الإنسان الرحمة والكرم، وليس في أخلاقه جميعا ما هو أجمل منهما وأنفع له في مجتمعاته . . . . . .

فلا أمة حيث لا أسرة، بل لا آدمية، حيث لا أسرة . . . . وإنه يجب ألا تترك مؤمنة فاضلة حتى بعد ترملها أو طلاقها تواجه الحياة وظروفها وقسوتها دون أن تكون في كنف مؤمن يرعاها ويكفلها ويحميها . . . . . .

وبالشروط التي أوجبها الإسلام في هذا الخصوص وأهمها الكفاية والعدل - وذلك حماية للأمة كلها وأسرها من الفحشاء والمنكر والبغي.

وصحيح أن الإسلام لم يمنع الاكتفاء بزوجة واحدة بل استحسنه، ولم يوجب تعدد الزوجات، بل أباحه فقط ومن الحكمة في ذلك أنه شرع لأزواج يعيشون على الأرض، ولم يشرع لأزواج تعيش في السماء ولا مناص في كل تشريع من النظر إلى جميع العوارض والتقدير لجميع الاحتمالات، وفي هذه الاحتمالات ولا ريب ما يجعل أباحه التعدد خيرا وأسلم من تحريمه بغير تفرقة بين ظروف المجتمع المختلفة، أو بين الظروف المختلفة التي يدفع إليها الأزواج.

ولقد أوضح لنا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجلاء متى تكون إباحة التعدد خيرا وأسلم من تحريمه مما يؤكد معه أيضا، وكما اتضح من عرضنا فيما تقدم للسير الذاتية لأمهات المؤمنين أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تزوج كلا من أمهات المؤمنين إما بوحي أو إلهام من الله عز وجل.

ولا ريب أيضا أن ملامح الحكمة في تعدد أزواجه صلوات الله وسلامه عليه أكثر مما أبيح لرجال أمته، أن يكن قدوة للنساء في الفضائل النسائية فقد كن جميعا رضي الله عنهن قدوة في التقوى والورع وحب وطاعه الله ورسوله، كما أنه هو القدوة العليا، والأسوة الحسنة للأمة كلها في معاملة النساء، وفي سائر الأمور، وملاك ذلك كله إيثار سعادة الآخرة على متاع الدنيا.

وقد يتضح ذلك جليا عندما أرادت أزواجه التوسعة عليهن في النفقة والزينة، وهن قدوة نساء المسلمين جعل الله عز وجل له مخرجا من ذلك بين بقاءهن على عصمته إيثارا لحظ الآخرة وبين تمتيعه لهن بما يطالبن مع طلاقه لهن وتسريحه لهن إحسان. فلو أن نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غلب عليهن التمتع بالنعمة والترف لاقتدى بهن جميع النساء من ذلك العهد، ولما استطاع الرجال صرفهن عنه، وما قامت للأمة قائمة ثم كيف أن تؤسس أمة قوية، عزيزة، مصلحة لفساد البشر وظلمهم، بتنشئتها على التنافس في الترف والزينة ؟

نعم أباح الله الغنى الحميد سبحانه وتعالى الزينة والطيبات في حال السعة والثروة، ولكن بدون إسراف ولا بطر، وخاصة لمن هم قدوة للآخرين على مر الأجيال والعصور حكاما أو محكومين.

لقد أمر الله تعالى رسوله أن يبلغ أزواجه ما ذكر من التخيير على أنهّ من ربه لا من عند نفسه، ليكون مبدأ حرية الاختيار للزوجة المسلمة مبدأ من مبادئ الإسلام في الزواج على مر العصور والأجيال.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب ٢٨ - ٢٩) .

وخلاصة معنى الآيتين:

قل لهن: إن كنتن تردن من حياتكن الزوجية حظوظ الدنيا ، وشهواتها وزينتها فإنني لم أبعث لذلك ، ولا تزوجتكن لذلك ، فتعالين أعطيكن المتعة المالية التي شرعها الله للمطلقات وأسرحكن إلى أهليكن سراحا جميلا لا إهانة فيه ولا إساءة ، كما أمر الله كل من احتاج إلى تطليق امرأته لعدم استطاعته أن يعيش معها عيشه راضية مرضية لله تعالى ثم له ولها ، وهو دليل على أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستطيع أن يقوم برسالة نبوته مع زوجات يرون في حياتهن معه نعيم الدنيا وزينتها ، وإن كنتن تردن من هذه الزوجية مرضاة الله تعالى ، ومرضاة رسوله بالقيام بأعباء الدين ، وإصلاح أمور المؤمنات والمؤمنين وثواب الدار الآخرة تؤثرنة على نعمة الدنيا العاجلة ، فإنَّ الله قد أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما .

كما وصل الأمر بمواعظ وحكم عرفهن بها الله تعالى منزلتهن ، وتفضيلهن على سائر النساء يجعلهن قدوة لهن في التقوى وحسن معاملة الأزواج بما أتاحه عز وجل لهن من معاشرة مصلح البشر الأعظم محمد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخاتم النبين وما يتلقينه عنه من آيات الله ، والحكمة وما يشاهدنه من معاملته ، وعلو أخلاقه من الأسوة الحسنة ، وأن مقتضى ذلك أن يكون أجرهن على العمل الصالح مضاعفا ، وعقابهن على الأعمال الفاحشة مضاعفا ، على قاعدة الغرم والغنم ، وكون الذي يقتدي به في الخير له أجر ومثل أجور من يقتدون به فيه ، والذي يقتدى في الشر عليه وزره ومثل أوزار الذين يقتدون به فيه . وفي هذا أخرج مسلم في صحيحه "١٠١٧/ ٧١".

عن جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال:

" جاء ناس من الأعراب عليهم الصوف، فرأى سوء حالهم وقد أصابتهم حاجة، فحث الناس على الصدقة، فأبطؤوا عنه، حتى رئي ذلك في وجهه قال: ثم إن رجلا من الأنصار جاء بصرة من ورق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهن شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء»** .

ولو كانت سيرة أزواج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مرضية في متاع الدنيا وزينتها لفسدت سيرة سائر المؤمنات بل لكان ذلك من أسباب فساد اعتقاد كثير من الرجال.

من أجل هذا وغيره من الفضائل قال الله عز وجل مخاطبا لهن:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (سورة الأحزاب ٣٠ – ٣٤).

الفاحشة المبينة: وهي الفعلة الظاهرة القبح، كالكذب في مسألة العسل.

القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع وإذعان النفس.

التقوي: اتقاء مخالفة الله ورسوله وكل ما تسوء عاقبته.

الخضوع بالقول: هو القول الحسن البريء من الريبة الذي لا ينكر نزاهة قائله من يسمعه.

وقرن في بيوتكن: أي الزمن بيوتكن فلا تخرجن منها لغير حاجة.

التبرج: إظهار الزينة لجذب الأبصار، وهو من منكرات الجاهلية القديمة.

الرجس: الدنس المعنوي وهو كل ما يمس الدين والشرف.

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس.. تعليل لهذه الأوامر والنواهي كلها فإن امتثالها ينافيه وتتم به الطهارة بأكمل معانيها.

وذكر الضمير (**عنكم**) ليشمل صاحب البيت صلوات الله وسلم عليه فإن شرف أزواجه له فإن علق بإحداهن رجس أصابه ألمه وعاره - أعلى كرامته ونزه ساحته كما يشمل بعمومه سائر أهل بيته بالإضافة إلى زوجاته. ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله**﴾.

أي احفظن ما يتلي في بيوتكن من آيات القرآن الكريم ومن المعارف السامية الرقية للعقول المزكية للنفوس، الحاملة لها على معالي الأمور التي ينطق بها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سواء في الأحاديث القدسية أو الشريفة أو شرحه وتفسيره لا يعز على المؤمنين فهمه من آيات الله.. لتظل بيوت النبوة مقصدا للمؤمنين والمؤمنات، ومنارة يستنير بها أهل العلم والفقه.. وهو ما

حدث فعلا بعد وفاة النبي ، إذ ظلت بيوت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ما يجاوز خمسين عاما مقاصد ومنارات للمؤمنين والمؤمنات عامة ولأهل الفقه والعلم خاصة يستزيدون جميعا منها علما وفقها . . .

فسبحان اللطيف الخبير جل وعلا الذي أنزل هذه الآيات . .

ولا جدال أن أي عاقل منصف سواء كان مسلما أو غير مسلم إذا ما أمعن النظر في الآيات ٢٨ إلى ٣٠ من سورة الاحزاب " أي من: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الله وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ الله أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيراً * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لله وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْروفاً * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ الله وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله وَالْحِكْمَةِ إِنَّ الله كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾** .

وما سبق شرحه من أسباب نزولها وما تضمنته من تأديب المولى عز وجل لأزواج نبيه ﷺ وتعليمهن ما يراد منهن ليوقن تماما وبما لا يدع أدني مجال للشك من افتراء خصوم الإسلام وأعدائه الذين يدعون باطلا أن هم محمد من حياته كان التمتع باللذات والشهوات وأنه لذلك أكثر من الزوجات .

وقد ينبغي هنا إلى أن ننبه إلى وهم غالب بين الجهلاء وأنصاف المثقفين منهم أو المتعجلين عن سنن الأديان في تعدد الأزواج قبل الإسلام، إذ الغالب على أوهامهم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أباح تعدد الزوجات أو إنه أول دين أباحه بعد الموسوية والمسيحية، وليس هذا بصحيح.

ففي هذا المعنى يقول أستاذنا المفكر العظيم العقاد في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه:

وكما يبدو من مراجعة يسيرة لأحكام الزواج في الشرائع القديمة وفي شرائع أهل الكتاب، فلا حجر على تعدد الزوجات في شريعه قديمة سبقت قبل التوراة والإنجيل ولا حجر على تعدد الزوجات في التوراة أو في الإنجيل، بل هو مباح مأثور عن الأنبياء أنفسهم من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد الميلاد، ولم يرد في الأناجيل نص واحد يحرم ما أباحه العهد القديم للآباء والأنبياء ولمن دونهم من الخاصة والعامة، وما ورد في الإنجيل يشير إلى الإباحة في جميع الحالات، والاستثناء في حالة واحدة وهي حالة الأسقف حين لا يطبق الرهبانية فيقنع بزوجة واحدة اكتفاء بأهون الشرور.

وقد استحسن القديس أوغسطين أن يتخد الرجل سرية مع زوجته إذا عقمت هذه، وثبت عليها العقم، وحرم مثل ذلك على الزوجة إذا ثبت لها عقم زوجها؛ لأن الأسرة لا يكون لها سيدان "كتاب الزواج الأمثل" Bomo .com jugah

واعترفت الكنيسة بأبناء شرعيين للعاهل شرطان من عدة زوجات، وقال وسترمارك العالم الثقة في تاريخ الزواج:

(إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر وكان

يتكرر كثيرا في الحالات التي تحصيها الكنيسة والدولة، وعرض جروتيوس العالم القانوني المشهور لهذا الموضوع في بحث من بحوثه الفقهية فاستصوب شريعة الآباء العبرانيين والأنبياء في العهد القديم).

فالإسلام لم يأت ببدعة فيما أباح من تعدد الزوجات، وإنما الجديد الذي أتى به أنه أصلح ما أفسدته الفوضى من هذه الإباحة المطلقة من كل قيد، وأنه حسبها حساب الضرورات التي لا يغفل عنها الشارع الحكيم، فلم يحرم أمرا قد تدعو إليه الضرورة الحازبة، ويجوز أن تكون إباحته خيرا من تحريمه في بعض ظروف الأسرة أو بعض الظروف الاجتماعية العامة.

أما أن هذه الظروف قد تضطر أناسا إلى الزواج بأكثر من واحدة فالأمر فيها موكول إلى الذين يعانون تلك الضرورات من الرجال والنساء، ومن تلك الضرورات أن يحتفظ الرجل بزوجته عقيما أو مريضة لا يريد فراقها ولا تريد فراقه، ومنها أن يتكاثر عدد النساء في أوقات الحروب والفتن مع ما يشاهد من زيادة عدد النساء على الرجال في كثير من الأوقات، فإذا رضيت المرأة في هذه الأحوال أن تتزوج من ذي حليلة فذلك أكرم لها من الرضا بعلاقه الخليلة التي لا حقوق لها على زوجها وأكرم لها كثيرا من الرضا بابتذال الفاقة أو بذل النفس في سوق الرذيلة").

ويقول أستاذنا العقاد "**المصدر السابق**":

"ومن حسنات التشريع في جميع الضرورات إنه يحسب حسابها، ولا ينسى الحيطة لاتقاء ما ينقي من أضرارها ومن سوء التصرف فيها.. وكذلك صنع الإسلام بعد إباحة تعدد الزوجات للضرورة القصوى، فإنه اشترط فيه العدل ونبه الرجال إلى صعوبة العدل بين النساء مع الحرص عليه: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ (سورة النساء ٣).

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (سورة النساء ١٢٩) .

واشترط على الأزواج القدرة على تكاليف الزوجية والتسوية في السكن والرزق بينهم وبين الزوجات .

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ (سورة الطّلاق ٦) .

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (سورة البقرة ٢٣٣) .

ولا يسقط عن الزوج واجب الإحسان في المعاملة سواء اتصلت بينه وبين حليلته أصرة الزواج أو انتهت بينهما هذه الأصرة إلى الفراق بغير رجعة: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ﴾ (سورة البقرة ٢٢٩) .

بل لا يسقط عنه هذا الواجب حتى في حالة الطلاق بعد زواج لم تنعقد فيه الصلة بين الزوجين: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (سورة الأحزاب ٤٩) .

وهناك حيطة تعدل سلطان التشريع كله في ـ أمر تعدد الزوجات ، لأنها تكل القول الفصل فيه إلى اختيار المرأة فإن شاءت قبلته ، وإن لم تشأ رفضته فلا ، يجوز إكراهها عليه ، ولا يصح الزواج إذا بني على الإكراه .

وفي الحديث الشريف: «**لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن**» .

وفيه: «**أن الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر وأذنها سكوتها**» متفق عليه .

وقد أبطل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زواجا أكرهت فيه فتاة بكر على الزواج بأمر أبيها لمصلحة له في زواجها بابن أخيه .

وحدثت عائشة رضي الله تعالى عنها فيما رواه النسائي: " أن فتاة دخلت عليها **فقالت:** إن أبي زوجني من ابن أخيه يرفع له خسيسته وأنا كارهة **فقالت:** (احبسي حتى يأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .

فجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرته فأرسل إلى أبيها فدعاه فجعل الأمر إليها **فقالت:** (يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء) . رواه ابن ماجه .

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - فيما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه:

(أن جارية بكرا أتت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكرت أن أباها زوجها وهي كارهة فخيرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رواه أحمد وأبو داود .

هذا وقد يندر أن يطرق خصوم الإسلام موضوع الزواج وتعدد الزوجات في الإسلام دون أن يعرجوا من ذلك إلى زواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتذرعوا به للقدح في شخصه الكريم ، ومن ثم التشكيك في دعوته المباركة ودينه القويم .

ومن المتعارف عليه أن للإسلام خصومًا محترفين وخصومًا ينكرونه على قدر جهلهم به وبسيرة نبيه صلوات الله وسلامه عليه - وغير خاف أن خصومه المحترفين هم جماعة المبشرين الذين اتخذوا القدح في الإسلام صناعة يتفرغون لها ويتعيشون منها ، وصناعتهم هذه لا تصطنع عملا لها أهم وأخطر من عملها في تبشير المسلمين أو تبشير الوثنيين لكيلا يتحولوا من الوثنية إلى الإسلام .

ولا غنى لأصحاب هذه الخصومة، وهذه الحرفة من اختلاق المآخذ وتصيد التهم التي تجري بها أرزاقهم، وتتصل بها أعمالهم سواء عرفوا الحقيقة، أو جهلوها وأعرضوا عن البحث فيها، لأنهم يريدون الاتهام ولا يستريحون إلى معرفة تهدم كل ما عملوه ويتعيشون منه أو تصرفهم عن كل ما ألقوه وعقدوا النية عليه . .

أما خصوم الإسلام من غير فئة المبشرين، فأغلبهم يخاصمونه على السماع المغلوط، ولا يعنيهم أن يبحثوه أو يبحثوا دينا من الأديان حتى الدين الذى ينتمون إليه وشبوا عليه من حجور أمهاتهم.

وما اتفق خصوم وأعداء الإسلام عن سوء نية على شيء قدر ما اتفقوا علي خطة التبشير في موضوع الزواج على الخصوص، فكلهم يحسب أن المقتل الذي يصاب منه الإسلام في هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتمثيله لأتباعه في صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الإصلاح، وأي صورة تغنيهم في هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الغارق في لذات الجسد العازف في معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح.

ولقد تصوروا أنهم على صواب في الخطة التي تخيروها لإصابة الإسلام في مقتله من الطريق الوجيز.

ولكنهم في الحقيقة كانوا على أشد الخطأ في اختيارهم هذه الخطة بعينها إذ إن جلاء الحقيقة في هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه فإذا بمقتلهم المظنون يكتفي بها المسلم، ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه الذي يفتري عليه من قالة السوء.

فلا حجة للمسلم على صدق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رسالته للرد بها

على خصوم الإسلام ودفع أباطيلهم أصدق من سيرته في زواجه، وبما أوحى المولى عز وجل له أو ألهمه في اختيار زوجاته - كما تقدم شرحه - وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها في معيشة نبي الإسلام في مطلع حياته إلى يوم وفاته، فما الذي يفعله الرجل الشهواني إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين قومه.

لم يكن عسيرا عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب، وأفتن جواري الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية، ولم يكن عسيرا عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه فهل فعل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك بعد نجاحه؟

هل فعل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك في مطلع حياته؟

كلا: لم يفعله قط، بل فعل نقيضه، وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من شظف العيش في داره أن هذا النبي العظيم الذي أدبه ربه، فأحسن تأديبه ووصفه بأنه على خلق عظيم والذي يفتري عليه الأثمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق في لذات حسه - قد كانت زوجته الأولى قد قاربت الأربعين، وكان هو في عنفوان شبابه، لا يجاوز الخامسة والعشرين وقد اختارته زوجا لها؛ لأنه الصادق الأمين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة وفيما لقبه به عارفوه وعارفوا الصدق والأمانة فيه.

وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ثم وفي لها بعد موتها فلم يفكر في الزواج إلا عندما أوحي إليه بالزواج لحكمة أرادها الله عز وجل في ذلك، وقد تعرضنا فيما تقدم لمحاولة شرح أو تبيان بعض ملامحها.

وفي كل زيجاته صلوات الله وسلامه عليه لم يبن بواحدة من أمهات

المؤمنين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة - بل كما كانت إرادة المولى عز وجل في أن يكون أسوة لأمته في الضّن بالمؤمنات على المهانة وصلة الرحم وتوثيق أو أصر الصلة بين المؤمنين وبعضهم البعض بالمصاهرة . . . إلخ .

وغير خاف أن معظمهن كن أرامل وأيمات فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يتزوجهن رسول الله .

يقول أستاذنا العقاد في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه:

ولقد أقام هؤلاء الزوجات في بيت لا يجدن فيه من الرغد ما يجده الزوجات في بيوت الكثيرين من الرجال ؛ والمسلمين كانوا أو مشركين .

وعلى هذا الشرف الذي لا يدانيه عند المرأة المسلمة شرف الملكات أو الأميرات شقت عليهن شدة العيش في بيت لا يصبن فيه من الطعام والزينة فوق الكفاف والقناعة بأيسر اليسير؛ فاتفقن على مفاتحته في الأمر؛ واجتمعن يسألنه المزيد من النفقة وهي موفورة لديه لو شاء أن يزيد في حصته من الفيء ؛ فلا يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه إلا أن الرجل الحكم في الأنفس والأموال - سيد الجزيرة العربية - لم يستطع أن يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة ؛ فأمهلهن شهرا وخيرهن بعده أن يفارقنه ولهن منه حق المرأة المفارقة من المتاع الحسن أو يقبلن ما قبله لنفسه معهن من ذلك العيش الكفاف .

ولو أن هذا الخبر من أخبار بيت النبي كان من حوادث السيرة المحمدية التي تخفى على المطلعين المتوسعين في الاطلاع ؛ لكان للمبطلين بعض العذر فيما يفترونه على بني الإسلام من كذب وبهتان .

إلا أنه خبر يعلمه كل من اطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل وليس بينها ما هو أشهر في كتب التفسير من أسباب نزول هذه

الآيات في سورة الأحزاب .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب ٢٨ - ٢٩) .

وأقل المبشرين المحترفين ولعا بالتفتيش عن خفايا السيرة النبوية خليق أن يطلع على تفاصيل هذا الحادث بحذافيره لأنه ورد في القرآن الكريم خاصا بالمسألة التي يتكالب المبشرون المحترفون على استقصاء أخبارها وإحصاء شواردها وهي مسألة الزواج وتعدد الزوجات .

وقد كان لهذا الحادث الفريد في سيرة النبي صدى لم يبلغه حادث من الحوادث التي عنيت بها العشيرة الإسلامية حين كانت في بيئتها المحدودة تحيط بإيمانها إحاطة الأسرة بأبيها .

ويقول: وهجر النبي نساءه شهرا ، يمهلهن أن يخترن بعد الروية بين البقاء على ما تيسر له ولهن من الرزق وبين الانصراف بمتعة الطلاق .

وبدأ بالسيدة عائشة فقال: إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب إلا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك . . . . **فسألته:**

وما هو يا رسول الله ؟ فعرض عليها الخيرة مع سائر نسائه في أمرهن

فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير قومي ؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وأجابت أمهات المسلمين بما أجابت به السيدة عائشة وانتهت هذه الأزمة المكربة بسلام وما استطاع صاحب الدار - وهو يومئذ أقدر رجل في

العالم المعمور - أن يحل أزمة داره بغير إحدى اثنتين: أن يجمع النية على فراق نسائه أو يقنعهن معه بما لديهن من رزق كفاف أعن مثل هذا الرجل يقال إنه حلس شهوات وأسير لذات .

أعن مثله يقال: إنه ابتغى من رسالته مأربا يبغيه الدعاة غير الهداية والإصلاح ؟

فيم كان هذا الشفاء بأهوال الرسالة مأربا يبغيه الدعاة غير الهداية والإصلاح ؟

فيم كان هذا الشفاء بأهوال الرسالة وأوجالها من ميعة الشباب إلى سن لا متعة فيها لمن صاحبه التوفيق والظفر أو لمن صاحبته الخيبة والهزيمة ؟

من أراد الدعوة لغير الهداية والإصلاح فلماذا يريدها وما الذي يغنمه من ورائها ؟

أتراه يريدها مخاطر بأمته وحياته مستخفا بالهجرة من وطنه والعزلة بين أهله ؛ ليسوم نفسه بعد ذلك عيشة لا يقنع بها أقرب الناس منه وأعلاهم شرفا بالانتماء إليه؟

أمن أجل الحس ولذاته يتزوج الرجل بمن تزوج بهن وهو سيد الجزيرة العربية وأقدر رجالها على اصطفاء الحسن من الحرائر؟

وهل يتزوج بهن الشهوان الغارق في لذات الحس ليقتدين به في احتواء الترف والزينة وخلوص الضمير للإيمان بالله وابتغاء الدار الآخرة؟

وما مآربه من كل ذلك الجهاد في بيته وبين قومه إن لم تكن رسالة يؤمن بها ، ولم تكن هذه الرسالة أحب إليه من النعمة والأمان؟

إن المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسالة الزواج في السيرة النبوية

مقتلا يصيب محمدا أو يصيب دعوته من ورائه، ولكنهم قد كشفوا منها حجة لا حجة مثلها في الدلالة على صدق دعوته وإيمانه برسالته وإخلاصه لها في سره كإخلاصه لها في علانيته ولولا أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لاجتهدوا في السكوت عن مسألة الزواج خاصة أشد من اجتهادهم في التشهير بها واللغط فيها.

وعلم الله ما كانت براءة محمد من فريتهم مرتهنة بجلاء الحقيقة من مسالة الزواج والزوجات فإن أحدا يفقه ما يفوه به لا يسيغ أن يقول أن عملا كالذي قام به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضطلع به رجل غارق في لذات الحس مشغول بشهوات الجسد، ولئن كان كذلك تم استطاع أن يتم دعوته في حياته، وأن يبقيها تامة قومية لخلفائه ليكونن إذن آية الآيات على تكوين من الخلق لا يدانيه تكوين.

ولسنا نعتقد أن دينا رفيعا يسول للمتدين به أن يفتري الأباطيل على خلق الله، وأقبح من ذلك في شرع الدين الرفيع أن يكون الافتراء على الناس سبيلا إلى التبشير بكلمات الله، ولكن المبشرين المحترفين لا يدينون بالله ولا بالناس؛ وإنما يدينون بعبادة الجسد الذي ينكرونه ذلك الإنكار ويؤمنون به في أعمالهم وأقوالهم أحسن الإيمان.

*****

الفصل الثالث:
الروحية والزواج

شغلت بال وأبحاث الكثير من علماء الروح الحديثين ظاهرة ضرورة تزوج الأنبياء على مر التاريخ، وهو ما ينطبق أيضا على الوسطاء الروحيين حتى تظل نبوتهم أو وساطتهم مستقرة لا تتزعزع .

يقول العالم ديون فورشن في كتابه الحب والزواج في توضيح هذه المسألة:

(إنه من الضروري لكي تستخدم المواهب والتجارب العظيمة في العلوم الباطنية العليا أن يكون هناك زوجان يعملان على هيئة قطبين مثل هذين الاثنين عندما يعملان فإنهما يفتحان طريقا للقوى الإلهية لكي تتدفق خلالهما باندفاع هائل وهذه القوة لا تمغنطهما فقط بل تمغنط كل الوسط الذي هما فيه) .

ثم يتكلم المؤلف عن الخطورة المنتظرة من وجود فرد واحد غير متزوج وهو يمارس الأعمال الروحية ويعتبره كقطب كهربي مفرد لا يمكن أن يسير منه التيار بدون القطب الثاني

وتقول الوسيطة الروحية الشهيرة أرسولا روبرتس في كتابها التدريب على الوساطة الروحية: (غالبا ما تتقوى الرغبات الجنسية أثناء التدريب والوسيط العاقل عليه أن يحول هذه الدوافع إلى مستويات نشاط خلاق)

كما تقول عن الزواج:-

(الوسيط النموذجي هو الشخص السعيد في زواجه والذي يفهم كل جزء في طبيعة الاخلاق وكيفية التحكم فيها والتحكم في الطبيعة الجنسية ليس معناها تجاهلها)

وتقول:

(إنه عند إعلاء الغريزة فإن هذا يساعد الأرواح على أداء عملها بنجاح في تحقيق رغباتهم في العلاج وإنفاذ الحق والإسعاد لسكان عالمنا) .

وفي التاريخ الإنساني وتاريخ الرسل والأنبياء ما يوضح لنا أن هناك تأكيد نوع من الزواج لا يقوم على القوانين الأرضية المتداولة وإنما يقوم على قوانين سماوية أو روحية لا نفهمها نحن في هذا العالم ورب معترض يتساءل .

وكيف نخضع لقوانين لا نعرفها ؟

والواقع أن حياتنا كلها بل إن مصيرنا والأرض الني نعيش فوقها واقعة تحت تأثير قوانين أعلى من قوانيننا الأرضية وأننا لسنا سوى شاهدي عيان لنفاذ هذه القوانين .

يقول ديون فرشن أيضا في ذات كتاب الحب والزواج عن القوة الكونية بين الزوجين والتي يمكن أن نسميها بالعروة الوثقى:

(. . . القوة الكونية هي اتحاد يدخله شخصان لغرض القيام بعمل باطني معين لا يمكن أن يقوم به سوى اثنين يعملان عمل القطبين ، وهذه ليس لها علاقة بالحب أو الجاذبية ، كما يظن عامة الناس وإنما هدفها هو الخدمة وليس إلا أي أنها شركة يساهم فيها من أجل العمل المطلوب إنجازه .

وكل مساهم في هذا الاتحاد لا يختاره رفيقه وإنما يهب نفسه لخدمة السيد الموجود في الطبقات الباطنية التي هما تلميذان فيها بواسطة الحكمة الصادرة من طبقة أعلى تم بينها التوافق بناء على صفاتهما ومقدرتهما على الخدمة التي يحددها شعاعها اللوني . . .) .

وقد يجدر بنا أن نذكر هنا بالمركبات أو الأجسام السبع المتفق عليها بين علماء الروح الحديثين والتي يكون منها كل إنسان بترتيبها من أسفل إلى أعلى:

أولا:- الجسم المادي (الفيزيقي) .

ثانيا:- الغرائزي .

ثالثا:- العاطفي .

رابعا:- العقل الأدني .

خامسا:- العقل الأعلي .

سادسا:- الروح الأدني .

سابعا:- الروح الأعلي .

وعلماء الروح يتفقون على أن الزواج الناجح السعيد يجب أن يكون تزاوجا بين هذه الأجسام السبعة للفرد بالأجسام السبعة المناظرة لها من الشريك الآخر ، وأن التعاسة والفشل يحدثان لو اختل هذا الشرط .

فلو تزوج رجل تيقظت فيه الأربعة أجسام الأولى مثلا بامرأة تيقظت فيها الثلاثة أجسام الأولى فقط فمعنى هذا أن الجسم الرابع عنده وهو العقل الأدنى لم يتزوج أو ظل أعزب .

ومن هنا تبدأ التعاسة إذ لا يجد لدى زوجته استجابة في هذه الناحية العقلية وسوف يبحث عن امرأة أخرى ليتزاوج معها بجسده العقلي الأدنى ما دامت لم تشبعه زوجته في هذه الناحية .

وهذا ما يقوله علماء الروح في هذا الصدد يقوله علماء النفس والاجتماع أيضا ، فالاعتقاد السائد بينهم جميعا هو أن الزواج الناجح يقوم

على وجود توافق في أكبر عدد من النقاط بين الرجل وزوجته المستقبلية .

وغير خاف أن الناس في عصرنا هذا لا تفكر في الزواج للأسف إلا على مستوى الجسم الأول أو الثاني أو على مستوى الجسد المادي والغرائزي وينسون أن الأجسام الأعلى هي الأهم والأخلد خاصة عندما يضمحل هذان المستويان المذكوران وتعتري الجسد المادي الشيخوخة وضعف الغريزة الجنسية .

وإذا ما عدنا ثانية إلى العروة الكونية التي سبق أن تكلمنا عنها نجد أن ديون فورشن يقول فيها .

(إن العروة الكونية تبدأ عملها في المستوى الأعلى وتعمل تدريجيا إلى أسفل) .

ويقصد بهذا أن التوافق بين الزوجين قد بدأ على أعلى مستوى الذي هو مستوى الروح ثم يسري بعد ذلك إلى مستوى العقل ، وهكذا حتى الجسد المادي .

ويقول أيضا (إذا ما تم الاتحاد على المستوى الروحى فإن الزوجين يصبحان شخصا واحدا في الواقع وفي المادة . . يدخلان الضوء ولا يعودان منه) .

كما يقول أيضا:-

(إن العروة الكونية شيء غير عادي ؛ لأنها تخضع لسنة من القوانين مختلفة تمام الاختلاف عن القوانين التي تتحكم في المحيط العام للبشر إنها إحدى الأسرار العظيمة ولهذا ، فهي قاصرة على المتآخين في الطريق) .

ويقول العالم السويسري الشهير سويد نبرج في كتابه الجنة والنار:

(وزواج الحب لا يمكن أن يوجد بين اثنين من دينين مختلفين لأن الحق الموجود في أحدهما لا يتفق مع الخير الذي في الآخر وشيئان مختلفان وغير متوافقين لا يمكنهما أن يصنعا عقلا واحدا من عقلين وعلى هذا يكون الزواج في السماوات قائما بين الذين يسكنون نفس الطبقة لأنهما يكونان متساويين في صفة الحق وصفة الخير ولا يمكن أن يقوم مع أحد خارج طبقتهما) .

وفي إطار ما قدمناه قد يجدر بنا أن نعرض لما قدمه عالم الفيزياء والروح المعروف الأستاذ الدكتور علي راضي رحمه الله من تفسير روحي في كتابه الروحية والدين لزواج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسيدتين خديجة وعائشة **رضي الله تعالى عنهما رغم فارق السن بينه وبين كل منهما حيث يقول:**

(لقد تزوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخديجة التي كبرته بخمسة عشر عاما وظل معها حتى توفيت ثم تزوج بعدها بعدة نساء قيل إنهن بلغن عشرا وكل التاريخ يذكر أنه لم يحب أكثر من خديجة وعائشة ترى ما هو السبب ؟

هل كان سببا جنسيا كما يدعي الجاهلون ؟ لا وألف لا .

إنما كان سببا روحيا صرفا ، فقد كانت خديجة أكبر منه وبمثابة الأم له وكانت عائشة أصغر منه وبمثابة الابنة له ، وكل من له عقل يعلم أن التوافق الجنسي يأتي عند تقارب السنين ، فالمسألة إذن لم تكن قائمة على أساس مادي وكان أجدر بالكتاب المسلمين قبل غيرهم أن يبحثوا هذه النقطة بحثا غير مادي) .

ويقول:

(كانت خديجة هي الصدر الحنون الذي وضع محمد اليتيم الفقير المضطهد رأسه عليه كانت أول من دخل الإسلام وكان دخولها دخول المؤمن المصدق لا دخول الضعف والاستسلام وكانت تكتم إسلامها حتى أذن لزوجها بإفشاء الدعوة) .

يقول التاريخ:

(مكث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخديجة يصليان سرا ما شاء الله) .

ويقول أيضا:-

(إنها كانت وزيرة صدق على الإسلام) وكانت منزلتها كبيرة في نفس محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إنه قال: **«خديجة خير نساء العالمين» وقال مرة أخرى: «خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم أفضل نساء أهل الجنة»** .

(ولم يكن النبي ليمتدح امرأة حتى لو كانت زوجته إلا إذا كانت على مرتبة روحية عالية حقا فهو لا ينجذب إلا لمن يشبهه في صفاء الروح ، وما كان بينهما من علاقة إنما كانت على أساس روحي أكثر منه مادي) .

والتوافق الذي كان بين محمد وخديجة توافق عجيب حقا توافق جعله لا يفكر في أي من بنات حواء عداها ، وهي التي تكبره بخمسة عشر عاما وظل هذا الحب الوحيد لها طوال ثلاثين عاما تقريبا من سن ٢٥ حتى سن ٥٤ حتى توفيت وتركته وحيدا وهذا التوافق جعلهما في حياتهما شخصا واحدًا .

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرد على عائشة غيرتها من خديجة بعد وفاتها:

«قد أمنت بى إذ كفر بى الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس» . وهذا بين المدى الذى يشعر به الإنسان الذى تمر به أعظم تجربة وهى تجربة الاتصال الروحى فيهب الناس ليكذبوه ويرمونه بالجنون، فتقف بجانبه خديجة بحنانها تحول أشواك الحياة إلى زهور وأحجار الأعداء إلى حرير يسير عليه نحو هدفه المرسوم، وهذا التوافق هو الذى جعل جبريل عليه السلام ينزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في صحبة خديجة ؛ لأنها في ذاتها كانت قوة وعونا ونعم مضيف للروح الضيف، وفى نطاق القانون الروحى الذى سبق أن قدمناه من ضرورة وجود قطب آخر مع القطب الأول حتى تسير القوة الروحية في طريقها الصحيح . . يقول الدكتور على راضى (المصدر السابق):

«ونجد أنه عثر على عائشة بناء على توجيه من عالم الروح فقد جاء جبريل فى منامه يظهرها له» .

ويقول: **«أنها زوجتك فى الدنيا والآخرة»** . ثم يتكرر ذلك المنام ثلاث مرات وفى مرة أخرى يبين له وجود الشبه بينها وبين التى غادرته إلى عالم الروح .

فيقول جبريل عليه السلام لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منامه مشيرا إلى عائشة: «يارسول الله هذه تذهب بعض حزنك وأن فى هذه خلفا من خديجة» .

«كانت زيارة جبريل للنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى منامه إذن لمجرد إبلاغ صورة الأمر المقرر فى الغيب» . وتزوج محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعائشة فعلا وأصبحت حياة محمد مصباحا يضيء له حياته الجافة في بطن الصحراء . وغدت له شيئا أساسيا كالهواء والماء ولم لا؟ إنها الزوجة الوحيدة التى

تشاركه متاعبه وإحساساته العديدة التى تشع من طبيعة إنسان له درجات سبع وكانت استجابة عائشة للحياة الروحية التى يحياها زوجها هى أهم عامل جعله ينجذب إليها ويتضح هذا جليا في كتب السيرة فجبريل كان يزور محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقرئه القرآن في جلسة يسودها التوافق وكان التوافق الأعظم حينما يكون محمد وحده أو مع عائشة.

والتوافق أو المحبة معناها التحامهما فتقوى عملية استقبال الروح. وحقا كان محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعائشة عبارة عن شخص واحد لا شخصين وتقول أم المؤمنين عائشة في ذلك: «**فضلت على نساء النبى** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بعشر**» . **قيل: ما هن يا أم المؤمنين ؟** قالت «**لم ينكح بكرا قط غيرى ولم ينكح امرأة أبوها من المهاجرين غيرى وأنزل الله عز وجل براءتى من السماء وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة وقال: تزوجها فإنها امرأتك.. فكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى وقبض الله نفسه وهو بين سحرى ونحرى ومات فى الليلة التى كان يدور على فيها ودفن فى بيتى**» . ومن الملفت للنظر حقا أن نجد كلمة العروة الوثقى التى ذكرها العالم الروحى ديون فورتشن في كتابه (**الحب والزوج**) كما تقدم ذكره عى نفسها الكلمة التى ذكرها النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزوجته السيدة عائشة. **جاء في كتاب (عائشة) لمؤلفته زاهية قدورة: يقول البلاذرى:**

«**كانت أحب نسائه إليه**» . . . . . ولم يتردد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إظهار حبه لها فكان يقول لها من حين إلى آخر أن حبها في قلبه كالعروة الوثقى وكانت تسأله أيضا من وقت إلى آخر عن العروة الوثقى فيقول لها: أنها لم تتغير أبدا . ويقول أيضا: «**أن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» . **وكان يقول كذلك: «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا**

تلمنى فيما تملك ولا أملك» ويقصد بذلك حبه لعائشة . هذا ونعود ثانية إلى الدكتور على راضى (المصدر السابق) حيث يقول: «.. **وكان محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم علم اليقين أنه عندما ينتقل فسوف يلتقى بعائشة فى عالم الروح»** . **فها هو** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يقول:** لقد أريتها في الجنة ليهون بذلك على موتى كأنى أرى كفيها» . **وكان يقول لها: «ان كنت تريدين الإسراع فى اللحاق بى فيكفيك من الدنيا كزاد الراكب»** . وكان يضع دائما في ذاكرته قول جبريل إنها زوجتك في الدنيا والآخرة . وقد وجدته عائشة فعلا في انتظارها عندما غادرت الأرض وأصبحت تصاحبه في رحلاته في عالم الروح . إن مسألة زواج النبى بالسيدة عائشة تستدعى الكثير من التفكير لو أراد الإنسان أن يناقشها على المستوى المادى أو المستوى الظاهرى الذى اعتاد الناس الزواج عليه ، ولكن لو سلمنا بأن ، هناك حكم في عالم الروح لا يمكنا أن نفهمها نحن هنا في جيل واحد أو حقبة واحدة من الزمان لاسترحنا من عناء التفكير . لقد أهدى عالم الروح عائشة لمحمد لأنها كانت تتمتع بأعلى مستويات النفس بين نساء العرب في ذلك الوقت ولم يكن هناك أى لوم على زواجها بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا حداثة السن . **وهذا ما أريد أن أوضحه بأمثلة:** لنرجع مثلا إلى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على فراش الموت والإسلام لم يستقر بعد ، وكان من قبل قد أمر بتجهيز جيش كبير إلى الشام لقتال الروم . أننا سنجد لغز كبيرا لا يمكن للعقل العادى أن يفهمه .

يقول الدكتور هيكل في كتابه (حياة محمد):

أمر النبي بتجهيز جيش عرم إلى الشام جعل فيه المهاجرين الأولين وفيهم أبو بكر وعمر وأمر على الجيش أسامة بن زيد ، وكان أسامة بن زيد آنئذ حدثا لا يكاد يعدو العشرين من سنة فكان لأمارته على المتقدمين من المهاجرين ومن كبار الصحابة .

ما أثار دهشة الناس فهم يضعون السن ومركز الشخص في قبيلته . . . إلخ في الموضوع الأول ولا يعرفون الأسرار أو المواهب الخفية في الشخص وهم إذ لم يستمعوا لنصيحة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلم فقد أصموا آذانهم عنها في موقعة أحد، فخسروها، ومثل بجثثهم الأعداء وحتى بعد النبى كان عمر من المعترضين على غزوة الشام وأصر أبو بكر على تنفيذ أمر الرسول ورفض تعيين شخص آخر» . وخرج الجيش وودعه أبو بكر وتخلف عمر ولم تمض عشرون يوما على مسيرة الجيش حتى أخذ المسلمون البلقاء وانتقموا لقائدهم الأول زيد .

وبذلك كسب الموقعة أسامة الغلام الصغير وصدقت فكرة النبى ويصف الدكتور هيكل هذا فيقول: «**وكذلك نفذ أبوبكر ونفذ أسامة أمر النبى وعاد بالجيش إلى المدينة ممتطيا الجواد الذى قتل أبوه بمؤتة عليه**» . ولا يمكن أن يكون وكما قد يظن البعض أن هذا النصر جاء خبط عشواء، فالمسألة مسألة روحية صرفة فمحمد كوسيط قوى كان قادرا على استقراء المستقبل بإذن الله العليم الخبير واكتشاف القائد المنتصر بطريقة ما إما بالوحى، وهذا ما لم يقل به وإما بالإلهام أو بالإحلام . . . إلخ . ويستبعد أن يكون قد رأى في منامه أسامة هذا، وقد عاد منتصرا من موقعة حربية فأراد أن يحقق هذه الرؤيا تمام مثل ما حدث مع عائشة حينما جاء جبريل يهديها إياه .

وفى كلتا الحالتين كان مأمورا من عالم الروح الذى هو أتم عقلا وعلما بالمستقبل من عالمنا الأرضى المحدود، ولنرجع إلى سورة الكهف نقرأ الشيء العجيب الذى لا يقره العقل البشرى في الأحوال العادية نجد رجلا يقتل غلاما أمام النبى موسى، ويطلب من هذا النبى أن يسكت، ولا يحتج لأنه لا يعلم الحكمة العليا في ذلك، ومن هو ذلك القاتل يا ترى؟ هو نبى

آخر... الخضر عليه السلام... لقد أخذ موسى معه يوشع ابن نون. ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (سورة الكهف ٧٤ - ٧٥)، ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (سورة الكهف ٧٨).

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (سورة الكهف ٨٠ - ٨١).

وهناك رأي عند الروحيين فحواه أن الأرواح تعارفت من قبل في عالم الروح ونجد لذلك سندا في القرآن إذ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(سورة الأعراف ١٧٢).

إذن لا يستبعد أن يتحاب روحان هناك قبل ولادتهما في عالم المادة ومعني التحاب هنا هو أنهما كانا يشغلان درجة واحدة هناك، فعندما يولدان هنا قد يتعارفان إذا سمحت لهما الظروف، وقد يقضيان عمريهما دون تعارف بسبب اختلاف الدين أو الوطن. إلخ.

وقد لا يتقابلان بالمرة إذا ولدا في زمنين مختلفين، وإذا كانت بينهما العروة الوثقي فسوف يعيش كل منهما في حالة تعاسة لعدم عثوره على شقة الثاني.

ويقول علماء الروح أيضا أن الظروف كثيرا ما تهيأ بحيث يتقابل مثل هذين الشريكين في عصر من العصور.

وعلى ضوء هذا الرأي يمكنا إذن أن نقول أن محبة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كانت قائمة على حب سابق في عالم الروح فحينما ولدت في هذه الدنيا وكانت حديثة السن سارع إليها وحرص على الزواج منها ولم يترك لأهلها الفرصة ليزوجوها بغيره، وكان هو يعرف السر في هذا، وربما هي عرفت أيضا ذلك بالإلهام، وكانت حياتهما في سعادة كاملة أذن بناء على حياتهما في عالم الروح من قبل والتي سوف تستأنف فيه ثانية من بعد...

ويفسر الدكتور على راضي (المصدر السابق): زواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد عائشة وهو يحبها كما قدمنا على ضوء ما قلناه آنفا فيما يتعلق بالأجسام السبعة المتفق عليها بين علماء الروح وأن العروة الوثقي بين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والسيدة عائشة لم تهبط بعد ذلك إلى المستوى المادي في عائشة فيقول:

(وكانت ضعيفة البنية فوق حداثة سنها، فلم تستطع تحمل جيدا الجانب المادي من الحياة ولم يكن من في مثل سنها قادرًا على خدمة زوج والسهر على مصالحه، ولعل من أطراف ما وصفتها به بريرة جارية الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ما قالته بمناسبة حديث الإفك (أنها لم تر عليها أمرا قط سوى أنها تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله) - (كانت العروة الوثقى أذن لم تهبط بعد إلى المستوى المادى في عائشة، وكان على النبى أن يعوض هذا لينقص في المستوى المادى بالزواج فيمن هو أقوى منها وأكثر احتمالا ولم يكن هذا النقص من قدرها في نظرة قيد أنملة فهى في اعتبار رقيقة الدنيا والآخرة، ولكن الظروف أتت بها في الحياة وهى في سن أحدث منه فكان ما كان من زواجة بعدها بأخريات).

ونحن لا نختلف مع ماذهب إليه العالم الفيزيائى والروحى الدكتور على راضى رحمه الله من تفسير ولكننا في ذات الوقت نؤكد على أن ما ذهب إليه الدكتور على راضى في إطار قواعد علم الروح الحديث

(الباراسيكولوجى) لا يخرج عن كونه عاملاً من العوامل .

كما نؤكد أيضا على ما أوضحناه من قبل من أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد زوج إما بوحي من الله عز وجل ومباشر وإما بالإلهام أو الرؤى المنامية وذلك لحكمة أرادها الله عز وجل تعرضنا فيما تقدم لبعض ملامحها ليكون عبر تجاربه الحياتية المثل الكامل والأسوة الحسنة للرجال في الاختيار وحسن معاشرته أزواجه بالمعروف والقسمة بينهن بالعدل في كل من المبيت والنفقة واللطف والتكريم وفي احتمال غضبهن وغيرتهن وتنارعهن بالأناة والرفق . والموعظة الحسنة . ورغم أن قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أميل إلى السيدة عائشة كما هو معروف - إلا أنه لم يكن يفضلها على أقلهن مزايا بشيء في النفقة أو المبيت أو حسن المعاشرة ، وكان يقول في قسمه بينهن بالعدل: «**اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك**» رواه أبو داود ٢١٣٤ .

وهو يقصد بذلك ميل قلبه أكثر إلى السيدة أم المؤمنين عائشة .

وكما أوضحنا من قبل فلقد كان زواجه بعد وفاة السيدة خديجة من أمهات المؤمنين وعلى رأسهن السيدة عائشة بالإضافة إلى ما تقدم وهو تجنيدهن لخدمة الإسلام ، فقد كن يسمعن ويرعن ويعين كل ما يحدث أمامهن وكأن الله عز وجل سبحانه وتعالى أرسلهن له كجهاز تسجيل لعلمه ومعرفته وحكمته وما كان يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة .

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (سورة الأحزاب ٣٣ - ٣٤) .

ولقد رأينا كيف بدأت لنا واضحة ملامح حكمة زواج النبي من أمهات المسلمين بعد وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد ظلت بيوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفتوحة لمدة تجاوز الخمسين عاما بعد وفاته كمقاصد ومنارات للمؤمنات خاصة وللمؤمنين عامة ينهلون من ينابعها ما يشاؤون من الفقة والعلم .

وللحقيقة كانت السيدة عائشة رضي الله عنها أذكى أمهات المؤمنين وأقواهن حافظه بل قيل: إنها كانت أعلم من أكثر الرجال ولم يمتدحها الكاتبون والمؤرخون لجمالها وإنما لفقهها وعلمها . .

يقول في ذلك الزهري: (لوجمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل) .

وقال عطاء بن أبي رباح: (كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا في العامة) .

وقال عروة بن أبي موسي: (ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علما فيه) .

وقال أبو الضحى عن مسروق: (رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض) .

وقال هشام بن عروة عن أبيه: (ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة) .

* * * * *

المراجـع

الكتاب	المؤلف
القرآن الكريم	
صحيح البخاري	الإمام البخاري.
صحيح مسلم	الإمام مسلم.
الكتاب المقدس	
حقائق الإسلام	الأستاذ / عباس العقاد.
محمد الرسالة والرسول	المفكر المسيحي د / نظمي لوقا.
محمد ﷺ في التوراة والإنجيل	أ / إبراهيم خليل محمد.
المعجزة الكبرى	المفكر الإسلامي / عدنان الرفاعي.
الحب والزواج	العالم / ديون فورشن.
التدريب على الوساطة الروحية	الوسيطة الروحية الشهيرة" أرسولا روبرتس"
حياة محمد	أ. د / على راضي.

بقلم الكاتب الإسلامى الدكتور / محمد السادات

قام بمراجعة الكتاب / بلال حجازى

* * * * *



الفهـرس

❋ ❋ ❋ ❋ ❋